فضيلة الذنب

رواية

حيدر عصام

دار كتاب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2020
الكتاب: فضيلة الذنب
تأليف: حيدر عصام
مراجعة لغوية:
تصميم الغلاف:
إخراج: رضوى مرشدي غريب
المقاس: ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:

مسؤول النشر
طارق رمضان
مدير التسويق
رضوى عصام
مدير العلاقات
عمر عبد السميع
مسؤول علاقات عامة
غادة العقاد

جميع الحقوق محفوظة

all rights reserved . no part of this book may be repoduced ' stored in aretieval system , or transmitted in any from or by any means ithout prior permission in riting of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعاد المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

العنوان: ٤٩ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر
التليفون: ٠١٠٢٩٧٥٥٢٠٠
Email: darkitabone @ gmail.com

«الحُب هو المادة الخام للشُعراء، لكنه حياة المرأةِ كُلها»

فرجينيا وولف

(١)

ذاكـرتي مُصابـة بـورمٍ خبيـث وألمٍ كألمِ المَخـاض يُمـزق أحشـاءها، أتحسـس أجزاءهـا المُتورمـة وأنـا أمـدُ يدي لأتحسـس وجـوده، أنـا حبيسـة العتمـة كـما المعتـاد، أجلـس وحـدي في أواخـر الليـل أنتظـر بـزوغ الشـمس، انهـض مـن سريـره ثُـم أخـرج الى شُرفـة مسـكني، أجـد الكـرسي المتأرجـح خاصتـي يتأرجـح وحـده، أمـدُ يـدي لأتأكـد مـن أن الريـح سـبب حركتـه فأجـد الهـواء سـاكنا، تغمـرني السـعادة؛ لأنـه موجـودٌ معـي فأجلـس رفقتـه، مُنـذُ أكثـر مـن عشريـن عامـا وروحـي مُلقـاة عـلى الأرض أمامـي تلتقـط أنفاسَـهَا الأخـيرة، أجلـس وبحـور الذكـرى تتلاطـم امواجهـا أمـام رؤاي في صحـوتي والمنـام، أحتـاج الى معجـزةٍ إلهيـة لتوقِـف اطـلاق النـار في رأسي، فـوضى عارمـة لا يشـعر بهـا أحـد غـيري، فالفـوضى ليـس لِزاماً أن يُصاحِبهـا ضجيـج، الفـوضى الحقيقيـة عديمـة الصـوت.

آتي للجلـوس عـلى الكُـرسي المتأرجـح في شُرفتـي فتحـضر روحـه في جسـدي، أشـعر بوخـزةٍ بسـيطة في أطـراف قدمـي، يـأتي إليَّ عـلى هيئـة حلـم دون أن أنـام، أغمـض عينـي وأنصـت لمـا سـيقولهُ لي مـن غزلنـا القديـم، أنـا العاطفـة التـي لم يقـدر عـلى كتمانهـا، أنـا العاصفـة التـي هبـت عـلى مدينتـهِ المهجـورة وعَجـزَ هَزيمُهـا المُدمـر عـن اطـراء أي تغيـير.

أنا عجوزٌ منذُ ان افترقنا، منذُ قديم الأمل،

منذُ وفاتي وأنا في قيد الحياة، الحياة التي لا نفهم مغزاها إلا بعد تقدم العمر وتقوس الظَهر ودَسّ المشاعر في قبورٍ مُهدمة، الحياة الشاقة التي تؤدي بنا اعوامها الأخيرة الى الصمت، الى ما أنا عليه الآن، إذ لا يُغريني أي موقفٍ يستحقُ الانبهار، أسكن بين الظن والوهم، أقف في مُفترق طريقٍ إن تحدثتُ عنه، قضية وجودي هو، هو السكون بين زوايا العَدم، أعمق نُقطةً في روحي ما إن نطقتُ باسمه، أقف على حافة اعلى قِمم الندم ثُم ألقي بنفسي لأهوى إليه، بعيداً هو مني، بُعد البَسمة من ثغرٍ يتيمٍ ضال.

لي صمتٌ يتسمُ بالكآبة، لي ابتسامة تجعل كُل من يراني قانعاً بأنني أبتسم، أنا قضية وجودٍ في قلبِ رجل لم يكن يحُب الحياة، كان يعشق وطنهُ ذا المذاق المُر أكثر من الحياة، يسكُن الهيستيريا وقت المرح، التنفسُ طموح لديه لا أكثر لو فكّر في تسرب الوقت وتضاءل العُمر المُتبقي، ألوم نفسي لأنني أحببته لوماً يغلبهُ الحسرة، كنت أكره كَسله وسكونه وحديثهُ البارد وقت اتخاذ القرار.

لم يمنح لحبنا الشيء الثمين، كُنا الهياج وقت سكون المُدن، كُنا أنامل صبي تعبث بآلة البيانو لتصدر صوتاً غير مفهوم، تسربنا الى المجهول، تُحيط بقصتنا أسلاك شائكة، أُقحِمنا بعلاقةٍ ليس لها وصف، عَشِقنا بعضنا وكرهنا في آنٍ واحد، إثمُنا كبير، كبيرٌ جداً، إثُمنا لن تتمكن من غفرانهِ اي آلهة، لكنني افتقده، ومُستعدةٌ بأن أشعر بالأطمئنان ما

إذ وعدني بالحيرة مُجدداً، لعلي أراه مرةً ثانية، وقتها سأرضى بحضورهِ البارد واتخاذهِ للقرار المُتأخر، سأفاوض الزمن وسأسامحه، ولو شاء بي الامر لأن أختار مرةً ثانية، فأنني سأختاره.

يملؤني انتظارٌ كثيف، دخان صوته يُحرّض الوهم ويثير جنوني وأنا في كل صباحٍ أنتظر بزوغ الشمس ورؤيته، منظراً يُذكرني بأجفانهِ حالما يرفعُها وهو يستيقظُ مبتسماً لأنني قضيت الليل برفقته، أرتدي اللون الأبيض ولا أرتدي غيره، وجهيَ الكالح تجاوز الاثنين والستين من العُمر وباتَ لا يليق بهِ غيره.

أسمع صوت سير اقدام (ياسمين)، ابنتي التي دأبتُ على تربيتها بحرصٍ يملؤه الخوف بُغية أن أراها أجمل كل بنات الحي، في صغرها حين كانت تتحرك أمامي كنت أشعرُ كأنها قطعةً سقطت مني ونَمَت، تُعنَى هي الآن برعايتي بعد ما كَبُرَت وأصبحت فتاةً لا تشبهني، حرصت اشد الحرص لئلا تكون مثلي، حرصت لأن تكون اذكى من أن تفوّت فرصة عِناق حبيبها خَشية احتقار مُجتمعها لها؛ لأن تكون اثمن ما في حياة الرجل وليس سلعةً تُباع وتُشترى، حرصت لئلا تكون على شاكلتي وينتهي بها الامر مثلي، تستيقظ آناء الليل استجداءً لوهمٍ يخبرها بأنها قُرب من كانت تُحِب.

الان نبدأ بحكايتنا المُبهمة، أنا و(ياسمين)، وعدتها بذلك حال انهائها لدراستها، انهت منذُ أيام قلائل آخر فروضها الجامعية في كُلية الطب، وعدتها بسردٍ تام لقصتي، أحدثها عمّا مضى، أخبرها لمَ نحنُ فقط من دون عائلة او أقارب، لِمَ لمْ يطرق بابنا أي ضيف منذ سنوات، تجلب كرسيا وتجلس قربي في شُرفة مسكننا والشمس تكاد تشرق الآن، جالسةٌ أنظرُ من خلال الشرفة خُلاصة الجمال في مدينتنا، يطل مكاني المعتاد على شرفة ذكرياتٍ تُعاني صُداعا شديدا في مُحيط حنينها.

أسألها عن سبب استيقاظها بغير عادتها، فتقول: إنها لم تنم جيداً، ظلت تترقب عقارب ساعة غُرفتها طوال الليل، تنتظر إجابات أسئلتها التي لم أُجب عنها من قبل، اتفقنا منذ أن كَبُرتْ بألا تسأل عن كل شيء مُبهم في حياتي، عن أي شيء ليس لهُ تفسير، عن عاداتي الغريبة، عن بكائي بشكلٍ مُفاجئ، عن استنشاقي لهواء الشهيق بصوتٍ عال، عن انعدام النوم في رأسي لأيام متواصلة، عن إيقادي لشمعةٍ والجلوس عدة ساعاتٍ بمفردي أضمُ بين يدي باقة ورد، أحملهُا لأوقاتٍ مُحددةً في السنة، لأيام احتفل فيها بمجيئهِ لي في منامي، ليُقبلني بعد أن يشم الوَرد الذي جلبتهُ له مُبتسما مع وهج يضيء من وجهه يُشابه ارتطام الاجرام السماوية، بعد أنْ يمرر يدهُ بين خصلات شعري مُبتسماً بذات العمر الذي افترقنا بهِ، ما زلت خائفة من

ان يـراني يومـاً بعمـر الشـيخوخة وهـو بعمـر الشـباب، لأننـا حـين افترقنـا كان بعمـر الشـباب وكنـت مثلـه، والان لا يـزال هـو بعمـر الشـباب وأنـا لسـتُ مثلـه، أنـا في عمـر الشـيخوخة لأننـي انتظـره وهـو لا ينتظـرني، الشـيخوخة لمـن ينتظـر مَـن لا مجـيء لـه، الشـيخوخة ليسـت التقـدم في السـن.

تُحـدق (ياسـمين) في وجهـي بأعـين جاحظـة، فأبتسـم عـلى سـبيل الاطـراء، تذكـرني بموعـد عقاقـيري الطبيـة فأجيبهـا بأننـي لا اكـترث لتناولهـا اليـوم، أنـا أنظـرُ بشـغفٍ يبلعُنـي لمجـيء ملـك المـوت.

عبـاراتي كلهـا تبـدأ بكلمـة (كان)، عباراتٌ يسـبقهُن الشـجن، أحشـائي مَحشـوّة بالنـدم، اللـون الأبيـض غزيـرٌ في رأسي، أريـد أن أراه مُجـدداً، أريـد أن أعتـذر لـهُ لأننـي ولـدتُ لأصادفه، أسرد ذكريـاتي لأورط الجميـع بـه ثُـم أتشـاجر معهـم مـن أجلـه، ثُـم ازاحمهـم عليـه، هـو ورقـةً عـلى أغصـان عمـري لم تسـقط عـلى الرغـم مـن مـرور فصـل الخريـف لأكثـر مـن اثنـين وسـتين مـرة.

يبـزغ ضـوء الشـمس، أصمـتُ قليـلاً بأجفـانٍ مُغلقـة تحمـل تحـت طياتهـا صورتـه، ثـوان اشـعر بـه بقـربي، ثـوان تسـاوي الواحـدة منهـا الآف مـن الدقائـق، اراهُ الآن امامـي، ببزتـهِ السـوداء ووجهـه الجميـل، ثـوانٍ اراهُ فيهـا دون ادنـى شـك بأننـا افترقنـا، شـعورٌ لا يصفـهُ كلامٌ بأحـرفٍ عربيـة،

ولا بـأي لغـةٍ أخـرى تدَّعـي فصاحـة التعبـير أكثـر مـن لغتنـا السَـامية، التفتُ (لياسـمين) لأخبرهـا عـمّا خبأتـهُ عنهـا، اخبرهـا كيـف يفقـدُ المـوت بريقـهُ حـين يتـم الانسـان غايتـهُ من الحيـاة، حـين يُحقـق أهدافـهُ، كيـف يكـون عـلى أهبـة الاسـتعداد للمـوت، مُسـتعدٌ لتقَبُـل نهايتـهِ بصـدرٍ رَحـب، كيـف تكـون الحيـاة بعَظمتهـا أصغـر مـن ثُقـب أبـرةٍ في حسـاباته، اقـصر مـن مسـافة ابصارنـا ونحـن نـرى أواخـر مـا قـد نـرى، اقسـم لهـا بأنبيـاء كل الاديـان بـأن لا شيء يضاهـي ذلـك الألم المُرافـق لفـوات الآوان لـشيءٍ اردنـاه.

أصـف لهـا كيـف كنـت أقـف عـلى بُعـد أمتـارٍ عنـه، حبيبـي الـذي لم ألتقيـه يومـاً مـن دون خـوف، كان اسـمه (آسر)، أبعـدُ منـه أمتـاراً مـن التأمـل المُعـاق، تأمـلٌ تتكـئ خطواتـهِ عـلى عُكازيـن، كنـت أقـف امامـه عـلى المـسرح كأني أتجـرع كأس المـوت جُرعـة واحـدة.

خُلـق (آسر) مـن بـوح الشُـعراء، مـن مـاء نهـرٍ ينبـع مـن الجنـة ويصـبُ في الأرض، كأنـهُ ولـد عـلى هـذه الأرض وحـده، لا شريـك لـه، خُلـقَ مـن قطـرات دمـع عاشـقٍ احتسـى الخمـر أمـام صـورة حبيبتـهِ المتوفـاة، النظـر لـهُ يدحـضُ فِكـرة أننـا خُلقنـا مـن تُـراب، التمعـنُ في عينيـهِ يؤكـد أن بعـض الخَلـق كان مـن اللآلـئ، خُلِـقَ مـن شرارةٍ ناتجـةٍ عـن احتـكاك حجـارة البهجـة بحجـارة الجـمال، وهـجٌ وسـط ظـلامٍ دامـس.

أمامـه، أقـف حتـى يـأذن لي دوري الحقيقـي في هـذه الحيـاة بالدخـول، أنـا و(آسر) مُمَثلـيَن لأدوارنـا الحقيقيـة عـلى المسرح، نؤدي دَورنـا بجحـودٍ اخـاذ، تجلـس (شـدن) عـلى بيانـو المسرح الكبـير، تَعـدُ اناملهـا للمـس مجسـاتٍ نحاسـية تصـدر موسـيقى لا تـبرح حتى تتحـول لسـهام تُصيـب بهـا جسـدي الظافـر بـالألم، وقتـما أتراقـص عـلى الوجـع بأَطـراف قدمـيّ وأنـا سـاكنة، أحـاول الارتقـاء بكلتـا خيبتـيّ، خيبـة عناقـي الأخـير وخيبـة تُهمـة الـشروع بالحُـب، تُهمـةً موجهـةً لي عـلى مـسرحٍ لـن يجمعنـي مُجـدداً بمـن أحـب، أقـتربُ مـن مشـارف المسرح واتمعـن جيـداً كل شيءٍ حـولي وكل شيءٍ مـن حـولي هـو، كأننـي احببتـهُ منـذُ آلاف السـنين، أرى وجهـهُ في ملامـح كل رجـلٍ يُصادفنـي، إتجاهلـهُ فأجـدهُ في كأسي الأولى، وكأسي الثانيـة، والثالثـة، حتـى الأخـيرة، أغمـضُ عينـي ثُـم أسـير نحـوه بخطـواتٍ واقفـة، كعـذراءٍ تقـترب مـن عامهـا الأربعـين، أقبـض عـلى أشـد احلامـي جموحـاً، تتسـارع دقـات قلبـي، قابعـةٌ خلـف حلـم مـات سريريـاً، أمسـك سـكيناً حـاداً لأقتُـل عصفـور احلامـي الـذي لا ينمـو ولا يكـبر، أقتُـل احلامـي التـي لم تتغـذَ، لم تتنـاول أي شيءٍ مـن الغـزل الارتجـالي، لم تقتـات يومـاً عـلى أي لقـاءٍ صاخـبٍ بالأشـواق، لم تلتهـم أي لحظـة اعـترافٍ بالحُـب، سـأقتل أحلامـي كـما كُل ليلـة، ترتفـع سـتارة المسرح الى الاعـلى، تتسـع وتكـبر بعدمـا كانـت عـلى قَـدر البيانـو الـذي تجلـس بقربـهِ (شـدن) عـدة دقائـق مـن قبـل دخولنـا وهـي تعـزف، هـا هـي الأضـواء تُـضيء المسرح، ينهـال تصفيـق الجمهـور الشـاهد عـلى خيبـة رجائـي، ويبـدأ العـرض.

يدخل (آسر) الى المسرح بثيابهِ البيض، يضج تصفيق الجمهور الشاهد على مقتلهِ هذه الليلة، يبدأ بالحركة، يبدأ بإيماءاتٍ تُشير إلى عاشق لا يكترث لتصفيفه شعره قدر اهتمامه بكلماتٍ أكتنَزها لحبيبتهِ وهو ذاهبٌ للقائها، يُرتب كلماته قُبَيل خروجه مُتناسياً لأي شيء آخر، يهتم بمفرداتهِ، يُصففُها دون أن ينظر إلى وجههِ في المرآة، يُهمهم بظنٍ جامح مُشيراً إلى أن الغزل أسمى من المظهر وان أبياتَ الشِعر أنقى من كُل العطور، يلتفت يميناً ويساراً باحثاً عن بائع للمواعيد الغرامية لعلهُ يتمكن من شراء طاولةٍ صغيرةٍ عليها دورقٌ تتوسطهُ وردةٌ تميل باتجاه أكثر العاشقين حرماناً، يرفع (آسر) يديهِ الى الأعلى معاً ليبدأ دوره المسرحي، يرفع رأسه فيأخذ شهيقاً موجعا، كإعلان ساعة الصفر لحربٍ بين دولتين جارتين، يتحرك بانسيابية حول المكان، انسيابيةً لا تجعلهُ يصطدم بآلام، آلام بعضها تُحيط بهِ وبعضها الآخر تُلاحقُهُ كسِهام مُدببة الرأس، يُهرول، يتوقف، يؤدي حركةً بيدهِ اليُمنى تُشير الى القلق، يُعيد الكَرة، يجول حول المكان على إثر موسيقى تدرب عليها من قبل، بالأمس جلسنا معا ولقنتهُ إياها، يجيد السير على خُطا أنغامها، يعرف جيداً مواضع السكون فيها ومواضع الارتقاء بالوجع، يقف عند موضع الغِبطة فيضمره، لم يعتدْ أن يكون سعيداً من قبل، أجفان عينيه تُحلق كجناحي طائرٍ وسط قفصٍ كبير، يُحلق وبداخلهِ السرور؛ لأنهُ في مأمنٍ عن تلك المخلوقات التي تتغذى على سُلالته، يرفع يديهِ ويخفضُها

دون أن يُطالب بالحُرية، عُبوديتُهُ الخلابة سر سعادتهِ الواهمة، يُحلق كطائرٍ كَسرَ قِشر بيضتهِ وسط قفصٍ كبير، ابصر النور وتعلم التحليق بداخلهِ دون أن يذوق طعم الحُرية، أخبروه بأن الحُرية شيء مُقيت، حذروه من التساؤل عنها وعن مُرادفاتها، بات ظنه انيس عُزلته.

تمنحهُ (شدن) مزيداً من موسيقى الوجع ليُحلق عالياً، هي تحبهُ كثيراً على ما أظن، تشاركني بهِ دون أن أبدي أي اعتراضٍ يُمزق غيرتي وأنا انثى، يُرفرفُ بيديه مُتأملاً زاوية المسرح المُقابلة لتلك الزاوية التي خرج منها لجمهوره، ينتظر خُروجي لعلي آتي مُسرعةً لعناقه، لأمنحهُ شيئا من السعادة، حفنة أمل يضمرها لهفةً منه للقائي، يُرفرف وهو يجول المسرح بكل ما أوتي من أناقةٍ وأبداع، يطير في قفص حُبي فرحاً، يبغض تلك الحُرية التي تبعدهُ مني.

أدخل أنا الى المسرح، أسمع صوت تصفيقٍ صاخب، كُنت قد انقطعت عن التمثيل بضع سنوات لعل بعضاً منهم يتذكرني، ها هو يومي الأول على المسرح من بعد غيابٍ طويل، أقف أمام (آسر) بقلبٍ ينبضُ دماً أبيض اللون، أنا السبب في حيرته وغضبه على خشبة المسرح، أنا السبب في مأساتهِ على ارض الواقع، يأتي بقربي ثُم يرجع خطوتين الى الوراء، يود الحديث ثُم يصمت، يرفع كلتا يديه ثُم يخفضها ايماءً بالضجر، يتنهد، يأتي بقربي، يقف أمام عيني التي لم تعشق غيره،

هـو الوسـيم الـذي لا يغيـب عـن خيـالي لـو حظيـتُ بوقـت النشـوة، الجمهـور مـن أمامـهِ جاحـظ العينـين لجمالـه، حتـى أنـا، أحـرك رأسي وأنـا أنصـتُ إلى دوره لأجيـب عنـه، يخـسر قلبـي رهانـهُ لنسـيانه تناغـماً معـه وهـو يمـزجُ فنـون التمثيـل والرسـم ويمضغُهـا معـاً، يتـذوق الجـمال قبـل عرضـهِ بإبـداع، طائـرٌ يُحلـق بعيـداً مـن ارضنـا، يُحلـق بعيـداً إلى أرضٍ لم تُخلـق بعـد، إلى أرضٍ تُسـمى (الفـردوس)، يمـشي مُتباهيـاً لمـا يضمـرهُ مـن حُـبٍ مـن أجـلي، اعتـاد المـسرح ذلـك واعتـاده جمهـوره أيضـاً، أدمـن الـكُل جمـال حضـوره وأناقـة طلتـهِ البهيـة، اشـعر احيانـاً بـألمٍ جاحـظ العينـين اتجاهـه، اتحاشـى أن أظلمـه، أبغـض مازوشـيتهِ حـين أراهُ بقلـبٍ اعتـاد الرحيـل ممتنـاً لمّـن يجرحـه، قانـعٌ بأننـي كنـتُ أقبـع وقـت فراقـه خلـف سـتارٍ يُغنينـي عـن الحيـاة، احتفـظُ بأشـياءَ قديمـة، أعتـزُّ بذكريـاتي جـداً، أهـوى رؤيـة كُل شيءٍ عـن كثـب وعـن بُعـد في آنٍ معـاً، أغلـقُ عينـي وقـت حلـول وجـود طيفـه حتـى بـتُ لا أبـصر شـيئا مـن بعده، أستنشـق الشـهيق مرتـين مُقابـل زفـيرٍ واحـد، رئتـاي مُثقلتـان بتبـغ هجـره، بظلـه الأسـود، برحيـق أنفاسـه وقتـما كان يطلـب إلي اسـتئناف الغـزل لـو توقفـت منهوكـة عنـد منتصفـه، أقبـعُ خلـف سـتارٍ كأني أقبـعُ خلـف انعـكاس ظـل جسـده عـلى الأرض، أمـدُّ يـديّ نحـوه، أرتجيـه لئـلا يتقـدم أكثـر، وبصـوتٍ شـارفَ عـلى الدمـع، يقـول لي:

- لوحة رحيلكِ المُعلقة تؤذيني كثيراً، أنفاسكِ تملأُ رئتيّ، أنا لا أحبكِ فحسب، أنا اتخذكِ شهيقاً عميقاً حتى أعترف بنبوّة شخصٍ كذّاب ادعى النبوة في زمن التكنالوجيا، يا نُبذةً مُختصرةً من جِنان كُتب الأديان.

- أنا أمتلكُك ولا أمتلك غيرك، أنا اكنُزك ليوم مماتي، إلا أنني لا أستطيع البقاء أكثر. (أجيبه بصوتٍ يغلب عليه الحزن)

- لمَ لا تبقين أكثر؟ أمامي الكثير لألقى حتفي. (يستدركُ قوله)

- فات الأوان، بعدما كان لنا الواننا، انسكبَ كِلانا في السواد.

- انا لا أقدر على فراقكِ، كما لا أقدر على إجابتكِ بذات السواد، لديّ فرشاتي وألواني، دعينا نضع الألوان ونبدأ من جديد، أنا أجيد الرسم، وأجيد التفوه بكلماتٍ تخرج من احواض النبيذ قفزاً وانا أزج بهن بكلتا يديّ، أعدكِ بأنكِ إن انصتِ إليَّ فستشعرين بنشوتها في فمكِ، كلمات تتحدث عن المضارع المعقد والماضي البسيط.

أنظر في عينيهِ فأعرف أنهُ يقصد ما يقول، كان على علمٍ تام بأنني أود الهرب منه، (آسر) على المسرح وهو بدورٍ عاشقٍ سيّئ الحظ، وأنا امامهِ واقفة كأنني التقيهُ الآن ولا أود البقاء برفقته،

نُجسدُ مشهداً يصور مقهى صغيرا تعزفُ (شدن) في إحدى اركانه، يقعُ على ناصية شارع في وسط مدينتنا التي أعلنت حكومتها الحرب لتسترد أرضها التي اغتُصِبت قبل سنوات، بعدما قررت مُقايضة جيل كامل من الشباب مقابل قطعة أرضٍ في صحراءَ ليس لها نفع، أرضٌ لا تعرف أن تزرع فيها حتى الشوك، التفت خائفةً (لآسر) وأقول له:

- ألا تعلم أنهُ آتٍ؟ ارحل قبل أن يراك، ارحل ارجوك.

- لو تعلمين كم طعنة سكين أشعر في صدري حين تُتحدثين معه، محضُ مصادفة أنتِ تلتقينه، أم محض استعارة؟ رفاهُ العيش حال بيني وبينك.

أقف ساكنةً ثُم اتجهُ نحوه، أمسك بكلتا ذراعيهِ من العضد، أنظرُ إليه بغضبٍ شديد، ثم أقول له:

- أخبرتُكَ بأنني لا أصلح للحُب، لمَ لا تتركني وشأني؟

ينظرُ عميقاً في عيني ثُم يرفع رأسه باتجاه السماء ثُم ينظر في عيني مرةً اخرى اشد عُمقاً، والدمع على مشارف اجفانه، يقول:

- يا صوت الملائكة وهي تُسبح بحمدِ ربها، أنا احُبكِ.

تُهزَمُ نظراتُنا المُسروقة على غفلة من زمنٍ اعتاد الظُلم،

نرجع خطوتين الى الوراء خوفاً، اعتدنا الخوف لطالما نحن معاً، نسمع صوتَ بابٍ يُطرَق، يتغير مشهدنا من المقهى ليُصارَ الى منزلي الذي أقطن فيه، واقفةً وحدي أتخيل وجوده، يصورهُ المشهد بأنهُ كان حلماً، كنت أحلم حلمَ يقظة أبهى من حقيقة موته، أدفعهُ بيدي الى احدى زوايا المسرح التي تُشير كأنها المَخرج الخلفي لمنزلي، ينظرُ (آسر) لي نظرة غضب ثُم يوجه إصبعهُ نحوي، قائلاً بصوتٍ خفيض:

- أنا خيالكِ، وسأبقى خيالكِ.

يدخلُ (طارق) حاملاً بيده اليُمنى حقيبةً متوسطة الحجم، لهُ عينان خضراوتان وقامة ممشوقة، شعره متوسط الطول مؤدياً دور ضابطٍ في الجيش، يضع حقيبتَهُ على الأرض عند المدخل ثُم يسير بخطواتٍ مُتسارعة، وهو يقول: «حبيبتي، اشتقتُ إليكِ»، من ركن خشبة المسرح الذي اختبأ عنده (آسر) حتى الركن الذي دخل منه (طارق)، اركضُ نحو (طارق) بلا قدمين، تبقى قدماي عند (آسر)، تقفُ أمامه تدّعي بأنني مازلتُ واقفة أبادلهُ الغزل، كثيراً ما أنظرُ في عينيهِ مُحاولةً اتقان ذات النظرة التي ينظرُ بها إلي ولا يجدِ الامر نفعاً، عشتُ برفقتهِ سنوات وغفيتُ على سريرهِ اضعافها ولم أجد رد نظراته إليه بذات العَبق، جحافلُ من غزل شِعر العصر العباسي في عينيه،

سِرباً من اغلى الطيور المهاجرة بألوانٍ براقة، كان يتقنُ الكلام دون التفوه بكلمة.

أعانق (طارق) على المسرح بيدٍ واحدة أضعها خلف رقبته، أقبلهُ من وجنته فيضع يدهُ الثانية خلف ظهري، ألمح بطرف عيني من خلف كواليس المسرح مأساة مُصغرة، يجيء المُخرج ليقف قرب (آسر)، يطلب إليه الدخول الى كواليس المسرح بدل الوقوف خلف الستارة لئلا يظهر في المشهد ويشتت نظر الجمهور الى العرض، يصمتُ ولا يجيبه، يظل ماسكاً بيدهِ طرف الستارة من شدة الألم، يعضُ على نواجذهِ من شِدة الغيرة، يموت ألف مرة وهو يرى عناقي (لطارق) وهو عائد من ساحة الحرب.

بعدما ينتهي عناقُنا الكاذب، يمسكُ (طارق) كفّ يدي وبصوتٍ منهوك ممزوج بالغِبطة، يقول:

- انتصرنا في المعركة
- سمعتُ اخبار الحرب من المذياع، قلقت عليك كثيراً.
- تقدم جيشنا، سنعوض ما خسرناه، ستستمر الحرب الى ان تُسترد ارضنا كاملةً، سَمِعتُ اخباراً مُفرحة وأنا في طريق العودة الى العاصمة، ما زال جيشنا يتقدم، ستعلن (إسرائيل) هزيمتها. (يقولها بعدما يجلس على الاريكة مُتكاتف الأيدي)

أقابلهُ بالصمت والوطن في وجهة نظري أمرٌ مُزعج،

مزعـجٌ جـداً أن تُفكـر بأنتـماءٍ لـشيءٍ واهـن، وطنُنـا ينتمـي إلى أوطـانٍ غيرنـا لأنـهُ لم يبلـغ سـن الرشـد السـياسي، كيـف لي أن أنتمـي إلى وطـنٍ غـير راشـد، كيـف لي أن اختـار وطنـي والاوطـان لا يتـم اختيارهـا، تُقحَـم بانتمائنـا إليهـا ونمـوت دفاعـاً عنهـا ونحـن لا نعلـم فيـما إذا كُنـا عـلى صـوابٍ أو عـلى خطـأ.

التـزم الصمـت فأنـا لا تهُمنـي هزيمتنـا السـابقة ولا انتصارنـا المُزمـع الاتي، يهُمنـي قـادم الأيـام، يُجـبرني الـدور المسرحـي عـلى أن أبتسـم ابتسـامة فخـرٍ كاذبـة بوجـه (طـارق) لأخـبرهُ بأننـا جميعـاً فـداءٌ للوطـن، فيحدثنـي عـن فرحتهـم العارمـة ابـان وصـول برقيـة الرئيـس (أنـور السـادات) التـي تمنحهـم إشـارة التقـدم بإتجـاه الأراضي التـي احتلتهـا إسرائيـل في حـرب عـام ١٩٦٧، يصـف لي فـرح ابطـال جيشـنا وهـم عـلى اهبـة الاسـتعداد والتدريـب المسـتمر طـوال السـنوات السـت التـي مضـت، وهـم يـرون قطعـات الجيـش الإسرائيـلي تتحـرك في ارضنـا، يصـف لي حجـم الثـأر المضمـر في قلوبهـم، يقـف، يجلـس، يتحـرك، يرتبـك فرحـاً وهـو يخـبرني بـأن لجيشـنا اسرى مـن الجيـش الإسرائيـلي أُسِروا مـع تقـدم قطعـات الجيـش المـصري، يقبـض يـده اسـفاً وهـو يصـف ظلمـه للرئيـس الحالي، فكـم وبخـهُ بكلامـه؛ لأنـهُ أضـاع مـا وصـل إليـه الجيـش مـع الرئيـس السـابق (جمـال عبـد النـاصر)، يأسَـف لأنـه وصفـهُ بالعميـل، لم يكـن يتوقـع بـأن الرئيـس كان مُسـتعِداً للحـرب لكنـهُ كان بانتظـار الوقـت المناسـب، يرفـع كلتـا يديـه للأعـلى

ليشكر ربه قائلاً:

- حمداً لله، سنواصل ما عاهدنا بهِ عبد الناصر.
- هل كانت لدينا خسائر في هذه الحرب؟
- كل شيء فداء للوطن. (يقولها والغضب يكاد ينفجر من عينيه)

تستمر نوبة غضبه، يخبرني وهو لا يزال مُمتعضاً من سؤالي عن أحلامه في استمرار الحرب وعن الاضرار التي سوف يلحقونها بجيش العدو، يختم انفعاله ويهم بالنهوض من مكانه والدخول خلف الكواليس لانتهاء دوره، قائلاً:

- سياسة السلام وجدت للدول الضعيفة، اما نحن فنعشق الحرب ونموت من اجل استكمال مسيرة عبد الناصر.

أقف من بعدهِ على المسرح وحدي ثواني والجمهور أمامي، أرصد من بينهم (شريف) يجلس في الصف الأول، قريبٌ هو من ادائي الذي أعرضهُ، قريبٌ مني خارج النص المسرحي ايضاً، (شريف) هو زوجي، ينتهي المشهد، أدخل الى كواليس المسرح فأرى (آسر) مازال بانتظاري، تهرب عيني من النظر له راكضةً بإتجاهٍ مجهول، وبملامح وجهٍ مُتعجب، يسألني:

- تُطابق ادوارنا واقعنا المُر؟ من كتب هذا السيناريو؟

- ليس لدي علم. (أقول بعد تعلثم بالغ كأنني نسيتُ النُطق).

- كُنتُ على يقينٍ تام بأن يجب أن تكون هُنالك نهاية، أعاد هذا السيناريو كُل ما مر علينا، الشخصيةُ التي أجسدها ليست خيالية، هذا أنا، لولا المأساة التي أنا بها الآن لكنتُ سعيداً لأنني افصحت عن كل ما وددتُ قوله لكِ في غيابكِ.

- كان لزاماً لهذا العذاب ان ينتهي. (أقول بحشرجة)

- ثَقبتُ قاربي حين أردتُ العبور للضفة المقابلة لحُبكِ، مكثتُ عندكِ، حاولت الغرق بكِ ونجحت، أنتِ الان تتحدثين مع شخصٍ مُتوفى، غريق، معدوم، ليس لهُ وجود إلا بوجودكِ، كيف لي أنا أعيش من دونكِ، حقولٌ من الرجاء مازالت بداخلي.

- رمل الأرض يذوب من تلك الغيرة التي بداخلي، ما عُدتُ قادرةً على تحمل رؤيتك معها، صرت اراك ظلا مائلا.

وأنا أسرد لها قصتي، ظلت (ياسمين) تنظر إليَّ بغرابة، تنهال من عيني دمعتان لرجلين لم أعرف غيرهما، شَطرني القدر بينهما شطرين غير متساويين وبصورةٍ غير عادلة، الأول كان زوجاً لي والآخر كان أكثر قُرباً منه، اخبرها كيف تطرأ علينا احياناً في هذه الحياة مشاعرُ ليس لها تفسير، مشاعرُ ننسى فيها وجوهنا ابان الغوص في تفاصيلها،

مشـاعر لم توجـد مـن قبـل، نحـن مـن يجدهـا بشـكلٍ آني، نحصـل بهـا عـلى بـراءة اخـتراع لمـا تحتويـه مـن ألم وفـرح لا يُعـرَف، نظـنُ أنهـا وليـدة المصادفـة لكنهـا لا تـبرح إلاّ ان تكـون وليـدة حاجـة مكنونـة بداخلنـا، أن تُحـب اثنـين في آن واحـد أمـرٌ خـارج حـدود العقـل إلا أنـهُ داخـل حـدود الإحسـاس المدفون بدخلنـا ويُحيـى بجسـدٍ عليـل.

انظـر بوجـهِ (ياسـمين) فأجـد الآف الأسـئلة، الآف نظـراتِ السُـخط المغمـور بحُـبِ الأم وغريـزة الدفـاع عنهـا، لا تنطـق بكلمـةٍ واحـدة لكننـي أعـرف عـمّا تتسـاءل، كيـف لامـرأةٍ ان تقسـم نفسـها عـلى نصفـين في آن واحـد، لهـا ألـف عـذرٍ إن لم تُصـدق مـا سـأقول أو تشـعر بـما لم أقـل.

مـا كنـتُ أشـعرهُ مـع (آسر) شـعور ليـس لـهُ مثيـل، إحسـاسٌ مُذنـب، خطيئـة لا تـؤدي الى النـار، وإن أدت الى النـار فأنـا عـلى اهبـة الاسـتعداد لسَـعيرها، مـا كنـتُ اشـعرهُ معـه عـلى سريـره يثبـتُ وجـود العـدم بدلائـلَ قويـة، كنـتُ أغتسـل بالنبيـذ حـين أتكـئ بـرأسي على كتفـه، كُنـت أتوضـأ بأنفاسـهِ شـديدة الدفـء، كُنـا نـؤدي طقوسـاً، لم نكـن نـمارس الجنـس فحسـب، الجنـس عنـده وسـيلة لإيصـال شـعور لا أكثـر، قُبلتـهُ عنـد أول لقـاء بيننـا كانـت بمثابـة جَلـد المُذنـب عنـد بعـض الأديـان، الوجـع التـي فيهـا يُطهّـر الـروح مـن الذنـب.

اخـبرُ (ياسـمين) عـن ليلتـي الأولى معـه، أخـذ منـي معطفـي

فتخليتُ عن حياتي بأكمها وأنا أخلعه، دخلتُ إلى منزلهِ الغامض المملوء باللوحات الكلاسيكية، كان يتقن (آسر) رسم جسم المرأة بعد مزج الأحاسيس وكتمها بالألوان، كنتُ أسمع اصواتاً وأنا انظر إلى لوحاته، دخلتُ إلى منزله وبعد أن رحبَ بي ذهب ليعُد لنا الشاي، وقفتُ أمام احدى لوحاتهِ لأسمعها، كان قد رسمها ليل الأمس، لم أكُن افهم الصوت الصادر منها، اسمع همساً غير مفهوم، اسمع الصوت وصداه في آن واحد، قَطعَ خيالي سماع صوت كوبين من الشاي وهو يضعهُما من خلفي على منضدة تضج بالألوان السائلة، اخذتُ نفساً عميقاً، عميقا جداً حتى بتُّ غائبة عن الوعي حالما شعرتُ بهِ أنه واقف من ورائي، أخذ مني مِعطفي وهو يخبرني بأنهُ يُجيد قتل لوحاتهِ والمشي في جنازاتها والصلاة عليها.

كانت الساعة العاشرة من صباح يوم ماطر، كانت السماء تكتظ بالغيوم، وانا كنت اكتظ بهِ، شعرتُ بيديهِ على كتفي، وهو يأخذ مني مِعطفي، كأنهُ يسكبُ عليَّ الألوان وانا شبه عارية، التفتُ لأنظر في عينيه، كنت من خلال عينيه أرى حدود المدى التي لم تتمكن من احتسابها الارقام، نظرَ إليَّ بعمقٍ حتى رأيتُ وجهه بانعكاس عينيهِ، وضعَ يدهِ على خصري وبدأنا بالكلام الصامت، قبلني فشعرتُ بنكهة الصُبح عند الموتى، في اليوم التالي ليوم وفاتهم، شعرتُ أنني مازلت عذراء.

أخبرهـا عـمّا مـضى، وأتـرك لهـا القـرار، أظُـن أنهـا لـن تبغضَنـي، مُسـتمرةٌ بالإنصـات، انظـر مـن شرفتـي وروح حبيبـي تغـادرني، لسـنواتٍ طويلـة وهـي تجـيء لي في هـذا التوقيـت، ثـوانٍ تتخللهـا جُملـةً مـن احاديثـهِ القديمـة تجعـل (ياسـمين) تَهُـم بإعطائـي جُرعـة مـن دوائـي الـذي وصفـهُ إيـاي طبيـبٌ نَفسـي اتبـع تعليماتـهِ مُرغمـة، طبيـبٌ لم يعـرف معنـى العِشـق، غبـي، يعطـي العقاقـير المُهدئـة لي وأنـا بداخـلي نـيران اشـتياق قـادرة عـلى حـرق كُتـب علـم الطـب منـذُ زمـن (ابـن سـينا) والى الآن.

اتخـذُ شـهيقاً مملـوءً بالأشـواك، يجـرح صـدري ويجعلنـي أنـزف الـدم داخـل رئتـيّ وأنـا أقـصُ لهـا كيـف عشـت في بيـتٍ أبغضـهُ، أبغـضُ العيـش فيـه، كنـتُ أتـوق في كُل أوقـات صِبـايّ إلى الحضـور في المـسرح، حلمـتُ كثـيراً؛ لأن أدخلـه وحققـتُ حلمـي، مـا كنـتُ اتوقعـهُ ان يكـون أجمـل مـن حقيقـة حياتنـا الكاذبـة، المـسرح عـالمٌ خـاص لشـديدي الإبـداع.

حـين كنـتُ صغـيرة، كُنـت اذهـب برفقـة احـدى جاراتنـا للمـسرح، كانـت تعمـل هُنـاك في خياطـة الأزيـاء، اذهـب برفقتهـا لأرى المُمثلـين عـن قـرب، كيـف يتدربـون ويتهيئـون لأداء النـص، آثـرت بي خطـواتي الأولى وأنـا ادخـل الى المـسرح وانـا أراهـم كيـف يقـرؤون النـص بصـوتٍ عـال، كيـف يتحركـون عـلى المـسرح، النظـر مـن مقاعـد الجمهـور شيء والنظـر مـن عـلى خشـبة المـسرح شيءٌ آخـر، لا أنسـى أول مـرة دخلـتُ فيهـا الى المـسرح، وقفـت وقتهـا بالقـرب مـن كواليـس

المسرح الخلفية وأنا أرى تدريباً لبعض المُمثلين لنصوص ادوارهم، رأيتُ مُمثلاً يجثو على ركبتيهِ أمام امرأةٍ حسناء ذات شعرٍ طويل، رفعَ يده اليُمنى وقال لها: «اجلسي قُربي، فأن كُل ما حولي خَراب».

كُنت قد اقنعتُ (شريف) بعودتي للعمل في المسرح بسبب الأوقات الطويلة التي يتركني فيها وحيدة ويُسافر خارج (مصر)، أوقات الفراغ ظلت تقتلني لأننا لم ننجب الأطفال.

ادخل الى المسرح، انظر الى جدرانه بشغف، كان معبدي الذي أتوق التعبد فيه، العمل في الفن عبادة اصلاحاً للمجتمع، أتجول في كواليسه انظر الى أزياء الممثلين والديكور، اقترب من خشبة المسرح فأرى كماً هائلاً من احساسٍ لا يوصف، كأنني كُنت اشعرُ بالظمأ ثُم ارتَويت صوت لعزف آلة البيانو، عزفٌ هادئ ومُتناغم، اسير بخطواتٍ صامتة، أقف خلف جدارٍ من الورق المقوى أُعّدَ للديكور، انظر خِلسة فأجد (آسر) جالساً أمام آلة البيانو تجلس على حِجره (شدن)، كانت تعزف برقةٍ فائقة، يضع يده على خصرها ويلتصق برأسهِ على ظهرها، شعرُها مُتناثرٌ على وجهه حتى كاد يُغطيهِ بأكمله، يستنشق من خلالهِ أنفاسه، الامر المُثير أنهُ كان يغمض عينيه، كأنهُ يغرق وسط شعور يعرفهُ للمرة الأولى، تعزف (شدن) بأناملها لحناً هادئاً ثم يتصاعد، ينخفض، يُحرك (آسر) رأسهُ ايماءً بالحُلم،

تنساب بضع خُصلات شعر (شدن) أمام وجهها لتصل بالقرب من يديها وهي تعزف، تُحرك برأسها هي الأخرى تناغماً مع العزف، تتحرك خصلات شعرها، انظُر لها وأكرر النظر (لآسر)، أراهمَا على وشك اكتشاف حاسة جديدة تُضاف الى حُواس الانسان الخمس.

كان (آسر) مَحط اعجاب الكثيرين، شكلهُ جذاب، يمتاز ببهاءٍ وفير، شعرهُ الأسود طويل حتى يكاد يصل لأكتافه، لهُ عينان سوداوان، طول قامتهِ مُثيرٌ للأعجاب، شديد الذكاء، يجيد التمثيل ولا يرغب فيه، يرسم أي وجه في دقائق معدودة، واحياناً كنتُ أراه وقت المُزاح يُراهن على رسم أشياءَ متشابهة بكلتا يديهِ في آنٍ واحد، كانت تعرض عليه الكثير من الأدوار ويرفض، يحبُّ الرسم أكثر.

انسحبتُ ببطء بعد ذلك المشهد الخلاب، خرجتُ من المسرح بخطواتٍ مُتعثرة، كنت لا أملك من الاتزانٍ ما يكفيني لأعود الى البيت، لاتحدث مع (شريف) دون تلعثم، كان (شريف) غني جداً وشديد الكرم، يهتم بأناقته اشد الاهتمام، يمتاز بالوسامة وحسن المظهر، لكننا تزوجنا من دون حب، صدقنا الخُرافة التي تقول بأن المُعاشرة الزوجية كفيلةٌ لأن تفرض الحُب، كان يود الحصول على امرأة يُقدمها الى المجتمع ومستعدٌ للدفع ازاءها أموال كثيرة، حياته شديدة الدقة ويحترم الوقت كثيراً، لا يهتم للأدب ولا يقرأ الروايات والقصص، كان مُتهماً بكتب الفلسفة

والنقد السياسي، عشت معه في منزله الفخم، كان مستواه المعيشي يغري أي فتاة لتتزوجه، مُستقلٌ في حياتهِ بالكامل، مشكلتي معه كانت تتلخص في كينونته، في جسده البارد، في قلة حديثهِ وصلابة ابتسامته، كان مُتزناً في الحُب، وأنا لا اهوى الحُب المُتزن.

يُنادي مُخرج المسرح على (شدن) للاستعداد للمشهد القادم، ستقف فيه على باب مسكنها بعدما ظلت تطرق الباب سريعاً صديقتها المُقربة (ليلى) ذات الشعر القصير والعينين الواسعتين والبشرة شديدة البياض، تبتسم (ليلى) بوجهِ (شدن) وهي تفتح لها الباب دون أن تتلقى ابتسامتها بصدرٍ رَحب، (شدن) ذات الوجه الساكن والنَظرُ الداكن، تراها ثُم تتنهد كأنها شعرت بالطمأنينة بعد الهلع تلتفت وتعود إدراجها دون التفوه بكلمة، تُنادي عليها (ليلى) من دون جدوى، ظلت بوجهٍ غاضب، تسألها عمّا إذا كانت قد اشتاقت إليها فلا تُجيب ايضاً، تلفتُ (شدن) بوجهٍ عبوس وتسألها:

- لم اعتقلتكِ الشرطة؟
- لأنني شاركت في تظاهرة اليساريين والناصريين في جامعة القاهرة.
- هل تعلمين كم يوما قضيتِ في السجن؟
- لم أمكث طويلاً.
- هل تعلمين أنني لم أنم طوال هذه الايام، لم أترك مخفراً للشرطة او مستشفى إلا وقد ذهبتُ إليها.

- (شدن) أنا آسفة، أعلم أنكِ قلقتِ عليّ، لكن كيف أعلمكِ أنني كنتُ في السجن؟ لم يسمحوا لنا بأجراء أي اتصال.

- وهل تظنين أنكِ حين تكوني في السجن فأني سأكون مُطمئنة بشأنك، (ليلى) عديني بأنها المرة الأخيرة التي تشاركين فيها في التظاهر؟

تبتسم (ليلى) ثُم تجلس على احدى الطاولات، ثُم تقول باستهزاء:

- لا أعدك.

تقترب (شدن) وتنظر بعينيها ثُم تقول بوجهٍ جَهِم:

- أعلم أن سبب خروجكِ للتظاهر هو (رؤوف)، تلك الروح التي في جسدكِ ما هي إلا مزيجٌ من روح عاشقة واخرى ثائرة، أعلم جيداً أنكِ مُتبنية لأفكار تحاولين الدفاع عنها، أعلمُ أنكِ تودين الإصلاح ومعارضة نظام الحُكم، لكن كوني على يقينٍ تام بأن هذا الوطن لا يرد الإحسان بالإحسان.

في وقت سجنها كانت (ليلى) يافعة وكثيرة النقاش مع السجناء السياسيين الذين أتت بهم التظاهرات المدرسية او الجامعية، تحاورهم وتتبنى بعض أفكارهم، كانت حقبة عَصيبة، حَكمَ فيها (جمال عبد الناصر) بلدنا رافعاً نُخب

الحرب مع (إسرائيل)، تلك الدولة التي تَغذت من جسدنا المتهالك ونمسح على رأسها حتى تشبع، (إسرائيل) دولة ضئيلة جداً لدرجة أنها أسست من مكوّن ديني مُشتت بين الدول كان على وشك الانقراض، لكنها باتت ذات شأن بسبب سذاجة أمة العرب، كانت حرباً خاسرة منذُ اول دقيقة في ساعة الصفر خاصتها حتى عودة جيشنا وهو يجر اذيال الهزيمة، اكتظت في وقتها السجون بالسُجناء غير المُذنبين، كان ذنبهم الوحيد هو اختلاف الرؤى السياسية بين السائد منها والواقع المرير، فالواقع احياناً لا يُرى من قبل القادة كما سائر الشعب فتتكون فجوةٌ كبيرة بين السائد والواقع، الواقع الذي لا يريدون أن يروه لأنهُ وببساطة لا يوافق أفكارهم وهو قطعاً نقيضٌ لها.

كان الرئيس على حق حين أراد الحرب مع (إسرائيل)، لكنه أخطأ في نوع الحرب التي شنها، فبعد الحرب العالمية الثانية اتعظت اغلب دول العالم بأن الحرب أنواع، وأن هناك حروبا لا يُحمل فيها السلاح، وأن ثمة حروبا أخرى يكون ضحاياها مجتمعات ومؤسسات بدل الافراد، كانت هذه العبارات تصدح في رأسي وأنا ارى سياسة البلد تنهار وتُمضغ على عجل بين فُكُوك السياسيين والقادة العسكريين الذين لا يعرفون غير سياسة السلاح وعسكرة المجتمع، كان (عبد الناصر) آنذاك شديد الحرص على أن يكون الشارع خاليا من معارضيه.

تخرج (ليلى) من المقهى بعد تأكُدها من أن (شدن) راضيةٌ عنها لتذهب الى المنزل الذي يجمعهُما معاً تحت فرضيات لا يقبلها المجتمع والاعراف السائدة، تبقى (شدن) في المقهى لتعمل كما كُل مساء، وتعود في وقتٍ مُتأخرٍ من الليل، يخفت ضوء المسرح ثُم يُركز في عزفها، يظهر ضوءٌ اخر يُسلَط على بقعة من المسرح لا تبعد الكثير منها، تتجسدُ فيها ذكرياتها، تجلس (شدن) خلف البيانو وتظلُ كلمة (السجن) التي نطقت بها (ليلى) تصدح بين زوايا رأسها، ترهبُها هذهِ الكلمة أشد رهبة، قضت (شدن) سنين في سِجن الاحداث تعرفت من خلالها إلى (ليلى)، تضع يدها على مجسات البيانو لتبدأ العزف فتنهمر دمعة من عينها تقع على كف يدها الأيمن، تمسحها بيدها اليُسرى وتبدأ بالشجن وهي تستذكر ما تخللهُ عمرها الذي تمكن بجدارة من أن يمنعها من التَبسُم، ولدت لقيطة، لم يكن لها اوراق ثُبوتية ولا تحمل اسم عائلة، وجدت لقيطة أمام دارٍ لرعاية الايتام وهي لم تبلغ عاماً من عمرها، تربت في بيت وحظيت بأسرةٍ جيدة إلا انهم اودعوها بدار الايتام وهي في عمر الصِبا، دفعت ثمن خطأ ابويها في مجتمع اعتاد أن ينبذ اللقيط ويجعلهُ يُؤخذ على جريرة ابويه الذين اتفقا على الدناءة، ارتأت إدارة الدار الانتفاع من مفاتن جسدها وهي لم تزل في دور الصِبا، تعرضت للتحرش دون أن تعرف ماهيته، وهي تعزف تشعر بذات المرارة التي كانت تشعر بها من خلال يد ذاك البدين ذي العينين الجاحظتين وهو

يمسكها من يدها ليأخذها في أحد الاروقة الفارغة للدار من فراشها مُستغلاً انشغال الجميع في توزيع وجبة الغداء، تتذكر جيداً ذقنه وفكه بأنياب ذئبٍ اسود اللون، كانت مديرة الدار على يقين بأن ذلك الذئب اغتصبها إلا انها اكتفت بتوبيخه لأنها كانت على طمع من الانتفاع منها مستقبلاً، لم تتم معاقبة الجاني، وهددت مدير الدار (شدن) بالتكتم او الطرد في الشارع، تتذكر جيداً كف يده وهو يعبث بجسدها ولا تتذكر ما كان ينتابها، كانت الطف من أن تجلس بقرب كلبٍ مسعور، تتذكر غُرفتها الصماء، سهادٌ عابر في حنجرة السماء يمضغ مصيرها ويبصقه، عقارب الساعة التي على الحائط أمام سريرها صماء، الطاولة، الستائر، وجوه من حولها، جميعُها صماء، تتذكر كيف تآمروا واكلوا صوتها، تشكو لشجر الصفصاف صرير الهواء في حنجرتها، فكرت مراراً بكل ما هو مرير، بأفكارٍ منفية الاحتمال، بخياراتٍ تسد رمق الاقدار الجائعة، في الكثير من طرق الانتحار، خطَطت لكثيرٍ من طرق الهرب، كانت تعلم جيداً أن ما حولها بُركة آسنة، كانت تعلم جيداً أنها لا تملك إلا قلم حبرٍ أسود وقتما حلمت برسم قوس قزح، تفكر في بحّةَ صوت ليلٍ دون مأوى، بمرارة العيش في مجتمعها الذي يجوع فيهِ من كان بأبوين، فكيف الأمر لمن كان لقيطاً.

ضاق بها الحال ذرعاً وهي تستذكر على المسرح مأساتها فتوقفت عن العزف لثوانٍ ثُم استأنفت، ريثما شعرت بألمٍ عميق بين حنايا روحها، ما فعلهُ بها ذلك البدين البشع كان قاسياً، احتاجت الى ايام طوال لتكن على درايةٍ تامة بما فعلهُ بها، اغتصبها وحرق أشجار مُستقبلها، جعل حاضرها غير واضح المعالم، اشبع رغبتهُ بجسد طفلةٍ لم تعرف بعد ماهية الرَغبة، تربصت بهِ بعد مدة وطعنتهُ بسكينٍ حادٍ في صدره وهو نائم، جلست بقربهِ تبكي، بعدما أضحت تُشاهد انهار العالم تتخثر في نشرات الاخبار، وتبتلع لُقمة غدائها محشوةً بالاشواك، قررت احياء (يسوع) الذي بداخلها للخلاص من الألم، حُكِم عليها بالسجن بعد أن ثَبتَ للمحكمة بأنها الضحية والجاني في آنٍ واحد بعد تقريرٍ طبي أيَّد واقعة اغتصابها وخُفِّفت عقوبتها.

كانت ساعةً متأخرةً من الليل، يزج القدر المشؤوم (شدن) في زنزانة مشتركة في السجن، تستلقي على سريرها بثياب السجن دون أي شعورٍ بالذنب، دون أي شعورٍ بالرهبة، يتدلى رأس (ليلى) من السرير الذي فوق سريرها لتسألها عمّا اذا كانت خائفة في ليلتها الأولى في السجن، كان اسلوباً معتادا في سجن الاحداث ليتم الاحتفاء بالسجين الجديد في ليلته الأولى، فإن قال (خائف) فيتبعون معه أسلوب الاستهزاء وإن قال (كلا) فيجتمعون لضربه، تنظر لها (شدن) وتكتفي لأن تستدير وجهها رفضاً لإجابتها،

تنظر امامها فتجد عدداً من الأسّرة المزدوجة، سجينات لم يقضين في الخارج الكثير من العُمر، إلا أنهن وبلا شك، قضين الكثير من الظروف القاسية، تهتف اجدى السجينات من زوايا الزنزانة لتعلم الجميع بأن السجينة الجديدة محكومةٌ عن تهمة قتل فيخلد الجميع الى النوم بمزحة الخوف منها.

مع مرور الأيام، ربطت بينهن علاقة وثيقة، اتمت (ليلى) مُدة محكوميتها قبل (شدن) بعد أن حُكم عليها بالسجن بتهمة السرقة، إلا أن الحكم الجنائي لم يشر الى أن السرقة بسبب الجوع العارم، كانت أسرتها تتضور جوعاً بسبب ابيها الذي يهوى الانجاب كل عام دون أن يتقن حرفةً او مهنةً تمكنهُ من شراء الطعام لأولاده، اضطرت لسرقة بدل ابيها لتسد جوع اخوتها وابيها الذي اعتاد الجلوس عند باحة مسكنهم منتظراً عودة أولاده من الشارع ليفتش جيوبهم وياخذ ما كسبوا من مال خلال النهار، كانت تسكن في (أسيوط) في غرفةٍ تجمع كل العائلة وبالمرحاض المُشترك، تحتوي على نافذة واحدة تُطل على جارٍ يتسم بجوع افظع من جوعهم، حُكم عليهما معا على إثر أفعالٍ لم يرتكبوها، ارتكبها ذلك الإنسان الذي بداخلهما الذي لم يطالب بحياةٍ أكثر من حياة، حياة لا تقبض على رِقابهم بأيدٍ من حديد.

خرجت (شدن) من السجن حاملةً بين يديها مبلغاً من المال ورسالة تأبين من الحياة، تسير بخطواتٍ لتصل الى الشارع وهي تَعدُّ جُثث سنواتها التي قضتها وهي في مُقتبل العُمر، تجلس في مطعمٍ فخم وسط العاصمة وبين يديها كأس وزُجاجة كحول، ستدفع الفاتورة من آخر مبلغ بحوزتها، أنفقت ما كان بحوزتها لقاء المبيت في فندق، فلاً مأوى لها غير السُدى، تُفكر ملياً بما ستفعلهُ بعد انتهاء زجاجتها، تمنت لو انها لا تُفيق من سكرتها وترجع إلى حياتها العرجاء، تفكر في عدد المرات التي نجت فيها من الحياة، كم مرة أخطأت رُصاصة القناص رأسها وأصابت قلبها، تَعد مع مَن بقربها من السُكارى بأصابعهِم المبتورة سُبل الخلاص من ذلك المأزق.

مشاهد أثَّرت في الجمهور الحاضر للمسرح كثيراً، تُنير الأضواء المسرح، فيقف اغلب الحاضرين ليصفق لمأساتها.

نستعدُ أنا و(آسر) للدخول الى المسرح، المشهد التالي من المسرحية بضعةً من قصتنا، تراجيديا تُدمى لها أيامُنا الماضية، ارجوحةً تترنح بين اليوم والأمس، نجلسُ لنلوذ بالأمس ونمضغ اليوم بفم يخلو من الاسنان، كأن لنا من العُمر تسعين عاماً، نصبو لأن نبقى معا، بيني وبينه عقيدة لا نتمكن من انكارها او التغاضي عنها، أنا مُتزوجةً وهو لا يصلح للحُب، كأننا نحاول اثبات وجود خُرافةٍ بأيدٍ فارغة، نقف معا خلف كواليس المسرح،

نمشي معا لنجسد لقاءً يلوم فيهِ بعضنا بعضا، يلامس كف يدهِ يدي ونحن نستعد للدخول، يُقرّب اصبعه الخنصر من اصابعي، كأنهُ يرتجيني لشيء لا اقوى على القيام بهِ، كأنهُ يُحاول لمس وجهي وأنا أحاول عناقَهُ كالأخطبوط، بعِدة اذرع وثلاثة قلوب، فقلبٌ واحد لا يكفي لأن ينبض بحبه، وذراعين ليستا كافيتين لعِناق جسدٍ باذخِ الفِتنة كجسدهِ.

تُرفع السِتارة، يتغير الديكور ليُصار الى شقّة (آسر)، لم يكن مسكنه وحده، كان مكانا غريبا، لا تقبلهُ العادات والأعراف، يعيش فيهِ مع (شدن) من دون زواج، أدخل أنا قبل دخوله، أقف على المسرح فيراودني ذلك الشعور الذي كنتُ على عاتقهِ في أجمل حقبة في حياتي وابشعها في آنٍ واحد، موعدي معه إزاء قلقي من لقائه الواجب المفروض بحكم ما أكنُّ له من مشاعرَ بلهيبٍ أدكن اللون، حين أكون بانتظاره في دقائقٍ قبل مجيئه وانا انظر الى سيل الوقت من زمنٍ اعددتُ سرقته.

كنتُ امتلك مفاتيح شقته، اذهب قبل رجوعه لأنتظره، كنت اتخذ خيالي على محمل الجد، أفكر في كل كلمة سأقولها له، ابني بيتاً في رمل البحر بالايماءِ والتبسُم والخجل والارتباك والشغف والخوف، حتى تلامس يده كتفي فينهار كل ذلك البيت، أفكر ملياً في سؤالٍ يخرس صوتي إن وددتُ الإجابة عنه، لمَ أنا بين هاتين الحياتين؟

فلسفة عميقة تضعني بين قضبان الإدانة مهما حاولت البحث فيها عن عذر، تلاطم كبير يحصل بين واقعي ومأساتي إن سألت: لمَ أنا في شقة (آسر)، هل كان بحثاً عن شيء لم أنلهُ من (شريف)؟ الإجابة حتماً رمادية، هل أنا في قيد حبه الذي يسكب طعماً أجمل من طعم الحب الذي كان يجمعني (بشريف)؟ تُكرر الإجابة نفسها، كان (شريف) يؤلمني بكلماتهِ المتغيرة، كمُترفٍ يواسي مُعدماً وهو يتناول الحبوب المُخدرة، لا يشعُر بمأساتهِ ولا يُجيد مواساته، كان (آسر) اشد الأشياء التي كُنتُ بحاجتها، انفس من تلك الأنفاس التي سأتشبثُ بها قُبيل الموت، أنا بين حياتين لأنني انيسة وحدتي ذات المخالب الحادة التي تنهال عليّ بالضرب لأنني لم أكن منصفةً مع نفسي، لم أكن على دراية تامة بأن الحُب يأتي غفلة ولا يتم اختياره، الحب قدرٌ لبعض البشر يختارهم القدر ليكونوا بين حياتين، كل حياةٍ بوادٍ عميق وهكتارين من الوجع يفصل بينهما.

بعدما سرقتُ ساعة من زمنٍ اتسم بالجحود وأنا ذاهبة لاستقبال (شريف) من المطار ذهبتُ للقائه في مسكنه، وصلتُ قبله، لم أجده في شقته، بقيتُ بانتظاره، أجلس على حافةِ سريره ووجه يتراءى لي بهيئة اقحوان، مضت ساعة ولم يتبق لي من الوقت كثير، قررت العودة في وقتٍ لاحق، وأنا أهمُ بالنهوض سمعتُ صوت بابٍ يُغلق، يدخل (آسر) المسرح بمشهدٍ يصور شقّته، اسمع صوت

مسير اقدامه كأنهُ يدخل شرياني الابهر، يعانقني فأشعر بنقاء روحه وخراب روحي، كنت قد اشتقت إليه كثيراً، اشتقت إليه وهو المُحرم المُباح.

تَخفت أضواء المسرح، يُضيء السرير فقط، تتسرب العتمة بيننا ونحنُ على عجل، يجسد المشهد لقاءً لنا في عتمة ليلٍ ما من ليالينا القديمة، تعود روحي عبر الزمن وانا احدثُ (ياسمين) تفاصيل ذلك المشهد، ظلامٌ دامس، لا اراه، لا اسمعه، اشعر بخطواته من حولي فحسب، تتسرب الروح من جسدي فتدخل جسده، حدثني فأنصتُ لهُ بألف اذن ثُم افيقُ من غفلةٍ كأنها صحوة موت تمنحني شهيقاً اخر لما بعد مجيء مَلِك الموت، انظرُ الى المُخرج من خلف كواليس المسرح وهو يلّوحُ بيدهِ ويُحرك شِفاهه تلفظاً باسم (آسر) مُحاولاً مُناداتَهُ، خرج (آسر) عن نُصوص دَوره في المسرحية، ينظر في عيني ملياً مُتغاضياً لإشاراتِ المُخرج، فيقول لي:

- انا راعي شامة عُنقكِ الغامقة، ومُنسابٌ منها حتى اصل الى خصركِ، أنا من انار النجوم المُرصعة على ثياب نُومك السود، أنا سادن اوثانكِ التي لا تستجيب للدعاء.

- حلمتُ بكَ، مازلت احلمُ بك دون أن انام. (أقول مُبتسمةً لاجبره على العودة إلى نصوص دوره)

يـدور بيننـا حديـث عـن عـودة (طـارق) مـن الحـرب، عـن صبرنـا للأيـام القادمـة لأننـا لـن نلتقـي، عـن انحنـاء رأسي وانـا اخـون زوجـي، نعـم أنـا اخونـه، لكنـهُ لـو حَـدّق مليـاً بـذاتي لـرأى طفـلاً يجلـس القرفصـاء يحمـل بـين يديـه دُميـة مُتوفـاة تشـبهه، ولكننـي بـين الحـين والحـين أشـعرُ بـشيءٍ يهمـس بـأذني لأطمئـن، شـيطاني التائـب يقـف مكتـوف الايـدي ويحـدق بي، اوقاتـاً اشـعر أنـه يطلـب الغفـران لي مـن إلهـهِ الـذي لا يكّـن لـهُ المـودة بسـببٍ تحـدٍ قديـم، سـمائي السـوداء لا تمطـر إلا دمـاً، كأننـي لي ألـف عـذر واهـن يجيـز لي الاتـكاء عـلى صـدر (آسر) دون ان أكـترث للأسـباب او الدواعـي، أشـعر أننـي اخونـه مـع كاهـن لديانـة تجيـز لـه التواصـل مـع الإلـه.

كان (لآسر) رأيٌ مؤثـر اتجـاه الحـرب لكنـه مُلتـزمٌ بكتمانـه، إلا أن ريشـته ظلـت ناطقـة، كان مشـاركاً في الحـرب لكنـه يضـع اللثـام عـلى اسـمهِ ووجهـه، سرهُ بـات مُعلنـا، عـلى الرغـم مـن أنـه كان يخـاف لئـلا يفصـح عنـه لأن الشرطـة تلاحقـه أعوامـا بسـبب رسـوماتهِ الكاريكاتيريـة السـاخرة مـن السـلطة الحاكمـة عـلى جـدران ابنيـة العاصمـة وفي جرائـد المعارضـة، أفصـح عنهـا في دورهِ المسرحـي.

كان يخـرج عينيـه ويديـهِ فقـط ليرسـم الواقـع السـياسي بصـورةٍ سـاخرة، كان لـه تأثـير يُذكـر في ثـورة الجيـاع، في تلـك الأعـوام كانـت عـدة صحـف تنـشر رسـوماتٍ كاريكاتيريـة لشـخصٍ مجهـول، أثـرت كثـيراً في الـرأي العـام، أغلقـت

الحُكومة كل صحيفةٍ تنشر هذه الرسومات، وزعوا بعدها الرسومات كمناشيرٍ على الأرصفة بصورٍ سرية في الليل، ومن ثُم رسموها على جدران الشوارع، كان يتقن تجسيد الكوميديا بشكلٍ شَجيّ.

أسأله عن قوت يومه فيجيبني بأنهُ لا يقوى على العيش، يعتمد على (شدن) في كل شيء، يعمل بين الحين والآخر في المسرح بأجرٍ لا يقوى على العيش به، يشاركها ذات السرير والغرفة، اسألهُ: «لمَ لا تترك الفن وتجيد عمل شيء يسد رمق عيشك» فيغلق عينيه كأنهُ بانتظار نهايتهِ في صباح كل يوم، يخبرني بأنني لن أفهم ابداً ماذا يعني بأن يفعل الانسان كل ما بوسعهِ دون جدوى، لا يجيد التفكّرُ بالغد، لا يريد أن يكون رجلاً مُلتزماً بالنظام المجتمعي السائد من حوله، عبثي، فوضوي، يدعسُ احلامَهُ حين يجيء مُسرعاً لينام في اوقاتٍ لا تصلح للنوم، يستيقظ اناء الليل ليجلس وحيداً، يشير الى اللاشيء لو تحدث عن أحلامه، عصيٌ على أن يخرج من نوبة كآبته المُعتادة، مُدمنٌ الخوضِ في تفاسير الخمول، يجيد دس الطُمأنينة في رأسي وألم الفراق في جسدي بطعنةٍ واحدة، اسألهُ وأنا احرك برأسي بكل الاتجاهات لأنعم النظر في مسكنهم الغريب، كانت (ليلى) تسكن برفقةِ (رؤوف) في ذاتِ الغرفة، تجمع بينهم مفاهيمٍ لا يقبلها المجتمع، كوّنوا اسرة من غير صلةِ قرابة او حتى ارتباط او زواج، مسكنٌ غريب لطالما جاهدتُ لأن اخرجهُ

منـه ونجحـتُ في ذلـك.

بـروحٍ جاثيـة، يقتـادُني وأنـا واقفـة مُعصوبـة الأعـيُن والإرادة الى جهـة مجهولـة بعـد زوال نقاشـنا المُفـضي الى وطـنٍ شـاحب المسـتقبل، لامـس جسـدي فعرفـت أنـهُ اقتـادني الى سريـرهِ وجسـدهُ يؤجـج احسـاسي، اسـتحم معـه بـماء الرَغبـة، ثغـرهُ الفاتـن لُظَـى حمـراء تشـوه جلـدي دون أن تـترك اثـراً، كأنـهُ يحمـل بندقيـة صيـد وأنـا حمامـةٌ بيضـاء اقتـل مـراتٍ عديـدة لأسـقط بـين احضانـه، اعـاود الكـرة في كل اجـزاءٍ مـن الثانيـة، المـوت بـين يديـهِ مُمتـع، يتقـن نَفـخ الإثـارة في روحـي وهـو يقبضهـا، اخبئـهُ وهـو واضـح للعيـان، اخبئهُ وانـا بأمـس الحاجـة لـه، اخبئـهُ بـين فـؤادي وعظـم القَـص، اسـتعين بـهِ عـلى الغايـة وقلـة الحيلـة، يقـدُ قميـصي مـن الاَمـام فأبتسـم، مـا كنـت لأهـرب منـه ليقـدهُ مـن الخلـف، كُنـتُ صـدراً رحبـاً لحركـة أصابـع يـده، لا تَبّـت يـداه ولا تُبـتَ عنـه.

كُنـتُ ولا أزال وسـأبقى أديـن لـهُ بسـعادتي، يخـبرني بأننـي بيـتُ شِـعرٍ هائـل، يحتـاجُ الى الآف السـنين ليُنظمـه، فأشـكو لـه كيـف تقبـع في قلبـي ارملـةٌ سـوداء وكيـف لسـاني مُثقـلاً باسـمه، عـلى لسـاني أحـرف علّـة وفي اُذني كنائـس تقـرع اجراسـها بغـير أوقـات الصـلاة، كانـت نذيـر شـؤم، تقـرع اجراسـها عنـد أوقـات الخـوف، صـوفيٌّ يؤمـن بالغيـب لأن الغيـب مُقـدس، يظـنُ أن اليقـين يُقلـل مـن شـأن قَداسـة المُعتقـد، هكـذا كُنـت، أؤمـن بـأن هُنالـك نهايـة حتميـة لمـا أنـا عليـه، نهايـة لهـذا العـذاب الخـلاب، حائـرةٌ في سُـبل الخـلاص، بقيـت اناجـي الـرب وأنـا في بطـن حـوت.

(٢)

مُستلقيةٌ على فراشي وسط اجنحة السحاب، اجمع اكوام القلق من حولي وأضرم النار بها دفعةً واحدة، اتعاطى القليل من النشوة ثُم الوذ بالفرح وانا بين يديّ اخر كتاب لكاتبٍ اعشق كتاباته، قرأت لهُ كِتاباً فاقتنيت كل كتبه، اقتنيتها لأعيش معها أياما او شهورا مُتقمصةً لكل الأدوار التي يكتبُها، ذلك الكاتب ذو الكلمات البراقة، كنتُ لا أقرأ كتاباته على عجل؛ كان هنالك كمٌّ هائلٌ من الابداع خلف سطوره ومن بينها.

في غرفتي الضوء خافت وعيني مُنصبّة على مؤلفهِ الأخير، اسمع صوت همهمةٍ قُرب الباب، اسمع صوت رجلٍ كأنهُ ثَمل، يُصوّر لي الظن شكل جسده وهو يترنح يميناً ويساراً مُتحدثاً بمخارج حروفٍ خاطئة، يطرق الباب ثُم يهمس بكلام غير مفهوم، ارتعد خوفاً منه ومن اقفال باب غُرفتي التي اضاعفها يوماً بعد يوم مع وجود هذا الكائن الغريب في منزلنا، اظل خائفةً حتى تأتي امي لتأخذه، ليكرر قوله كما كل ليلة وفي فمهِ انياب ذئب وفي رأسهِ عقل ثعلبٍ مُخادع بأنهُ اخطأ الغرفة وجاء الى غرفتي بدل غرفة أمي لكونهِ غير واعٍ، تأخذه امي وتسامحهُ كعادتها، لكنني لا اسامحها، اصحو في اليوم التالي وانا اكرههُ واكرهها كرهاً يزداد كل يوم بغزارة، اكرهُها لأنها تزوجت من هذا المتوحش الذي يقتات من طعامنا ولعابُهُ

يسيل كالكلب المسعور، كان يعمل في التجارة حتى تزوج امي ومن بعدها بات طريح ثمالتهِ وعبداً لكأسهِ وصالات القِمار، سنواتٍ وأنا اشعر بيده وهي تزن طناً حين يضعها على كتفي مُدعياً دور الاب، كان يمتاز بالدناءة وامر وجوده في بيتنا يبعث على الدوام الرعب في منامي.

زال صوته، أخذته امي إلى غرفتها فعُدت الى صفحات كتاب مؤلفي الرائع، أطمئن بعد سماعي لصوتِ باب حُجرتهم وهو يُغلق، أرجع لأخذ انفاسي بصورة طبيعية أكثر، أرجع لأسطر الكتاب لأرتدي ما ترتديه بطلة الرواية التي بيدي ولأتقمص دورها واتكلم كلامها واكل من طعامها، أكون تحت تأثير سعادةٍ كبيرةٍ وانا اقرأ روايات ذلك المبدع على الرغم من نهاياته الحزينة، كان جازماً على أن ينهي قُصص العِشق في روايتهِ أما بالزواج او الموت، لم يكن يعلم أن هناك قصصاً تنتهي ما بين بين.

كنتُ اقرأ، كأنني أقف على نافذةٍ كبيرة، أسأل الريح لعلها تحمل حبيباً لي، أفتح كلتا ذراعيّ وأغمضُ عيني، ما كنتُ أعلم أن الوضع المأساوي الذي كُنتُ اعيش فيه دفعني لأتوهم الحُب مع اول نظرة اعجابٍ أتلقاها من رجل يكبرني بعشر سنوات، دفعتني حاجتي الماسة لعاطفة الاب لأتوهم هذا الحب، خزائن الدمع التي في عيني كانت تُكابر، لا تذرف الدمع غاية اليأس، أحلم كل ليلة بأني سأخرج من ذلك المنزل المغمور بالرعب

والمملوء بالغرباء، كان لي اخوان إلا أنهما يكرهاني ويكرهني زوجها ذو اليد الثقيلة وعينيهِ ذاتِ الفكين، وحين كَبرُت صرت شخصيات كاتبي الرائع معي الى المسرح، أغمض عيني لثوانٍ فأستحضر منها ما أشاء، كنتُ أقرأ له بعمق، أغوص في حبر قلمهِ وإحساسهِ، كان لهُ الفضل الكبير في اتقاني للأدوار التراجيدية على المسرح، كان سبب عشقي للمسرح كتابات ذلك الروائي، وذلك الذي تمنيت لو انني ما لقيته، (آسر)، ذلكَ الغيم الذي لا يمطر، ذلك الذي تتسابق امامه حواسي لتُحادثه.

يظهر على المسرح فيما اجلس أنا أمام مرآة مُحاطة بالإضاءة الشديدة، اندم شديد الندم لأنني ولدت في هذه الحياة، انظرُ عميقاً في وجهي فأرى وجهه، اسمع صوتهُ من دون كل أصوات المسرح على الرغم من الأبواب التي بيني وبينه، كنتُ أسمعهُ بأوردة قلبي وبقية الناس كنتُ أسمعهم بأذُنيّ، أصمت، اتأمله، انتظرُ بشغفٍ مشهده القادم، انظرُ عميقاً في احداق عيني في المرآة فأراه يجلسُ مُتكئاً بأحداقي، يقف على خلف الكواليس برفقة (شدن) مُستعدين لبدء مشهدهما، أتنفس أنصاف انفاس وأنا أراهُ بقربها حتى بعد أن عرفت ماهية علاقتهما الغريبة، وانها ليست عشيقته، وإنما تشاركهُ حياتهُ فقط، أنا امرأة واعرف ما يجول في خاطر النساء من نظرة أعينهِن، كنتُ على يقينٍ تام بأن الذي بينهما ليس عِشقاً، لكنني ما شككت يوماً

بأنها حين تنظر الى وجههِ كانت تشرب من ملامحه.

تُرفَع السِتارة، تظهر (شدن) وهي تضع رأسها على حِجر (آسر) وتستلقي ارضاً وهو يجلس على الارض متكئاً بظهرهِ على سريرهما، يُدخن عميقاً وهي تنظر الى وجهه، تسأله:

- ما سيناريو عملك المسرحي القادم؟
- إن الاجر الذي دُفِع لي بخس، سيرفضه. (يجيبها مُمتعضاً)
- لا تهتم.
- سأخرج يوم غد للبحث عن وظيفة في بلدنا الذي يَشغل العاطلون من العمل فيه أكثر من ثلث عدد سُكانه، وإن عدتُ خائب الرجاء فسأذهب عند المساء لبيع لوحاتي وسط المدينة. (يقولها وهو يطفئ سيجارته واضعاً يدهُ على شعرِها)
- لا تقلق، سأُوفر إيجار الشقّة وما يلزم من طعام وشراب حتى نهاية الشهر، لا يجب أن تعمل في مصنعٍ او معمل او ما شابه أنا أخشى ان يُهوّن ذلك من حِدة ابداعك في الرسم او التمثيل، أنا على استعدادٍ تام للعمل طوال اليوم مقابل ألا تبيع احدى لوحاتك الأربع التي أُحبها.

يلوذ (آسر) بالصمت، فتلوذ معه، تبدأ (شدن) بالحديث مُجدداً:

- أتعلم؟ لا يزال ذلك الرجل مواضباً للانصات لعزفي ليوم واحد من كل أسبوع، لا يزال يأتي ليحجز طاولةً وحدَه، يشرب كأسين فقط، كأنهُ يأتي للإنصات لي فحسب، لا يزال لا ترمش لهُ عين حتى أنتهي من العزف، اناقته ومظهره يشيران بجدارةٍ الى أنه ثري، انه يُثير انتباهي لا أكثر، بيد أنهُ في كل مرة يرسل لي باقة وردٍ باهظة الثمن بواسطة النادل في المطعم بعد خروجه بثوانٍ، إلا أني أتركها وأخرج بعد انتهاء وقت عملي ولا احملها معي الى البيت، ما زلت اكره الرجال، كل الرجال، وابغضُ كل علاقة قد تربطني بأحدهم، إلا انت، انت استثناء، مازلت لا اتحدث مع أي رجل يتحدث إليَّ ومن دون سبب.

- شدن، الى متى تبقين على هذا النحو؟ (يُحملق بوجهِها وهو حانق)

- أكرهُ الرجال، وسأظل أكرههم ما دمت في قيد الحياة، كل الرجال باستثنائك.

كان الرجل الوحيد في حياتها الذي يؤخذ على محمل الاعجاب، هو من خلصها من جحيم العيش الذي لحق بها بعد أن خرجت من السجن، هو من خلصها من شذوذها السابق بعدما تعودت في السجن تفضيل النساء على الرجال، كان لها شذوذ اتاح لها فرصة النمو ببطء، ظلت تكره كل الذكور بسبب ذلك البدين المُسن الذي

اعتدى عليها، دخلت السجن فوجدت الملاذ الآمن لرغبتها لما يجبرها جسدها على اظهار المشاعر المكبوتة بحكم البلوغ إزاء كرهها للرجال، ظلت طوال تلك السنوات وهي شاذة عن قاعدة الجنس الثابتة بحثاً منها عن مُلامسة من لا يُخيفها او يرعبها بقسوته، تستذكر وهي مستلقية برأسها جُل ما مر بها، كيف كان (لآسر) الفضل العظيم في تخلصها من ذلك الشذوذ، تخبرهُ بأن السجن عاهة مُستديمة، لا يخرج الانسان منه دون أن يشكو من حريقٍ هائلٍ في داخله يستعر لسنواتٍ.

بعد ان حُكِم على (شدن) بالسجن لارتكابها جناية القتل العمد دخلت زنزانتها وهي على يقينٍ تام بأنهُ ملاذها الأخير، من دار الايتام الى السجن لم يكن الفارق كبيراً، إلا أن الفارق كان وقت بلوغها وهي لم تعد عذراء، بدأت بالتفكّر وهي تنظر من نافذة السجن الى السماء، الى حجم الحياة التي في الخارج، كانت تحلم بالطيران بجناحٍ واحد وجسدٍ عليل، كان جنحها الاخر هو (ليلى)، صديقتها التي حَلقت معها طويلاً والتي كان ظهورها في ذلك التوقيت اشبه بقُبلة حياة لغريقٍ توفيّ قبل ثوانٍ، قدرٌ تبسم ثُم خلقَ مصادفةً لتلتقي بها ثُم تتعرف إلى (آسر) لتجدهما صديقين حميمين توافقا على حُب الفن.

(ليلى) اكبر عُمراً من (شدن)، كانت ثائرة، قُبضَ عليها عدة مرات وهي توزع منشوراتٍ سياسية وتحرض على

الانقلاب وتعادي حُكم (جمال عبد الناصر)، كانت تُزجُ في السجون أياما وتَخرج، كانت لا تخاف منه؛ لأنهُ يُذكرها بأيام سجنها السابق حين حُكم عليها بتُهمة السرقة بعدما أجبرت على العيش في القاهرة ومن ثُم أجبرت على السرقة لتحصل على قوتها، تركت أهلها وقررت العيش بمفردها حتى تعرفت على (رؤوف) صديقها الثائر ايضاً، تعارفا يوم وفاة (جمال عبد الناصر) نظر بوجهها المُبتسم وسط الحشود الحزينة على فراق الرئيس، تأكد من أنها تبغض فكرة القومية التي نادها بها الرئيس السابق وأن فكرهما ضد فكرة الحرب، رحبا معا بما قام بهِ (أنور السادات) من اطلاقٍ للحريات واخلاءٍ للسجون، عاشا معا واتفقا على الزواج العُرفي واستمرا في النضال من خلال العمل المسرحي.

(رؤوف) يمتهن تمثيل أدوار الدراما، ويُبدع جداً في التراجيديا بحثاً عن لُقمة العيش، كان الوحيد من بيننا من درس التمثيل في قسم المسرح في اكاديمية الفنون، جذبَ (ليلى) للعمل، ومن ثُم (آسر) و(شدن)، بعدما صَنعَ من مسرح الاكاديمية مشهداً بخاصة للأحداث الراهنة، كان يستأجر المسرح بسعرٍ زهيد لإلقاء العروض وجمع أصدقاءه للعمل فيه ليلاً، كان الإقبال عليه قليلاً بعض الشيء ومع زخم الاحداث السياسية نال اعجاب الكثيرين، تلقى الدعم وكَبُرت مساحته ورُمِّم بشكلٍ فاخر،

كان محـط انظـار كل الأحـزاب والثائريـن، اعتـاد تقديـم عـرض جديـد في كل شـهر ويتكـرر ذات العـرض اسـبوعياً بحسـب اقبـال الجمهـور، في البـدء كانـت اغلـب النصـوص مـن تأليـف (ليـلى) التـي جعـل فِكرهـا السـياسي مـن العـرض المسرحـي ابـان تلـك الأوقـات مُنحنـى غريبـا نـال الاعجـاب بشـكلٍ مُتسـارع، ومـن ثُـم صـار الجميـع يكتـب النصـوص ويلقـيً بأدوارهـا عـلى المـسرح مـن خضـم حُـب الوطـن.

يُغـير (آسر) مـن شـكل جلوسـه، ثُـم ينظـر في سـاعة يـده، ثـم يسأل (شـدن):

- اقتربنـا من وقـت الفجر وانـتِ بالتأكيـد منهوكة بعد العـودة مـن العمـل، ألا تودين النـوم؟
- نعـم، أود ذلـك، إلا أننـي احتسـيت كأسـاً مـن الكحـول فغـرب النـوم عـن عينـي، أتعلـم؟ اشـعرُ بالثمالـة في عمـوم اليـوم ولا اصحـو إلا عنـد احتسـاء الكحـول، اريـد التحـدث معـك عـن ذكريـاتي، عـن الليـالي السـود وعـن الأعيـاد بالوجـه الشـاحب.
- كما تشائين.
- ما اخبار حبيبتك؟ وكيف هي علاقتكما؟
- انها بخير، وتسير الأمور بشكل جيد.
- مهـما طـرأت ظـروف قاسـية، كـن حريصـاً عـلى ألا تخذلهـا، ، هنالـك حقيقـة لا منـاص للحيـاد عنهـا، لا يخـون الرجـل زوجتَـهُ إلا حـين يشـعر بالملـل، ولا تخـون المـرأة

زوجهـا إلا حـين تَعشـق.

- هـل أخبرتُـكِ بأنهـا متزوجـة؟ (يقـول مسـتغرباً مـن معرفتهـا بأننـي متزوجـة)

- نعم اخبرتني من قبل.

- اوشـكت الشـمس أن تـشرق. (ينظـر إلى سـاعة يـده ضجـراً)

- آسر، لـن أُكـرر مـا قلتـه قبـل قليـل بشـأن تكاليـف العيـش، اطلـب إليـك الانشـغال برسـم الكاريكاتـيرات السياسـية لعلنـا نضـع حـداً لهـذا الوضـع المأسـاوي الـذي تعيـش فيـه البـلاد، وانتظـر فرصـةً للظهـور بـدورٍ مسرحـي جيـد بـدل البحـث عـن العمـل، أنـا أُديـن لـك بحيـاتي، إلا اننـي معـك اشـعر بـشيء مجنـون.

- ما هو؟

- أدعـو لـك بمسـتقبلٍ آمـن، اسـتقرار، منـزل، عائلة، أحبـك بعاطفـة مجنونـة، كأني أتمنـى ان تكـون ابنـي لأحتضنـك واخـاف عليـك مـن حُريتـك المطلقـة.

يخلـدان للنـوم فتنطفـئ أضـواء المسرح، يخرجـان معـا مـن خلـف الكواليـس بعـد إنـزال السـتارة، اتخيـل جيـداً شـكل سـيرهُما معـا، كانـت لا تـزال تمسـك بيـده وهـي تسـير معـه، حدثنـي (آسر) كثـيراً عـن هـذا الـشيء الغريـب، كانـت تمسـك بيـده كلـما جلسـت معـه، لا تنفـك عنـه حتـى وهـي نائمـةً بجنبـه، تـوزع أصابـع كـف يدهـا بالتسـاوي عـلى أصابـع يـده

وتنغمر بينهم، لا شك بأنهُ كان معنى الأمان في حياتها.

يتغير المسرح ليصار الى منزلي، تُنير الأضواء لمشهدٍ جديد، اجلس فيه أنا و (طارق)، يظهر (طارق) ليجسد دور زوجي في المسرحية.

نجلس معاً على طاولة مُستديرة ذات غطاءٍ ابيض تشوبهُ الازهار البنفسجية، نتناول افطارنا غير الشهي، يتراءى لي (شريف) زوجي الحقيقي وهو في الصف الأول من الجمهور، فيأخُذ عقلي منعطفاً عن النص المسرحي لأتذكر صباحاً كُنت شاردة الذهن مبتسمة، يسألني عن أسباب شرود ذهني منذ الصباح الباكر، فأجيبهُ بأن ليس هُنالكَ شيء مهم، أمسكُ بيدي اليُمنى لُقمة صغيرة واتكئ على ذات اليد بوجهي، امضغ لُقمتي السابقة ببطء وعيني تلوذ عنه وتترقب نظراته خشية، انظر لهُ تارةً وتارةً أخرى انظر الى الصحن الذي امامي، ارتعد دون ادنى حركة، كان الأمس الذي مضى على يومنا ذاك هو اليوم الذي احببتُ بهِ (آسر)، كان اول موعدٍ صريح لنا، أول نظرة فضفاضة، اول لمسة، أول قُبلة، ينظر إليَّ (شريف) نظرة تعجب فأفسرها نظرة شَك، تبقى نظراتي مُنخفضة ويبقى هو في حيرته.

اسأله عمّا حدث في المؤتمر الذي حضره قبل أيام في (الإسكندرية) فيجيبني بعد وهلة صغيرة من سؤالي أرى خلالها جنازتي وهي تسير الى القبر بأن مفاصل الدولة

كافة مستعدة للحرب، يخبرني بأن الأوساط الدولية يراهن بعضها بعضا حول قرار (السادات) القادم، الرهان الأكبر كان على أنهُ سيستأنف ما خطط له (عبد الناصر)، والرهان المُقابل كان يُشير الى شروعه للتفاوض مع (إسرائيل)، أخبرتهُ بأن زمام أمور الاقتصاد في طريقها الى الانفلات لأن الرئيس (السادات) الذي استمدَّ شرعيته من ثورة ١٩٥٢ بات اليوم في غنىٍ عنها بعد ان فتح أبواب الاستثمار الأجنبي على مصراعيها، يخالفني (شريف) الرأي مُدعياً بأن قرار الرئيس في تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادي منذ عام ١٩٧٤ وارساء قواعد الاقتصاد الحُر جاء صائباً مع التدهور الاقتصادي الذي نعيش فيه؛ لأن ميزانية الدولة وكل مدخلاتها لا تكفي لأن ترسي اقتصاداً ذا أسسٍ قوية نظراً للظرف السياسي الذي نعيش فيه وتداعيات الحرب وموقف دول الجوار من (مصر) ما إن دخلت الحرب او لم تدخل، لا أوافقه الرأي في ذلك ولم أجادله؛ لأنني أرى أن اهم محركٍ لسياسةِ أي دولة هو اقتصادها وما أن سمح الرئيس بأن تتحكم القطاعات الخاصة باقتصاد البلد فأننا سنرى اياماً يُحددون لنا فيه ما علينا استيراده وتصديره، التحول من الاشتراكية الى الرأسمالية في بلدٍ لا يمتلك احتياطياً مالياً يكفيه لتجاوز نكباته امراً ليس صائب.

غيرت مجرى حديثنا واخبرته بأنني سأتأخر في العودة الى المنزل عند المساء، اخبرتهُ بأننا نستعد لتقديم عرضٍ

مسرحي يعود إلى روايةٍ كُتِبت في القرن الماضي، يجيبني بأن عليّ الالتزام جيداً بشروطه التي وضعها حال عودتي إلى العمل في المسرح والتي تقضي بعدم اشتراكي بأي نصٍ سياسي حفاظاً على مكانته في الوسط السياسي وعمله في السلك الدبلوماسي، اخبرته بأنني كذلك وأنني صاحبة الفكرة لهذا العرض الكلاسيكي سعياً مني؛ لأن يأخذ المسرح منحنى غير السياسة، وأنا احادثه اتوارى عمّا اشعر، أتدارك سبابة يد (آسر) اليُمنى وهي تسير من اصبعي الخنصر الى كتفي، اشعر برعشةٍ وانا اتناول افطاري، ما زالت شفتي السُفلى لا تتذوق الطعام الذي أمضغه، منذُ مساء الامس وانا لم اتناول شيئاً غير شِفاهه، بالأمس ذهبتُ الى منزله، كانت المرة الأولى.

نتدرب ليلاً على عملٍ مسرحي مُغاير للأعمال السياسية التي كُنا نقدمها كانت فكرتي لإضافة الأفكار الجديدة للمسرح بُغية زرع حُب المسرح بين الجمهور وألا تقتصر اعمالنا على كِبار السن فقط، كان النص يعود الى القرن التاسع عشر، كان ذلك العمل فرصتي الذهبية للحضور مع (آسر) أكثر والخروج معه من دون خوف، فبعد ان وزعنا النصوص واخترنا الأدوار لزملائنا وبعد ان عاينا كثيراً لكسب قناعة (رؤوف) و(ليلى) على تغيير عروضنا وعدم اقتصارها على السياسة احتجنا إلى أن نُجهز الأزياء للممثلين ولاسيما وأنها تُشير الى القرن التاسع عشر فأن

مسألة اختيارها ليس بالهين، لما قبل بدأ العرض الاول، عَملنا معا مدة أسبوعين، نخرج معا، نأكل معا، لا نفترق إلا عند الليل، تعرفت من خلال تلك المدة إلى شخصيتهِ والى الجواهر المكنونة في ذاته، كان رجُلاً رائعاً، ذا حضورٍ بهيّ وابتسامةٍ خلابة حالما يسحب كُرسياً ليجلس بقربي ونحن نتناول وجباتِنا اليومية في مطاعم المدينة، كان شعره يتدلى على وجهه فيُعيد تصفيفه بسرعة، كانت نظراته تسقيني عصير الرُمان بغزارة، أرتوي منه حتى أنسى كُل التعب الذي في بدني.

حدثني عن نفسه، عن (شدن)، عن (ليلى)، عن (رؤوف)، عن لوحاتهِ، عن ذلك الاعصار الساكن العاصف بهِ حين يمسك فُرشاته ليرسم، عن الأمطار الذي يسمع صوتها على النوافذ ويراها جافة في ذات الآن وقتما تُخالج وحدتهِ آماله، عن طفولتهِ، عن صراعات ذاتهِ مع محيطه، عن ابيه الذي كان مُتشدداً ومتعصباً لدينه الذي يُحرم الرسم، حدثني كيف انتهى بهِ الامر في ذلك البيت مع (شدن) بعد أن طردهِ أبوه، حدثني كيف بدأت علاقته بالمسرح من خلال (رؤوف) و(ليلى).

اصطحبتهُ (ليلى) ذات مرة معها للذهاب الى المسرح صباحاً لمشاهدة أحد تدريباتهم، (ليلى) صديقته المقربة جداً، كان يدرس فن الرسم و(ليلى) تدرس فن المسرح، حواراتُهما من دَعتها لأن تجبره على التمثيل،

كان موهوباً في التمثيل كما في الرسم إلا أنهُ لم يرغب بذلك، يجلسان قرب مخرج المسرح وهو يجلس في الصف الأول ليتابع تدريبات الممثلين، يُشارف المُخرج على الخمسين من العُمر، ذو الشعر الأبيض ويمتاز بحس الفكاهة، اعتاد حمل نظارتين معا، يضع احداهُما في وجهه ويُعلق الأخرى على رقبته، تخبره (ليلى) بأنها تود تقديم صديقٍ لها يرغب في التمثيل فيطلب إليها الصمت والتريث حتى ينتهي المشهد، تجلس جنبه ثُم تذهب الى احدى الزوايا للحديث مع صديق لها، تترك (آسر) جالساً خلف المُخرج، كان أحد المتدربين يؤدي دوراً بوجهٍ عبوس وثيابٍ رثة كأنهُ انفك من قُضبان السجن الآن، يجثو على ركبتيه متوسلاً، يخبر امرأةً مُسنة بأنهُ يود الموت وانهُ يكافح من اجل الحصول عليه كفاح الضوء في العتمة، ينحني (آسر) الى المُخرج فيقول له:

- على الممثل أن يُعيد جملتَهُ هذهِ بصوتٍ اسود، صوته خلوّ من نبرة التعب الذي على ثيابه ووجه، أليس كذلك؟

- انت على حق. (يُجيب المُخرج متعجباً)

وبعد أن تفحص ملامح وجهه بنهم، استدرك سائلاً: «من انت؟» فيخبره بأنهُ جاء برفقة (ليلى) ويُشير لها بأصبعه، يرفع المُخرج يده ليطلب مجيء أحد العاملين في المسرح، يطلب إليه ان يأخذه الى المسرح ليقول جملة كتبها المخرج بورقةٍ امامه تبدأ بعد ان تنتهي المرأة المُسنة من

إجابة ذلك الرجل بالثياب الرثة، يرتبك، فيخبره المخرج يُهدده مازحاً اذا لم يقم بذلك فأنه سيتعرض للضرب، يصعد (آسر) ويؤدي ما طلب إليه المخرج، يرفع المخرج يده هاتفاً:

- واخيراً، وجدت المُمثل الصادق الكاذب.

تقترب (ليلى) من المخرج ضاحكة لتخبره بأن ذلك ما كانت تود اخباره، فيشيد باختيارها الصائب، يمسح المخرج بيده رأسها قائلاً:

- طفلتي الذكية، لكِ مستقبلٌ فني رائع.
- هل ضَمنَ (آسر) دوراً في مسرحيتنا القادمة. (تسأل ليلى بعد ضم يدها فرحاً)
- بالتأكيد، (آسر) اسمٌ جميل. (يقول متعجباً)
- انا كنت ا... (يتحدث آسر متلعثماً)
- صه، لن اسمح لك برفض عرضي، وإلا تعرضت للضرب. (يُمازحه مُجدداً)
- شكراً لك استاذنا الرائع ومُعلمنا القدير. (تقول ليلى بامتنان)
- لك الاجر الذي تريده، سأعطي لك اجرة الدور الرئيس. (يقول المخرج لآسر وهو يضع يده على كتفه)
- موافق. (يجيب آسر بعد ان حرك حاجبيه متعجباً)
- اذهب الى غرفتي، ستجد على مكتبي نصاً مغلفا

بجلـدٍ ازرق، خـذه واقـرأه جيـداً وارجـع الى هنـا الأربعـاء القـادم. (يقولهـا المخـرج ثُـم يحثهـم عـلى اسـتئناف التدريبـات)

- لكن أستاذ، أين أجد مكتبك؟ (يسأل آسر)

تضربـه (ليـلى) بقدمهـا مزحـاً لتتـلافى الاحـراج بعدمـا نظـر المخـرج إلى آسر مـن فـوق نظارتـه، تطلـب إليـه ان يصمـت؛ لأنهـا تعرفـه، تكـرر شـكرها للمخـرج وتجـر (آسر) مـن يـده ليرحـلا فيتوقـف، يسـأل المخـرج:

- لي سـؤال واحـد قبـل ان اغـادر، لِمَ قلت عنـي صادق وكـذاب؟ هـل تعرفنـي مـن قبـل؟

- الممثـل الصـادق الكذاب، الممثـل وليس انـت، أنا لا اعرفـك، لكنـي اعـرف دنيـس ديـدرو، هـل تعرفـه؟ (يقولها المخـرج لافهامـه مُحـركاً يديـه وكل عضـلات وجهـه)

- كلا، لا اعرفه. (يجيب آسر بعد الاعتذار لسوء فهمه).

- كان المعيـار السـائد لمعرفـة الممثـل الأفضـل هـو مـن يكـون الأكثـر إقناعـاً حتـى كتـب دنيـس ديـدرو في تصوراتـه بـين عـام ١٧٧٣ و ١٧٧٧ بـأن الممثـل الأكثـر ابداعـاً هـو الممثـل الصـادق الكـذاب، هـو الـذي يُعـبر عـن شـعور لا يحسـهُ اطلاقـاً، دعـا الى عـدم الاندمـاج في الـدور إلى درجـة المعايشـة الصادقـة ويرفـض التقمـص المسرحـي والإيهـام الواقعـي الزائـف، خالـف الـرأي السـائد آنـذاك ولم يؤيـده احـد، إلا أن في عـام ١٨٣٠ جُمِعـت تصوراتـه تلـك بكتـاب واحـد كان بعنـوان (مفارقـة الممثـل) وسُـمي

بالفرنسية (Paradoxe sur le comédien) وبعد نشره، صارت تصوراته هي الادق لتحديد الممثل الأفضل.

- أعذب الشِعر أكذبه، قالها العرب قديماً. (تقول ليلى)

كان اول دور يحصل عليه بحكم موهبته بالفطرة، صار لهُ عملاً ودخلاً خاصاً به، ترك مسكن الطلبة وجاء ليشارك (رؤوف) و(ليلى) في شقّتهم، بعدما كان (رؤوف) يستأجرها مع أصدقائه، وتركوه بعد تخرجهم ظلَّ غير قادر على دفع الايجار بمفرده فشاركه (آسر) وقرر بعدها الزواج من (ليلى)، يُحدثني عن (ليلى) بكلماتٍ تغمرها مرارة القصد، وبكلماتٍ تغمرها الغبطة، كان نقياً جداً في حبه لها، ويحتضنها وهو لا يشعر بأي مشاعرٍ تشوبها النشوة، لم يكن يوافقها على زواجها من (رؤوف) إلّا أنها أصرت على ذلك.

تتغير أجواء المسرح بسرعة، يضج بأصواتٍ تهتف بسقوط الرئيس مُزدرئةً شكل الأطفال الذين يشيرون الى الطعام بكلتا أيديهم بعد ان جعل الجوع العارم سرقة الخُبز جريمةً مشروعة، يظهر على المسرح مشهداً لأم يتوسد حجرها طفلان نائمان، يدخل عليها رب اسرتها ليُخبرها بأنهُ لم يتقاضَ معاشه وأن عليهم قضاء الليلة جائعين كالليلة الماضية، ترتجيه لئلا يوقظ الأطفال حتى لا يتذكروا جوعهم، تحدثه والدمع ينهمر على وجنتيها كيف ناما بعد أن وعدتهُما بأنها ستوقظهُما حال مجيء أبيهم، تتضرع بالدعاء الى ربها لينقذهم من شدة الجوع،

فهم اعتادوا ان يجوعوا أياما خلال الشهر ولكنها تضرعت بالدعاء لئلا يكون الجوع شديداً هكذا، تضع الطفلين على وسادتها برفق، يجلس الاب منحني الرأس ينظر الى حذائهِ الممزق واطراف بنطاله المُتهرئة، تقترب الام من النافذة لتكرر دعاءها ظناً منها بأن الدعاء قرب النافذة اشد وضوحاً من بقية اركان المنزل، كيف كذلك وهي تعبد رباً عليماً بذات الصدور، تتكرر أصوات الهتافات التي ضجت مع دخول الاب، تنظر من النافذة وتقطع دُعاءها، تشير الى الاب ليأتي ويرى ما تراه، مجاميعُ من الشباب تأتي وتذهب في الشارع تنادي بسقوط الرئيس السادات، تسأل زوجها عمّا تراه فيجيبها أن اطفالهُما الذين ناموا جائعين لم يكونا إلا إنموذجاً لهؤلاء الثائرين، يرجع الاب ليجلس كما كان، تسأله عن اسباب هذه الهتافات فيجيبها إن احداً رسم في احدى الساحات العامة كاركاتيراً يظهر فيهِ الرئيس جالساً على طاولةٍ تضمن صحوناً مملوءةً بالأطفال بوجوهٍ باكية، يظهر الرئيس حاملاً بيديه شوكةً وسكيناً وبوجهٍ مُبتسم يتناول من تلك الصحون، يخبرها بأن من رسم هذا الكاركاتير لم تكن هذهِ فعلته الأولى، سبق أن رسمها وتظاهر حولها الشباب حتى شرعت قوات الامن مسرعةً لصبغ الجدار ومنع التجمهُر حولها إلا أنها سُرعان ما يلتقُط لها صوراً بواسطة الكاميرات الفوتوغرافية لتُنشر في جرائد المُعارضة في اليوم التالي، يخبرها بأن هذا الرسام لم يفصح عن اسمه ولا يعرفه احد، يجيء خفيةً في اوقاتٍ مُتأخرةٍ من الليل

ليرسم وهو يمتاز بالسرعة، يُقال عنه بأنه لا يستغرق إلا بضع دقائق ثُم يلوذ بالفرار.

اخبر (ياسمين) كيف تسلم السادات مقاليد الحُكم والدولة تمتاز بوزراءَ يتسمون بالقوة والحِنكة السياسية اثر عملهم مع الرئيس (جمال عبد الناصر)، كان الرئيس لا ينام ليله جيداً وهو يشعر بأنهُ على حافةِ هاوية الانقلاب، كانت كوابيس الانقلاب تحيط به من كل جانب، آل الامر الى أن يكتشف لهُ أحد ضباط المخابرات بأنه في حوزته تسجيلات لمسؤولين مُهمين في الدولة يخططون لأنقلابٍ يطيح بهِ وبحكمه، كشف عنها أمام وسائل الاعلام وتمت محاكمتهم، ظن بعضهم بأنه امر دبرهُ السادات ليطيح بهم، وظن بعض اخر بأن الامر لم يكن كذبة، بعدما صرح جلياً بأنهُ بارد القرار بشأن الحرب مع إسرائيل والقادة العسكريون نيرانهم لم تزل تستعر لوفاة (عبد الناصر) والثأر لأرضهم المسلوبة وخسارتهم للحرب المنصرمة، ظهر الرئيس في التلفاز وقتها وهو يحرق الشرائط الصوتية التي تُدين وزراءه الذين يُلاقون تزامناً مع ذلك مصير محاكمتهم لأسقاط نظام الحكم والاضرار بمصلحة الدولة، وبعد مدة وجيزة ما برح إلا أن صرح بأن زمن قمع الحريات قد انتهى، قام ابان تلك الحقبة بالافراج عن معتقلي حركة (الاخوان المسلمين) وتبرئتهم من التهم التي وجهتها إليهم حكومة (عبد الناصر)، قدم الدعم لهم ليزاولوا نشاطهم

الديني السياسي في الساحة المصرية بحريةٍ تامة كما ظنها العامة من الناس وبحريةٍ مشروطة كما ظنها متابعو الشأن السياسي ولغايةٍ لم يدركها إلا بعد فوات الأوان.

كانت لا تزال في حنايا روحي طفلة نائمة بانتظار يدٍ توقظها كيدِ ابٍ او ماشابهها لتخبرني بأن الأمور بخير، وانا اسير الخطوة الأولى نحو الجنة، بعدما فتح باب شقّته ودخلنا معا، كانت المرة الأولى، المكان غريب، لوحات مبعثرة ورسوم كاريكاتيرية والوان في الرفوف وعلى الأرض، في غرفته سرير واحد وخزانة ملابس واحدة وبيانو صغير في أحد اركان الغرفة، علب سكائر على الأرض، صحن فاكهة الكرز، دخلتُ وانا التفتُ في كل الجهات، حتى انني نظرتُ الى السماء خشية لئلا أجني ذنباً لن ينفعه الاستغفار.

كان اول المساء، اخبرني بأنه وقت نومه لأن شركاءه في السكن لا يحضرون في هذا الوقت، (ليلى) و(رؤوف) يعملان في مطبعة لطبع الصحف من بعد منتصف الليل حتى الفجر، تجيد (ليلى) العمل على ماكنة الطباعة ويعمل (رؤوف) على رَزمها واعدادها وتوزيعها بعجلته النارية على أصحاب مكاتب البيع قبل شروق الشمس لتكون متوافرة عند صباح، اما (شدن) فعملها العزف على البيانو في مطعم فخم حتى الساعة الثالثة صباحاً، الجميع كان لديهم عملٌ، إلا هو، ويتخذ الجميع من المسرح هوايةً او مصدر رزق ثانوي، لأن الدخل من العمل في العروض التراجيديا

لا يسد جوع طفل واحد.

اعتادت مع (آسر) الحياة الليلية والنوم طوال ساعات النهار، كان دائما ما يقول إن السهر وجِدَ للمبدعين فقط، لم اعرف لمَ دفعني الفضول للبحث في ارجاء الشقّة، دخل الى غرفته ثُم خرج منها تاركاً الباب مفتوحاً ثُم ذهب إلى المطبخ ليعُد الشاي، أخبرني وهو يوظب أغراض منزله من الأرض خجلاً من كل شيء مُبعثر أنهُ يتقن صُنع الشاي وان كُل من في المنزل يتوسل إليه لصنع الشاي بنفسه، عدت لانتظره في الصالة، وبعد صمتٍ لم نجد له أي مسوغ إلا رهبة اللقاء الأول، سألته:

- ألا تضجر من الوحدة؟
- كلا، تشاركني لوحاتي هذه الوحدة وهي من تلتهم كل هذه السجائر وتترك علبها الفارغة على الارضية، أما أنا فأقف على الجانب الاخر.
- أي جانب؟
- الجانب الاخر من حياتي، اخرج منها لأرسم ثُم اعود إليها.
- لم أعلم أنك تجيد الرسم، انت موهوب في التمثيل، وبارعٌ في الرسم ايضاً.

اخبرتهُ بذلك وأنا امرر إصبعي على لوحةٍ رُسِمَ فيها فضاء يشير الى ليل وسماءٍ مُكتظة بالنجوم واشياء لم تكمل

بعد، لمست بسبابتي أحد اطرافها فوجدتهُ قد تلطخ باللون الأسود، كانت اللوحة لم تجف بعد، قلتُ بارتباك:

- انا اسفة، لم أعلم بأنها لم تجف.
- كلا، لا عليكِ.

يجيء بقربي وبيدهِ قطعةٌ من القِماش وقنينة صغيرة تحتوي على محلولٍ ابيض اللون، يمسك يدي فيعرف جيداً نبذةً عني وعن حياتي، ارتعشت قليلاً بعد ان لامسته، نظر بعيني نظرة تعجب فتدارك الامر على عجل وعاد ليمسح بقطعة القِماش اصبعي ذا اللون الأسود، نظرت ملياً لوجهه وهو مُنحني، شعره، رقبته، تفاصيل شفتيه، ذقنهُ متغير اللون، كنتُ بحاجةٍ للنظر في عينيه ولكنهُ كان مُنشغلاً بأصبعي الذي توقفتُ عن الشعور به، مرت أيام طوال وأنا انظر إليه خفية، اختلس النظر إليه من وراء من كان برفقتي، اقضم من وسامته وانا اراه على المسرح حين نتدرب، حاولت مراراً لأن يجمعني دور مباشر معه ولم يفلح الامر، كانت الأدوار السياسية تمتاز بالصلابة، فكرت في هذه المسرحية الكلاسيكية لأظهر بدورٍ مباشر معه، حلمت كثيراً بأن اكون عشيقته، يضع القليل من السائل على قطعة القماش ويمسح اصبعي ويدي برمتها بين يديه، سألتهُ بسذاجة:

- كيف لم تجف اللوحة بعد ونحنُ دخلنا الآن الى

الشـقة! كـم تحتـاج الألـوان لأن تجـف؟

- دخلـت الى هنـا حـال وصولنـا وكانـت الأواني مبعثـرة عـلى الأرض، وانـا اجمعهـا رأيـت اللوحـة ولم يعجبنـي اللـون الأسـود قمـت بطلائـه سريعـاً ليجـف واتممهـا بعـد خروجـكِ، لم اعلـم أنهـا سـتنال اعجابـكِ وهـي لم كتمـل بعـد.

نفـخ عـلى إصبعـي ليجـف فجـفَ الـدم في اوردتي بالكامـل، فتوقفـت عـن الـكلام، عـن الشـهيق والزفـير، اغمضـتُ عينـي دون شـعور، فتحتُهـا فوجدتـهُ ينظـر إلَّي، تداركـت الموقـف وسـحبتُ يـدي لأنظـر الى إصبعـي وانشـغل بـهِ، لأبتعـد مـن ذلـك الموقـف

كُنـت قـد اختلسـت النظـر إليـه وهـو يدخـل الى غرفـة منامـه ويجمـع الألـوان مـن الأرض ويضـع اللـون الأسـود عـلى اللوحـة، تعمـدت لمـس اللوحـة بأصبعـي وتصنُـع الغبـاء مـا حصـل، يسـألني:

- ما مهنة زوجكِ؟
- رجل سياسة، رجُلٌ بعيدٌ من الفن.
- ألا تعلمين أن السياسة فن؟
- حقاً!!
- نعم، السياسـة فن، لكـن في الدول المتقدمـة، في دولنا العربيـة ليسـت فنـا؛ لأننـا لا نـرى الرئيـس السـابق للرئيس الحـالي في كل البـلاد العربيـة في قيـد الحيـاة، تكـون السياسـة

فنا حين نعلم جيداً مفهوم التداول السلمي للسلطة.

تصنعت التأخر عن موعد عودتي، نظرتُ الى ساعة يدي وطلبت إليه أن يريني الألبسة الخاصة بالمسرح لأنني أستطيع التأخر في العودة.

بدأنا العمل، حددنا البسة الشخصيات وحددنا ما نحتاج إلى شرائه، اتفقنا على الخروج بعد ظهيرة يوم غد لشراء بقية الألبسة فلم يبقَ للعرض سوى ثلاثة أيام، رفع (آسر) بيدهِ ثوباً اسود، قال لي بأنهُ سيكون لائقاً عليّ في المشهد الذي سأظهر بهِ أكثر من الثوب الذي اخترتهُ مُسبقاً، طلب إليَّ ارتداءه وانهُ سينتظر خارجاً حتى انتهي، رفضت فأصر أكثر، ابتسمت وقَبلتُ طلبه، خرج مازحاً وهو يطلبُ إليَّ أن اقفل باب الغرفة جيداً لأن هنالك ذئباً في الخارج.

ارتديت الثوب، أثار انتباهي كونهُ جديدا، لم تزل عليه العلامات التجارية، كل ما ظننته أن جميع الألبسة هُنا كانت تُستعمل في المسرح من قبل، انتهيت من ارتدائه وفتحت الباب، دخل وظل ينظر إليَّ كما تنظر الام إلى مولودها الأول، امتزجت في نظراته البَهجة بالحُب، وقف خلفي ومرر يديه بين خصلات شعري وجعلهُ ينساب الى الخلف، اكتشف سراً يعرفه، لم أتمكن في وقتها من غلق اعلى ازرار الثوب من الخلف، مَد يديهِ ليغلقهُما فشعرتُ بأصبعهِ يمُر على

رقبتي، تقرب وجهه من أُذني اليُسرى وأخبرني بأنني امرأةٌ خُلِقت من التوت والرُمان والمَرمر، اغمضتُ عيني وهو يضع كلتا يديهِ على خصري، اخذتُ نفساً عميقاً قبل أن اغرق، ايقنت حالما قبلت المجيء لغرفته بأنني سأبحر معه الى المجهول، ولم اعلم أني بعد الإبحار سأغرق.

بعد ذلك الغرق المُمتع، نهضَ وحده من ظهر سفينتنا ذات الاغطية البيض، تركني مُستلقية على ظهري وذهب ليجلب لوحة بيضاء ويضعها بالقرب من السرير، جلس ووضعها امامه وجاء بكرسيه وادواته، اخبرني بأنهُ سينتهي من اللوحة الان، كان ينقصها بضع احاسيس وتوافرت الان، رسمني وأنا بذات الرداء الأسود وبذات طريقة الاستلقاء وسط ليل لوحته، كأنه تنبأ بمجيئي او خطط له، او لعله اشترى الثوب من أجلي، ظل الندم يهمس بأذنيّ لأعود إلى منزلي، وقلبي يضع يده على فم الندم ليكتُمه، انظرُ الى ساعة يدي فأرى تسرب الوقت، أرى عقارب الساعة كسيفين يتقاربان ليقطعا رأسي.

انهض مُسرعةً بإتجاه ثيابي وارتديها على عجل، اخرج مُسرعةً واترك من خلفي الباب غير مغلق، ادخل الى المصعد انتظر بابه لتُغلق، يخرج (آسر) في باحة باب شقته، نتبادل النظر دون التفوه بكلمة، ظل يسألني واني اهِم خارجة عن أسباب عجلتي ولم أجبه، وانا في طريقي الى الطابق الارضي انظر خلفي فأجد مرآةً، اتفحص وجهي

ورقبتي خشية وجود اثر تركه، فأرى شبح الندم بيدين كبيرتين وأعين جاحظة يُحدق بوجهي، ارجع خطوتين الى الوراء لئلا يغتالني، اغلق عيني من شدة الفزع فأشعر بما شعرته وقتما حملني بعناقه وجعل اقدامي لا تُلامس الأرض، تمنيت لو أتقيأ قلبي، لاتخلص منه، وجعٌ عظيم يمزق اوردةَ قلوبنا حين نريد ما لا نملُك.

وهي بين يديها أوراق تتضمن نص مشهدها القادم، تقف (ليلى) وهي تَهزُ قدميها مرتبكة، بجنبها (رؤوف) يضع الضماد على رأسه وبعض الوان المكياج ليظهر بدور مُصاب بجروحٍ اثر ضربٍ مُبرح، تنظر إليه والارتباك يظهر غيرتها المضمورة بقلبها من امرأةٍ تساعد (رؤوف) على الظهور بشخصيته، تنتابها الغيرة؛ لأن وجهها قريبٌ من وجهه، تنظر الى اوراقها تارة وتارةً أخرى الى حبيبها وهي تتذكر تلك اللحظة العميقة التي تعارفا بها، يُنادي عليهُما المُخرج مُشيراً إلى قرب وقت ظهورهما فتأخذُ الفرشاة من يد تلك المرأة وترمقها بنظرة حُب الامتلاك، تخبرهُ بأن منظر الدماء والضماد على رأسهُ يكيفي ليتقمص دوره، تمسُك بيدهِ لينهض، تناولهُ عُكازاً، يهرولان الى المسرح، مشهداً يضم اجتماعاً لقادة التظاهرات اليسارية العاشقة لزمن (عبد الناصر) التي تلقت بالأمس الضرب المُبرح على ايدي اتباع حركة (الاخوان المسلمين) في القاعة الكبيرة في (جامعة القاهرة) بعدما سمحت لهُم قوات الأمن بأن

يُنتَهك الامن، يبدأ المشهد على المسرح، يجلس (رؤوف) بالقرب من (ليلى) وسط طاولة الاجتماعات، يشيد جميع الحاضرين بدوره البطولي وهتافاته العالية ليوم امس، دفع ثمنها عِدة ضربات على رأسه وكسراً في ساقه اليُمنى، يبدأ النضال الواهن وتبدأ المُقامرة بحب الوطن، تتعالى الأصوات ثُم تهدأ، يُخطط الجميع وتفشل خُططهم حال عرضها في آنٍ واحد، كانوا على يقينٍ تام بأن الزمان لم يعد زمانهم وأنهم لم يجدوا أي مساغ لعدم تصديق فكرة أن الرئيس يروم لأن يكون فكر (الأخوان المسلمين) هو الفكر السائد في تلك الآونة، وخلال بُرهةٍ من الصمت، يقول شخصٌ ما يجلس في ركنٍ من اركان الطاولة وهو يُلوح بكف يدهِ نادماً:

- عرفت كل شيء حين قرأت تلك اللافتة التي عُلقت في الجامعة والتي كُتب عليها (حزب الله في مواجهةٍ مع حزب الشيطان) عرفت بأن قوات الامن تلقت ايعازا لأن يغلب الاخوان على امرنا إلا كيف لهم أن يكتبوا وسط جامعة القاهرة عبارةٍ كتلك، أيا ليت (عبد الناصر) يعود لزج بهم في السجون ويستأصل هذا البُهاق الذي شوه وجه مصر العظيمة.

لا يجيبهُ أحد، جميعهم قيد رجاءٍ ميت، مات ولم يعد، يقول اخر بصوتٍ عال: - رأيتُ بعيني سيارات أعدتها الحكومة لنقل الاخوان المسلمين من كلية العلوم الى القاعة الكبيرة

في جامعة القاهرة وكان واضحا للعيان كيف لم يتدخل أي فردٍ من قوات الامن وقتما اتهموا مؤتمرنا بالكُفر والإلحاد وشرعوا بضربنا بعدما هتف (رؤوف) بأنهم دُمى تُحركهُم خيوط من خارج البلاد.

كانت مصر آنذاك تميل نحو التدين، تبنى الرئيس احدى تصريحات رجال الدين حين عزى اسباب انتصار (إسرائيل) في اخر حربٍ لنا معها هو التزامها بدينها وعوّل في المقابل الى ابتعاد مصر من دينها ابان الحكم السابق وما زالت، اضحينا وقتها نرى (السادات) يُصلي في الجوامع ويلتقي مشايخ الدين، هُمِش اليساريون أو الناصريون كما كانوا يسمون انفسهم، إلا أنهم لم يكونوا يرومون لمُعارضة الحُكم بصورةٍ علنية، التزموا الصمت على الساحة السياسية واكتفوا بكتابة المقالات والاعتراض بين الحين والآخر بتظاهرات او مسيراتٍ مقتضبة إن صح الوصف، كانت جميع القوى السياسية ودول الجوار تُراهن حول توقيت ساعة الصفر للحرب القادمة، كانت الحرب الشغل الشاغل للجميع، الجميع كان يسأل، متى ترد (مصر) كرامتها؟ كأن الكرامة تعود حين يستشهد الجندي ويترك اطفالاً يتضورون جوعاً في بلدٍ لم يقدر على انشاء مؤسسةً ترعى شؤون المقاتل الشهيد من بعده، سُلِبت ارضاً لنا في صحراء (سيناء) بالفعل، ولكن لمَ الوثوق بأن من بين جميع الخيارات كان أفضلها الحرب.

أؤمن بأن السياسة تُعرّف بثلاثة اشكال، الأول: (الممكن في زمن الممكن)، والثاني: (المستحيل في زمن الممكن)، والثالث:(الممكن في زمن المستحيل)، رأى العالم اجمع كيف كان التعريف الثالث السبب الاقوى لأنهاء (الاتحاد السوفيتي)، كيف تزمت رئيس الاتحاد السوفييتي (غورباتشوف) سياسة الممكن في زمن المستحيل لتضمحل دولته، أما الدول العربية فأنها كانت وما زالت تتبنى التعريف الثاني، سياسة المستحيل في زمن الممكن، تود الحرب واسلحتها صدئة، تتمنى التغلغل في ارض العدو وجندي في جيشها يتضور جوعاً ويشكو نقصا حادا في تجهيزاتهِ العسكرية، تتمنى حرق ارض العدو ومدى قذائف دباباتها اقصر من مدى ما كانت تحلُم وتتمنى، تذيع وسائلها الإعلامية اخبار الحرب الخبر تلو الاخر بالانتصارات المتلاحقة وطيران جيشها لا يتمكن من التحليق عالياً ليرى النصر بشكلٍ اوضح، تُعاني كل الدول العربية في ازدواجيةٍ في المواقف السياسية، تارةً تهاب (إسرائيل) وتصنع افلاماً وثائقيةً عن مساعيها في امتلاك السلاح النووي وتارةً تهتف «إن ينصرنا الله فلا غالب لنا».

سياسة الممكن في زمن المستحيل باءت بالفشل ولم يقوَ الرئيس (السادات) على الاعتراف بذلك، قرر دخول الحرب وتوهم النصر المؤقت، كان خوفه من ازدراء الشارع المصري لقيادته سبباً لذلك القرار، والدليل؛ اختلاف نهج

سياسته بعد ذلك، كأنه قَبِلَ شيئا على مضض من اجل شيء نفيس، والمضض يكمُن في ايمان المسلمين بوجوب عداء اليهود، كان من المُحال في وقتها أن يُفكر السادات بهدنة او تهدئة مع اسرائيل، لكن بحنكته السياسية تمكن فيما بعد بجعل المستحيل ممكناً، عمل حثيثاً وبذل كل جهده ونجح في زرع شجرةِ السلام وواضب على الاعتناء بها، وفي الوقت الذي قام به الاخوان المسلمون لتكسير اغصانها كانت قد اثمرت، وقُطِفت ثمارها ولكن بعد اعوامٍ عِدة.

اقفُ خلف كواليس وارى تناحر اراء الجمهور الحاضر في المسرح، كان بين مؤيدٍ ومُعارض، لا يُثير انتباهي غير (شريف)، يجلس مُنصتاً، مُتكاتف الايدي دون ان يرمش لهُ طرف، احملق فيه مُحاولةً ترجمة إيماءات وجهه، اراقبه، أراقب حركاته، أقف امامه كطفلةٍ صغيرةٍ لها من العُمر ثلاثون عاما، ملامحها لا تتغير وأخطاؤها الاملائية لا تتوقف، لها يدان صغيرتان ورأسها مملوء بعباراتٍ لا يُمكن شرحها لعُلماء الفلسفة، أُحاول ابتلاع عتمة كبيرة تُغطي سماء الكون، ثمة تساؤلاتٍ كانت عالقةً في حُجرتي، ظلي مكسورٌ على الحائط لأنني خنته، كلا، لم اخنه، التهمني شَرهُ العِشق فحسب، أقف امامه ومن رئتيّ يخرجُ الزفير مالحا، مُرا، يشوبه انين مريضٍ لا يستطيع ابتلاع علاجه، اسخر من تعاويذ الغُفران، اقضم بأسناني اظافر عمري القادم، زمانٌ مُغمى عليه على طاولة العدم يُمسِك بيدهِ شمعدان

الظفر بما نال بعد انتهاء اوانه والوانه، جائعةٌ بشهية ذئب ولا حَمَل سواي وانا في رياض خيبتي وقلقي، أتذكر بأنها ساعات عجاف وستنتهي هذه المأساة، ارتشف كأس الندم ويداي خاليتان، كُنتُ سأتوسد كتفه بدل ذلك الخيال، بدل حياتي الاخرى تلك، لكنها المسافة.

يسود الصمت أُذنيّ، اتمعن زوايا المسرح وانا من خلف كواليسه، لا اكترث البتة بذلك النقاش السياسي العقيم، كيفما يكن فلن يكن حال بلادنا أحسن حال من الان ومن قبل، نحنُ في البلاد العربية تمضي أيامنا على الدوام نحو الاسوأ ولذلك نحن على مر الزمان نتغنى بأمجاد اجدادنا.

اصمت، فتسألني (ياسمين) عن سبب توقفي عن الحديث، أحاول اختلاس برهةٍ من ذاك الزمن، تجمعني به، تغرب طاولة الاجتماع تلك عن ناظري، يُحذف الممثلون واحداً تلو الاخر، فأحدثها عن مساءٍ سبق ليلة عرض المسرحية التي كانت من اختياري، اقتبستُها من رواية قرأتها، أحببت فيها شخصيتين نؤدي ادوارهما معا أنا و(آسر)، غادر الجميع وبقينا على المسرح وحدنا نراجع النصوص ونتدرب على أداء الدورين، فجأة، مسك بيدي من معصمها واخرج من جيبهِ وثاقاً اسود اللون وضعهُ حول عيني، سار بي الى خشبة المسرح وهو يقول لي كلماتٍ قُطوفها دانية، شممتُ رائحة الجنة، كان قد اعد لي مُفاجأةً صغيرةً، رأيتها حالما رفع الوثاق عن عيني،

رأيت اللوحة التي رسمني بها بيته، بعد أن ابحرنا نحو الغرق، اكمل رسمها واهداها لي، رسم جسمي بأدق تفاصيله، طول شعري، شكل جلوسي وقتها، سألني إن كانت اعجبتني، فأخبره بأنني لم احظَ من قبل بلحظات سعادة مُروعة بهذا الشكل.

وضع الوثاق على عينيهِ ومد يده وطلب إليَّ ايصاله الى آلة البيانو التي في المسرح، فعلت ذلك، جلس فيما اتكئ أنا بيدي على كتفه، بدأ بالعزف والوثاق حول عينيه، عزف دقائق متواصلة ثُم توقف، سألني عن اسم المقطوعة التي عزفها ولم أجبه، ما كُنت اعرف الكثير عن الموسيقيين، ملكتني دَهشتي لجمال عزفه ومَحقت ارتكازي، أزال الوثاق من عينه ووعدني بأنه سيجعلني اتقن العزف في أقل من عام، كان عزفه جزءاً من اعمال العازف الفرنسي (Claude Debussy) الأوركسترالية، كان اسمها (البحر)، كتبها في صيف عام ١٩٠٤ عندما ترك زوجته بعد أن استفزها لتُحاول الانتحار ثُم هرب مع عشيقتهِ.

ووسط هدوء المسرح بعد صمتنا لوهلة، نسمع صوت اقدام تسير نحونا على المسرح، نركض مُسرعَين لنختبئ في أحد الأركان، ركض (آسر) ليُطفئ الضوء الخافت الذي كان يضيء اللوحة التي رسمها، انعكس ضياء القمر من شباكٍ عال في المسرح فظهر ظل رجل يرتدي معطفا اسود، وقف وسط المسرح، تلفتَ يميناً ويساراً، نظرتُ إليه خلسةً

وانا اخرج جزء من وجهي لأتمكن من النظر إليه بعينٍ واحدة، يمسك (آسر) بيدي بقوةٍ ليمنعني من فعل ذلك، كتمنا انفاسنا ونحن في ترقبٍ تام لوجه ذلك الدخيل، انعكس الضوء على وجهه مع التفاتته، فرأيتُ (شريف) واضعاً يديه في جيوب معطف، كتمتُ انفاسي بكف الندم، نظرتُ بوجه (آسر) والذُعر ينهمر من عيني، يُحرك رأسهُ إيماءً بالتساؤل عن ماهية ما رأيت لأُصاب بهذا الذُعر، تمهلتُ قليلاً لأخبرهُ بأنهُ زوجي، سمعتُ أصوات اقدامه وهي تتجول في دهاليز المسرح، همس (آسر) بأذني لأسير ببطء خلفه، خرجنا من الباب الخلفي للمسرح، أوقف مُسرعاً سيارة اجرة وأوصاني بصوتٍ خافت أن اذهب إلى منزلي قبل وصول (شريف) وسيقوم هو بتأخيره، سألني عن نوع سيارتهِ وأوصافها دون أن اجد الوقت الكافي لأسأله عن السبب، صعدتُ الى سيارة الأجرة واخبرتُ السائق عن عنوان منزلي بصعوبة بالغة، أرى (آسر) وهو يلتف راكضاً من حول بناية المسرح، اراهُ جلياً في جَدبِ ايامي سَحابةً ماطرة، أراهُ في فم امي دعوةً مُستجابة.

وصلتُ الى المنزل قبله، زالت رعشة يدي ونلت من السكينة بعض الشيء، فكرت كثيراً في الأسباب التي دعته إلى الدخول الى المسرح والبحث عني بهذه الطريقة، لم اجد سوى ادغال الشك التي باتت تنمو في رأسه بعدما اعتدتُ العودة الى المنزل بوقتٍ متأخر،

دخلتُ مسرعة وغيرتُ ثيابي بأُخرى تنال رضاه، ارتديت ثياب النوم كأنني كُنت بانتظاره والشوق يأسرني، بادرت لأجهز طاولة عشاء بأطباقٍ يسيرة التحضير، اوقدت شمعتين كاذبتين تدعيان الحُب، وجلست بانتظاره، كنت مطمئنةً من الخدم وحارس الباب، هددتهم بالسجن ما إن أخبروا (شريف) يوماً عن خروجي في الليل.

دخل مُسرعاً فرأى انتظاري والوقار المزيف الذي كسوت به وجهي، ابتسم كأنهُ انتصر في الحرب على ألدّ اعدائه، فرح لأنه انتصر على شكهِ بيقينٍ واهن، القى عليّ تحيتَهُ بدفء، رأيتُ يدَهُ مُتسخة، سألتهُ وهو يدخل ليُغير ثيابه عن أسباب ذلك فأجابني بأنهُ وجد احدى عجلات سيارته مطعونةً بسكينٍ صغيرة، ولم يجد من يساعده في الشارع فقام بتغييرها بنفسه، كَذب عليّ، مثلما اكذبُ عليه، لكلينا كان كذبته، إلا أن احداهُن كانت لا تُغتفر، نجوت بأعجوبة، إلا أن قلبي ظل يخفق الدم الأسود.

صرت أرى الجدران من حولي كلهن مرايا، أرى وجهي في كل الجهات يضحك متفاخراً والقوة تعتلي ملامحه، كأنني ركدتُ من بعد بركان، ما كُنتُ اعلم سبب تلك القوة التي امتلكتها، سبب الطمأنينة وعدم الشعور بالذنب، لم اعرف ما الذي آل إليه حالنا لأكون بذلك الوجه، شرود الذهن وقت الصلاة، أم فُقر اسرَّتنا، التيه، المسافة، الألم الحائل بين ما نشعر وما نقول، لم اعلم.

رجوعه المرتبك دفعه لترك اشيائه مبعثرة، مفتاح سيارته، ساعة يده، حقيبته، الغريب كانت مفتوحة، اعتاد إحكامَ اقفالها مُدعياً احتواءها على اوراقٍ تخص على عمله الدبلوماسي ولها خصوصيتها، دفعني الفضول لتفتيشها، وجدت اشرطة تسجيل صغيرة جداً لم ار منها من قبل، تشبه تلك التي تُستعمل للتجسس، واوراقاً كُتبت بخط اليد واوراقاً أخرى بقيتُ اقلبها وبالكاد اقرأ فحواها، اسمع صوته وهو قادم فأغلقها على عجل، كانت اخر ورقة تحمل اسمه، كانت من مشفى او عيادةٍ طبية، لم يكن لديّ الوقت الكافي لأعرف فحواها ولمَ يحتفظ بها في حقيبته.

اموت ميتاتٍ كثيرة، تقيم الكآبة في رأسي حفلاً لفنونها، اسمع بأذنيّ اصواتاً شائكة تخدشها وتخرج الدماء، صوت موسيقى لم اعرف كتاباتها، أمام عيني عبارات تُجبرني قراءتها على اشعال السيجار، ثُم أرى لوحة، تَرسم الكآبة غُراباً اسود في رأسي فأراهُ طاووساً، أصرخ بملء فمي دون أن يسمعني أحد حتى اكتشفُ بعدها أنني لم أصدرْ صوتاً، أكتبُ اسمه في ورقةٍ صغيرةٍ ثُم أقبضُ عليها بكف يدي لئلا أشعرَ بالبرد، اهوى بجسدي بصدى مُدوٍّ على رُكام الحُزن، كُنا أنا والحُزن اخوين بالنشأة حتى فرّقنا وجهه واسعدنا صوته، اخذني بعيداً منه، أخاف أن اصدق نفسي بأنني بهذه الصلابة وأنا اعلم كم أنا هشّة.

يجيء (شريف) وانا كنتُ قد أعدتُ كل اشيائه المُبعثرة

كما تركها، ينظرُ إلى طاولة العشاء ذات الشمعتَين ولسريرنا رمادي المشاعر، الفراغ يجوب المكان وكرسي انتظاره ابتر، آخذُ بيدهِ واستلقي على السرير، اهوى الى الخلف كأنني ارجع الى الوراء من سطح مبنى عالٍ، أغوص عميقاً في فكرةٍ قرأتُها ذات يوم لطبيبةٍ سويدية مُختصة في علم النفس تُدعى (إليزابيث كوبلَر روس)، فكرةٌ منحتنا بموجبها إجابة لسؤالٍ سليط، كأنها تضع لنا سُلماً ذا زخارف زرق يصل الى السماء، تُقسّم هذه الطبيبة مراحله (الصدمة) التي نَمُر بها على خمس مراحل تتلو احداها الأخرى وهي (الإنكار، الغضب، المُساومة، الاكتئاب، التَقبُل)، اجدُ نفسي وهو يحتضنُني في المرحلة الاخيرة منهن.

ما زال الصبح، وما زالت (ياسمين) تجلس امامي والدهشة تمتلكها، التفت إليها فأجدها تجلس كما اول مجيئها، لم تُغير شكل جلوسها من شدة الدهشة، تجلس على كرسي امامي وتتكئ بمرفق يدها على ركبتيها، وبعد الصمت والتفكير لثوانٍ، تقف (ياسمين) وتُشير بيدها الى جدارٍ في صالةِ مسكننا، تلتفت إليَّ وهي لا تقوى على السؤال فأعرف ما تريد قوله، أُومئ برأسي للاجابةِ بنعم عن سؤالها.

كانت اللوحة التي رسمني بها (آسر) مُعلقةً على الجدار داخل الشقّة، احتفظتُ بها طوال تلك السنين، وما زلت اتأملها في كل صباح.

(٣)

أستيقظ عند الصَباح كسولةً هذه المَرة، بالكاد أبتسم، بِالكَاد غنت الطيور وزهرة الحقل تَفتحت في وقتٍ مُتأخر، افتح عيني وأنا في فراشي، مُستلقية على ظهري وعيني تتأمل سقف تلك الغرفة، أخاف من أن أضع وجهي اتجاه وجه الرجُل الذي ينام بقربي وهو يضع يده على كتفي اليمنى لئلا ينتابَني ذاك الألم الجميل المُعتاد، ثواني أفكر فيها جاهدةً لأتذكر ليل الامس، هل قضيتها برفقة زوجي؟ أو برفقة (آسر)؟

اسأل نفسي فأجد الإجابة مُخبأةٌ في دقات قلبي المُتسارعة، أجد فرحةً مضمورةً في احشائي وأنا اترنح بين رفع اجفاني او إبقائها مُغلقةً مغمورةً بتلك السعادة، تمنيتُ لوهلةٍ خلاف ما دُمتُ أتمنى، لعلَ تلك الفرحة تغمرني وأنا على فراش زوجي، وأنا بقلبٍ لا ينبضُ لغيره، وما إن اخذت شهيقاً عميقاً عرفت بأنَ تلك السعادة كانت لشقيق النبض (آسر)، ذاك الذي إذا تأخر في الاستيقاظ يتأخر الضوء عن دروسهِ في الصَباح، وما إن استيقظ نامت أعمدة الإنارة في الشوارع.

عرفت اني كُنتُ برفقتهِ ليل الأمس، أُدير وجهي ببطء لأجده لا يزال نائماً، أبتسم فرحاً لأنه ما زال يعشقُني، كنتُ أخاف شديد الخوف لئلا يرحل عني،

كان يغضب لو أنني أشك في وفائهِ لي، ولكن كيف! وكل الذين يغضبون من الشَكِ في وفائهم يرحلون.

اندفع نحوه، اغرز رأسي في صدره واغمض عيني ليستمر ليل الامس، اضع رأسي على صدره الذي تطير بداخلهِ الفراشات ثُم احتضنهُ بكلتا يديّ، كنتُ اختبئ فيه لو ارعبني العالم ليبدل لي صوت الرعد بموسيقى الجاز، كنتُ احلم بهِ كثيراً، خاصةً بعدما قرأت يوماً عبارةً بدأ بها كاتبي الذي اعشق كتاباته أحد فصول روايته قائلاً: «الحلم في متناول يد الجميع، إلا أولئك الذين لا يحبون الموسيقى»، ثُم بقلبٍ اخضرٍ وطريّ؛ اكتم انفاسي واقفز في بئر حنانهِ، اختنق بذلك الدفء المكنون بين ذراعيه، مكثت حتى تماديت في عناقه، غفوتُ لثوانٍ ثُم فتحت عيني، أرى (طارق)، أنا وهو على المسرح في مشهدٍ يحل محل (شريف) لنصور الجانب الأكثر آسى في حياتي، النوم رفقة، إلا أن حِلم اليقظة كان ذاك قد هوّن الكثير من ذلك الآسى».

نهضت من فراشي بهلعٍ كبير، كجندي استيقظ من نومهِ ليجد نفسَهُ في ثكنة العدو، نظرتُ الى السقف، الى الجدران، لفراشي ووسادتي، تأكدت بعد اخذ نفسٍ عميق بأنني كنتُ ليل الامس في بيت زوجي (شريف)، كان حلماً جميلاً في غير اوانه، اسمع أصوات اقدام تجيء نحو غرفتي، تقترب من الباب، أرى مقبض الباب يتحرك ببطء، خيل لي شِكل غرفتي حين كنتُ صغيرة، إذ كنتُ في مثل هذا الموقف لمئات

المرات وعلى مرِ سنوات، وقتما كنتُ استيقظ على الفزع كل صباح خوفاً من أن يهجم عليّ ذلك الذئب الذي تزوجته امي، عانيت سنواتٍ من ذلك الكابوس البشع، اغمضتُ عيني وصرت اصرخ بصوتٍ قديم لطالما صرخت مثله، يفزع منه (شريف) فأخبره بأنه كان كابوساً وانتهى.

كذبتُ عليه، ما زال وسيبقى كابوس الحرمان والندم والأسى يُلاحق منامي طوال حياتي، انهض فأقول له: «صباح الخير»، وأنا ابحثُ حثيثاً في قاع ذاتي عن الشعور إتجاه الاب، كنتُ اظن بأن السنوات التي يكبرني بها ستكون الكفيلة لأن تمنحني شعور الزوج والأب في آنٍ معاً، الحب والأمان في وقتٍ واحد، تزوجته طمعاً مني في أمان الاب الذي افتقدته والحب الذي لم اعثر بهِ من قبله، إلا أنني عُدت ادراجي والخيبة وشاحٌ يلتف حول رقبتي.

ادركتُ بعد تجربتي معه بأن السطحيين لا تليق بهم الأعماق، حتى خُنتُ صَمتي وبدأتُ بالهمس، حتى اتكأتُ برأسي على صدر غيره لأجد الملاذ الآمن من جشع الانوثة وفرطها، ليأخُذني على محمل الاستثناء لأنني لا اشبه البقية، لم تبق لي أصابع بها اتمسكُ به، اكلتها وأنا بانتظارهِ يتغير، بانتظارهِ يدرك بأنهُ تزوج امرأةً من على المسرح، تعلم جيداً فحوى الإحساس وتحفظ عن ظهر قلب جميع تعاريفهِ التي تضمُها معاجم اللغة، كنتُ اريده على طريقتي، فطريقته لا تستحق الاهتمام،

كنت أظن بأنني سأجده حبيباً مخلوطاً بحنان الاب لوجود بعض الشَعر الأبيض في رأسه، ظننتُ بأنني سأجد فيه ذاك الذي رحل عني وهو يخبرني بأنهُ سيجلب لي بعض الدمى والإلعاب التي احبُها، أوصاني بألا اقلق بشأنه، قال لي بأنهُ سيعود وأن عليّ انتظاره فحسب، هناك عند باحة باب بيتنا الذي تراودني تفاصيله في منامي، مرت الساعات، الأيام، السنوات، وانا انتظره بفارغ الصبر إلا انهُ لم يعد، أبي ذلك الإنسان الذي خلقته بأحلامي وما زالت كلماته مُعلقة في أُذنيّ، كان قد اعتاد اخذي الى منتزهٍ قريب من منزلنا، كان يُحدثني عن الشجر الذي فيه وعن اتجاه الريح، يحدثني عن الطقس وكيف يتغير، ارفع اصبعي الى الغيم، فيشرح لي جيداً أسباب تكونه وأسباب اختلاف احجامه، كان يعرف موعد هطول المطر فيجعلني اعود الى البيت برفقته قبل آوان عودتنا، كان يعرف كل أنواع النباتات ومُسمياتها، أنواع اليرقات التي تقتات على اوراقها، كان ابي على اطلاعٍ تام بكل ما يُحيطه، إلا موعد وفاته.

بعد أن ننهض من سريرنا، على المسرح يقف (طارق) أمام المرآة ليربط ربطة عنقه، ينعم النظر في اشيائه على الطاولة بعدما تركها مبعثرة ليل الامس، أفكر وأنا على مقربةً منه بخطةٍ لاقتحام حقيبته، إلا أن القدر يتكبد عني عناء التخطيط، يأخذ مفاتيح سيارته ويبحث عمّا تبقى فيمسك مجموعة أوراق تضمنت نص مسرحية ارسلتها إليَّ

(ليـلى) لأقـرأ الـدور المقـترح لي، يسـألني:

- ما هذا؟
- مسرحية لم اقرأها بعد.
- وكم يكون اجر دورك فيها؟
- ومنذُ متى اسأل أنا عن الاجر قبل قبول الدور فيها؟
- أسـأل عـن ثمـن الجهـد الـذي سـتبذلينه في القـراءة والتـدرب والتمثيـل.
- ذلـك الجهـد هو هـدف جميـل وسـامٍ، وإن فكرت في ثمـنٍ لـه فلـن يكـون سـامياً.
- الأهـداف الجميلـة في كـرة القـدم فقـط. (يقـول ضاحـكاً مُسـتهزئاً)
- اقصـد الأهـداف التـي تُعنى بإصـلاح النـاس وليس بمتعتهـم كـما في كـرة القـدم.
- أزعجتـكِ مُزحتـي، أليـس كذلـك؟ (يقـول وهو يهم بالخـروج)
- كلا.
- هـل تعلمـين ان ثمـن الثـوب الـذي اهديتُـكِ إيـاه مسـاءالجمعـةالماضيـةيفـوقالايـرادالشـهريلمسرحكـم؟
- اعلـم، لكـن كـما تعلـم، لرفقائـي وظائفهـم الثابتـة وأن العمـل في المـسرح لعـرض واحـد او عرضـين خـلال الشـهر ليـس بدخـلٍ يُعتمـد عليـه.
- لم اعـرف احـداً مـن رفقائـكِ سـوى (ليـلى)، ولـولا

زيارتها لنا وترجيها لمشاركتهم عروضهم لما سمحتِ لكِ بالعودة الى المسرح، ذكريني يوماً لدعوتهم الى العشاء في منزلنا على سبيل التعارف.

- نعم، سأرتب الامر لذلك.

- انا ذاهب للعمل، اقرأي النص وحدثيني عنه مساءً، وتذكري جيداً اننا في زمن المال، وان المبادئ حرمت الفلاسفة من تذوق اللحم.

يهُم للخروج فيحمل حقيبته ناسياً إحكام اقفالها، يرفعها من على الطاولة فتنفتح وتتناثر محتوياتها على الأرض، أنحني معه لأجمعها فأمسك بأحدى الأشرطة، واسأله:

- هل هذه شرائط تسجيلٍ للصوت؟

- نعم، لكنها ليست لي.

- لمن هي إذن؟

- لزميلٍ لي في العمل.

- وهل يتطلب عملكم التجسس؟

- هذه ليست للتجسس، انها لتسجيل لقاءات الدبلوماسيين الأجانب في اجتماعات الوزارة، كما انها ليست لي ولا أعلم ما فحواها. (يُجيب بهدوءٍ مُتَصنَع)

- لم اقصد شيئا، عَجبتُ لحجمها فحسب. (اقولها بلطفٍ يدّعي الأسف)

يخرج مُسرعاً من دون ان يُلقي عليّ تحية الوداع، كانت

الساعة السابعة من صباح يوم مشرقٍ وكان من المتوقع ان يشهد درجة حرارة مرتفعة، عُدّت الى فراشي بعد ان رفضت تناول افطاري حينما نادت عليّ الخادمة بأن الإفطار جاهز.

ابدأ بقراءة السيناريو الذي كُنا نستعد لتقديمه بعد شهر، تدور فيه الاحداث حول التناقض الفكري والعقائدي بين التيارين الدينيين السائدين آنذاك، التيار السلفي والتيار المُعتدل، ويُشار اليه (بالمعتدل) ليس من قَبيل العدالة وإنما مُعتدلٌ عن التشدد المضمور بالدين في كل عصوره، تيارٌ يأخذ من كل عصور الدين الواجب من الفرائض ويترك ما يتعلق او يتطرق لفرض الدين جبراً على البشر، أو بمعنى اخر يهتم بتعريف الدين بأنهُ علاقة العبد بالرب وليس علاقة العبد بالعبد، اتصل (بليلى) عبر الهاتف بعد انتهائي من قراءة السيناريو، اخبرتُها برفضي للتمثيل في ذلك الدور في الوقت الذي ظلت فيه تشرح اسباب اختيارها له وكيف يتحتم على جيلنا السعي للحد من التشدد المنتشر آنذاك والقضاء عليه ودعوة الجيل الناشئ لليقين بأن التوجه نحو العلم وبناء الوطن اسمى من البحث في تاريخنا عن أي الشخوص الدينية المتنازعة على الحكم قديماً كانت على حق.

امسك سماعة الهاتف بيد وباليد الاخرى اقلب أوراق السيناريو وانا اضعه جنب الهاتف، أفكر في (آسر) ومدى رفضه للظهور بأي دورٍ ديني او يسعى الى التدين، اترنح

بين الرفض ومراجعة السيناريو والتفكير مجدداً، حتى تخبرني بأنها تُفكر في سيناريو غيره في الأيام القادمة بذريعة أن الأدوار لن تكتمل ما إن رفضت أنا و(آسر) رفضه مساء الامس، اضع سماعة الهاتف ثُم أقف على قدم واحدة، التف دورةً كاملة فرحاً، كأني طفلةٌ تتباهى بثوبٍ جديد، كانت الغِيرة ستقتلني لو رأيتهُ على المسرح يؤدي دوراً مع امرأةٍ غيري.

التفت فيتغير ديكور المسرح بثوانٍ، سلك مخرج المسرحية طريقة غريبة في دمج المشاهد لايصال روح النص لجسد المُتلقي، التفت فأكون في غرفة (آسر) في ذات الصباح، اسير من موضع الهاتف الى سريره، ادير وجهي لكل الجهات، اكاد أُسابق الطيور من شدة الفرح، الفرق شاسع جداً بين ما أكون هناك، او هنا، وفي كلا الحالتين، كنت اراوح مكاني والزمن يمضي ويقحم خطوط الشيب في رأسي، الأشياء كلها بألوانٍ زاهية، الشمعدان لم يزل مُحتفظاً بالشمع وُينير صباحنا بدل الشمس، الجدران مملوءةٌ بالرسوم الفرعونية الخلابة، الرموز الهيروغليفية في الاركان، كل شيءٍ مُضيءٍ، كأنني وسط منجم من الذهب، شعرت في وقتها بأنني املك ما لم يملكهُ أحد، املك اغلى ما في التاريخ، الآثار، المنحوتات، أولى الكتابات، اول عجلةٍ في التاريخ، املك ما لم تملكهُ دول الاستعمار التي بَنت امجادها من عظام الفقراء لتجلس وسط (مجلس الأمم) لتتحدث عن الديموقراطية التي

تتبعها مع شعوبها وحجم الإنسانية التي يتصف بها قادتهم.

ينهض (آسر) من سريره ويجلس على الطاولة، امامه أشياء مبعثرة، أقلام، أوراق، الوان، رسومات الكاريكاتيرية، اجلس عل الطاولة برفقته فاجد رسماً كان قد انتهى منه ليل الامس، رسمَ رجلاً يرتدي بزةً سوداء برأسٍ بشكلِ الكرة الأرضية كتب فوقه للدلالة عليه عبارة (دول الاستعمار) يمسك بيده سلسلةً حديدية تنتهي لرقبة كلبٍ اسود ذي فك كبير وأنياب طويلة كتب على ظهره (الحصار الاقتصادي) يقف متأهباً أمام رسمٍ يُجسد الرئيس يجلس القرفصاء متكاتف الايدي خائفاً والعرقٍ يصب غزيراً من جبينهِ.

أنعمت النظر في الرسم، قرأتهُ من وجهةِ نظرٍ سياسية، ثُم اقتصادية، ثُم من وجهةِ نظر دولية، فوجدتهُ على حق فابتسمت، ثُم تذكرت بأنني مصرية الجنسية فغلب على ملامحي الحزن، فالرسم الكاريكاتيري نقداً للسياسة بطريقةٍ ساخرة، ولطالما ان السُخرية مدعاةٌ للضحك، فأن الضحك لمن يرى الكاريكاتير شيئا بديهيا، إلا لمن يجد فيه مأساة وطنه، لأن حينها تكون سخرية الكاريكاتير مدعاةٌ للحزن فقط.

كان قد تنبأ أن مصر في تلك الحقبة الزمنية كانت تواجه تياراً من التدخلات الخارجية، ظهرت من خلال تصريحات وقرارات الرئيس، أراد الإشارة إلى أن قرارات مصر المتخذة وقتها لم تكن على وفق إرادة الرئيس،

بـل اتخذهـا لأنـه امتثـل خائفـاً للضغـوط والتهديـداتِ الخارجيـة، وإلا فسـينال الكلـب المسـعور منـه ويلحـق الـضرر بـه.

أنعـم النظـر في وجهـه، عَبثـاً أركـضُ في مـزارعِ الزيتـون، ثُـم انظُـر في عينيـهِ عميقـا، كأنَ مـن ناظـري تخـرجُ مِـن فَـرطِ التَحديـق يَـدا، اسـأله:

- لمَ رسمت الرئيس بهذا الشكل؟
- لأنهُ بهذا الشكل.
- أقصد لمَ تقول بأن دول الاستعمار تُهددنا بالحصار؟
- لأنهـا تُريـد منـا ان نتناسـى الحـرب مـع (إسرائيـل)، وأن نُهـوّد سياسـتنا الخارجيـة.
- نُهوّد!؟
- نعـم، نُهـوّد، أي نكون على شـاكلة اليهـود، أن تكون السياسـة المؤديـة الى توثيـق علاقتنـا مـع دول العـالم هـي السياسـة المُثمـرة، بثـمار مصالحنـا.
- سياسة المكن في زمن المستحيل، أليس كذلك؟
- بالضبط.
- وهل هذا شيءٌ جيد؟
- كان ليكـون كذلـك؛ لـو كُنـا يهـوداً، إلا أننـا لسـنا كذلـك. (يقولهـا آسـفاً)

يتأفـف باحثـاً عـن علبـة سـكائره، يُشـعلُ واحـدةً وهـو يخبرني مـن خـلالِ عـدة قُصـص وحـوادث عـن دهـاء اليهـود في التأثير

في السياسة الاقتصادية والمالية في العالم على مدى القرنين المنصرمين، يخبرني بأنهم اذكى شعوب الارض في السياسة، وانهم أكثر شعوب العالم تشبُّثاً بطلب العلم، وأن فئةً منهم كانوا أقل من اولئك دهاءً طالبوا بقيام دولة (إسرائيل)، كان مؤمناً بأنهم اقيام ما تقيأت دول اوربا منهم وما منعت (الولايات المتحدة الامريكية) من اللجوء إليهم للحقبة ما بين ١٩٢٤ حتى عام ١٩٤٨ بسبب سَنَهم لقوانين الهجرة خاصتهم آنذاك، وأن اشدهم حباً وانتماءً اليها اولئك الذي هُجِروا وسُلِبت حقوقهم من بلاد العرب.

وادٍ عميق، هكذا يصفُ لي الفرق بين معنى أن يكون الانسان يهودياً وأن يكون إسرائيلياً، بين من رأى منهم بأن اليهودية دين ومن كان يراها عِرقا او قومية يجب ان يجمع ابناءها وطن، أُصدقُ ما كان يصور لي وانا استذكر مقالاتٍ جمة ليهودٍ لم يرضوا بالانتماء الى (إسرائيل)، وأن كل دول الاستعمار التي أشار إليها في رسمه اصبحوا من بعد منح الصفة الدولية لوجود إسرائيل من خلال (اعلان بلفور) يرتدون ربطةَ عنقٍ إسرائيلية.

يضرب برفق بسبابةِ اصبعهِ على الطاولة ويلوذ بالصمت، ثُم يقول:

- من المُسلَم به، ان المسيحية ديانة يترنح اتباعها بين معتنقٍ لها في وطنهِ أياً كان ومن كان سعيداً لنشوء

دولـة (الفاتيـكان) التـي تُمثـل الوطـن الاب والأرض الام للشـعب المسـيحي، يتريـث في مواصلـة حديثـه، تعمـدتُ بالإشـارة الى عبـارة (وطـن قومـي) للمسـاواة مـع مـا نَـصّ عليـه (اعـلان بلفـور) بالرسـالة التـي بعثهـا وزيـر خارجيّـة المملكـة المتحـدة (آرثـر بلفـور) إلى اللـورد (ليونيـل دي روتشـيلد) أحـد أبـرز أوجُـه المجتمـع اليهـودي البريطـاني في الثـاني مـن تشريـن الثـاني عـام ١٩١٧ والـذي كتـبَ في سـطرها الأول: «تنظـر حكومـة صاحـب الجلالـة بعـين العطـف إلى إقامـة وطـن قومـيّ للشـعب اليهـوديّ»، فـما الفـرق بـين الديانتـين؟ لمَ قـادة الـدول المؤثـرة في العـالم في تلـك الحقبـة الزمنيـة وقتـما أرادوا انشـاء وطـن قومـي للمسـيحية وضعـوه في العاصمـة الإيطاليـة (رومـا)، ووقتـما أرادوا انشـاء وطـن قومـي لليهـود اختـاروا (فلسـطين)؟ وللمسـيحية جـذور عميقـة في القـدس ومعـالم واضحـة كـما الديانـة اليهوديـة مـا إن فكـر احدهـم وبقـول ان الصلـة بـين اليهـود والقـدس أكثـر وثاقـةً مـن صلـة المسـيحيين لها، والسـؤال الأهـم، لمَ تنـازل زُعـماء المسـيحية عـن الأرض الأجـداد مقابـل مسـاحة لا تتجـاوز (٤٤٫٠) كيلـو مـتر مربع في دولـةٍ حديثـة النشـأة مقارنـةً بتاريـخ نشـأة ديانتهـم؟ هـل تعرفـين مـا للديانـة المسـيحية في فلسـطين؟ والدلائـل جميعهـا مـن الاناجيـل وهـي تـسرد صلـب (اليسـوع)؟ لهـم كنيسـة (القيامـة) الواقعـة عـلى تلـة (الجلجلثـة) في احـدى ضواحـي مدينـة (القـدس) التـي يُحكـى بـأن اليسـوع تـم

صلبـهُ فيهـا، لهـم ضريـح يُقـال او يُشـار بأنـه ضريـح (مريم العـذراء)، لهـم كاتدرائيـة (الثالـوث الأقـدس) وكنيسـة (كل الأمـم(، كاتدرائيـة (القديـس جرجـس) و)عليّـة صهيون(وكنيسـة (مريـم المجدليـة(، و(طريـق الآلام(، جميعهـا إرثـاً للديانـة المسـيحية في فلسـطين، لمَ تـم التنـازل عنهـا؟ لمَ الوطـن القومـي لليهـود يكـون وسـط دولٍ عربيـة تعتنـق الإسـلام الـذي يسـرد كتابـه المقـدس وتاريـخ نشـأته آيـاتٍ صريحـة وقصصـا واقاويـل تنـص عـلى كـره اليهـود ووجـوب قتالهـم؟ الامـر لا يقتـصر عـلى (وعـد بلفـور)، المسـألة بـدأت في القـرن الثامـن عـشر، وتحديـداً في شـهر آب عـام ١٨٩٧ حـين عُقـد اول مؤتمـرٍ انبثقـت منـه الحركـة الصهيونيـة في مدينـة (بـازل) السـويسرية، وسُـميت بهـذا الاسـم نسـبةً الى جبـل (صهيـون) في (القـدس) كـما ورد في سِـفر (الأشـعياء)، مؤتمـرٌ ترأسـه المؤسـس الأول للحركـة الصهيونيـة (تيـودور هرتـزل) افتتـح خطابـهُ قائـلاً: «أن هـدف المؤتمـر هـو وضـع حجـر الأسـاس لوطـن قومـي لليهـود»، بعـد أن كان المُزمـع عقـده في مدينـة (ميونـخ) إلا أن معارضـة اليهـود وحاخاماتهـم حالـت دون ذلـك، وفي منتصـف ذلـك القـرن ظهـر حاخامـان يدعيـان اليهـود لتمهيـد الطريـق (للمسـيح المنتظـر) بإقامـة وطـن قومـي لديانتهـم، ثُـم كتـبَ الفيلسـوف الألمـاني اليهـودي (موسـى هـس) في كتابـه (رومـا والقـدس): «أن المشـكلة اليهوديـة تكمـن في عـدم وجـود وطـن قومـي لليهـود»،

- هـل عرفـتِ الان المغـزى؟ لِمَ هنالـك يهـود يـرون اليهوديـة ديانـةً يتعبـد وفقهـا ويهـود يرونهـا قوميـة يجـب ان تجمعهـا وطـن؟

صفـق الجمهـور بحـرارةٍ (لآسر) ووقـف بعضهـم ليصفـق لـه، حتـى أنـا ومـن كان خلـف الكواليـس، لم ينتـهِ مـع انتهـاء دوره، طـرح أفـكاره الشـخصية وتكلـم بعلميـةٍ واسـتند إلى دلائـل، كانـت طريقـة النقـاش عـبر التسـاؤل أكثـر طريقـة تنـال اعجـابي في البحـث، يومـئ برأسـه ليثنـي عـلى تصفيـق الجمهـور واومـئ بـرأسي أنـا مـن ألم العيـش في المنتصـف، مـن ألم الكـون فكرتـين متناقضتـين في عقـلٍ واحـد يؤمـن بكلتيهـما، يذهـب (آسر) خلـف الكواليـس وابقـى أنـا عـلى المسرح، التفـت ذهابـاً للجهـة الأخـرى وديكـور المـسرح يعـود ليشـير لغرفـة النـوم في منـزل (شريـف)، اسـير مـن الجنـة الى النـار، اسـتلقي جنـب (طـارق) عـلى السريـر واضـع رأسي عـلى كتفـه،

لم يكـن بالحسـبان، ثـواني مـن الخيـال وسـط العـرض تجعلنـي اصمـت، اجـد شـعرةٌ مـن شـعرِ (آسر) تعلقـت بكتفي، امسـكها بيـدي وسـط ذهـول (طـارق) وبقائـهِ سـاكناً، لم يكـن ذلـك ضمـن مشـهدنا، أحـاول شـنق نفـسي بهـا فـلا يجـدي الامـر نفعـاً، احـصي وزنهـا فأعلـق عليهـا خطايـاي، احـصي مُجـدداً المغفـور منـه عـن غـيره، فأجـد خطيئـة تـؤدي بي الى الجنـة، خطيئـة الـشُرب مـن الميـاه الاسـنة عنـد الظمـأ، ثمـن صُنعـي خمـرا لم اتاجـر بـه، تنقطـع الشـعرة لثقـل مـا حَملَـت فيتحطـم

زجـاج وجهـي وافيـق مـن غفلتـي، التفـت (لطـارق) فأجـده يُغطـي نصـف جسـده ويظهـر بنصـفٍ علـوي عـار مسـتعداً للنـوم وعـلى حافـةِ انفـهِ نظارتُـهُ المُخصصـة للقـراءة، يمسـك كتابـاً بـين يديـهِ يُلخـص احـداث الثـورة الفرنسـية يُلمـح لي بحاجبيـه لأعـود الى النـص المسرحـي وأقـول مـا عـليّ قولـه، اعـود لتقمـص دوري عـلى المـسرح، اقـرأ بصـوتٍ مُنخفـض عبـاراتٍ اسـتوحتها هـذه الثـورة مـن الأفـكار الراديكاليـة والليبراليـة لوقـودِ نشـوبها وعـن اثرهـا الكبـير في تغيـير مسـار التاريـخ الحديـث، يرجـع الجمهـور لسـكونه بعـد التصفيـق، يسـألني (طـارق):

- منذُ متى وصديقتُكِ (ليلى) متزوجة؟
- متزوجة!!! (اجيبهُ بتعجب)
- حقاً؟! ألا تعلمين بأنها متزوجة؟
- كلا، نعـم، نعـم اعلـم، لكنهـا لم ترتـدِ خاتمـاً بيدهـا فلـم اسـألها حيـاءً. (اجيبـهُ بتلعثُـم لأنهـا تزوجـت سراً ولم تكـن تلبـس الخاتـم اطلاقـاً)
- كانـت ترتـدي خاتـم زواج في يدهـا اليُسرى، ولهـذا سـألتكِ عـن مـدة زواجهـا، وليـس عـمّا إذا كانـت متزوجـة أم لا.

يضـعُ الكتـاب بجنبـه فتسـود العَتمـة ارجـاء المـسرح، نغـرق معـا في بئـر بـرود مشـاعرنا المُعتـاد، اتـدلى بحبـل تلـك البئـر ودلوهـا يسـتقر في الأسـفل،

يلتف الحبل حول رقبتي ويشنقني، اموت ميتةً بشعة، ثُم افيق فأجد نفسي في قيد الحياة، لتستمر المأساة، مأساة الأرق وقلة النوم وقلة الحِيلة، مأساة النوم بحكم الهرب لا النعاس، مأساة الخوف من بزوغ فجرٍ غد يُشابه غدا سبقه، مأساة مجيء ليل الغد وأنا بذاتِ المأزق.

العتمة والسكون تلكُما، كانتا ابهى صور ليلي بعدما اقضمُ منه ساعات النوم وامضغُها بشراهة، صوتٌ يذهب ويجيء على مسامعي، صوت ضرب سوط الندم وهو يجلدني بضغث، ثُم صوت مأذنةٌ في صدري تُنادي لصلاةٍ بغير وقتها، حتى يهرع كل من في الجوار للبحث عن السبب، عمّن تجرأ على وضع التعديلات على الاحكام السماوية، كيف لهُ أن يُنادي لصلاةٍ بغير وقتها!! يمسكون بهِ فيطرحونه ارضاً وهو يتوسل لهم لمنحهِ فرصةً ليسوغ فعلته، ينصت الجميع له، يجدون مسوغاته مقنعة، وان ما جاء على السُن رجال الدين كان كذباً، يثبت لهم بالدليل القاطع ان الضرورات تُبيح المحظورات، وان الصلاة التي نادى عليها كانت للتضرع الى الله ليغفر ذنوبهم، بعدما اثبت لهم بأن عدد صلاتهم في كل يومٍ لا تكفِ لأن تغفر خطاياهم المُصرين على ارتكابها كل يومٍ، يفكون وثاقه ويتركونه واحداً تلو الاخر بعدما اكتشفوا بأن الصلاة التي نادى عليها واجبة، اكتشفوا ايضاً بأن دينهم سمح وأن ربهم ليس شديد لعقاب، فكرت في عدد الصلوات التي احتاج

إلى اضافتها للتكفير عن خطاياي فُوجدتهُن كُثر ولا تكفي ساعات اليوم لادائها، فكرت في تحمل عِقاب جميعهن إلا خطيئة حُبي (لآسر)، ذاك الذي ما إن ذكرت اسمه خرجت فراشةً من فمي وسمعت ضِحك العصافير على نافذةِ غُرفتي، نَعتهُ بالخطيئة فنما الصبار على كتفي وملأت رأسي الادغال، وفكرت في هجرهِ فَخُيِّلَ لي وفاتي ككهلٍ في دارٍ للمُسنين لم يكترث لاخر ما قاله وهو على فراش الموت ولا لوصيتهِ التي خبأها تحت وسادته لأنه كان لا يمتلك شيئاً، مُحِقَ ما خيل لي وقتما تذكرت كيف صفعني مُعلم التاريخ على وجهي حين كنت صغيرة، تذكرت بأنني اكنزه كنزاً من الحُلي الفرعونية التي لا تُقدر بثمن.

ما زلت الى الان اشعر بوجوده قربي، اشعر بشعور الاعمى وهو يلمس وجهَ من يُحب، حتى صوته في الاثير ما زال يراودني، ولطالما كنت ممتنةٌ لِحبال صوته لأنني اخلع عليها كل تعبي، إلا انني اشعرُ بالكَمد، فصدري مُثقلٌ بتبغ وفاتهِ، قَبرهُ المجهول ما زال كابوساً غليظاً يُلاحقني، التفت (لياسمين) فأرى الدمع على وجناتها، اطمئن لأنها أضحت امرأة بالغة، لأنها اضحت تشعرُ بمسامعها ولا تكتفي بالانصات، أضحت تعرف الحجم الحقيقي لمأساتي، مأساة أن تمتلك المرأة سريراً واحداً ورَجُلين، مأساة صُنع الحديث مع أولئك الذين يتحدثون بإفراط عن فوائد الوحدة، مأساة أن تعرج الى السماء ظاناً بأنك نبي.

تنير الأضواء مُجدداً ويبقى ديكور غرفة النوم في منزلي، وحدي على السرير بعدما دخل (طارق) الى الكواليس في اثناء العتمة، انهض من السرير بإتجاه أحد الأركان كأني انظر من نافذة الغرفة التي تشرف على باحة المنزل والباب الخارجي، كنت انتظر مجيء (آسر) الى منزلي بعد أن سافر (شريف) الى بروكسل، يدخل عبر الباب فانزل بسرعةٍ عبر السلالم شوقاً لعناقه، كنت قد منحت الخدم وحارس الباب إجازة بقدر مُدة سفر (شريف) وحذرتهم من الإفصاح عن ذلك، امسك بيده وآتي به الى غرفتي ليترك لي فيها آثراً قد يُسعد ايامي الباقية لي فيها، يجلس قربي فأصدق من قال بأن الموسيقى تأتي في المرتبةِ الثانية بعد الصمت حين يتعلق الامر بشيءٍ لا يُمكن وصفه.

كان يحمل بيده لوحةً لفها بشكل اسطواني، يتفحص جُدران غُرفتي فيُشير إلى الوحةً مُعلقًة بإطارٍ ذهبي كان قد اشتراها (شريف) في احدى رحلاتهِ الى (باريس) تحمل رسم شارع يغمره الضباب وتكسو ارضيته أوراق الشجر، يخلع عنها الاطار ويضع لوحته بدلها، كانت اللوحة التي رسمني بها واضطررت لتركها على المسرح والهرب سريعاً ابان مجيء (شريف) للبحث عني، اسعدني كثيراً وجودها في غرفتي، إلا أنه ظل يتأمل وجهي، ثُم قال:

- هنالك امرٌ مهم تودين الحديث به، أليس كذلك؟
- وكيف عرفت ذلك؟

- انـا اتقـن قـراءة الفنجـان، والكـف، والعـين ايضـاً.
(يقولهـا مازحـاً)

اخـرج مـن أحـد الادراج كيسـاً يحتـوي عـلى ثمـن عقـارٍ بعتـه منـذ أيـام وأقدمـه لـه، يسـأل مسـتغرباً:

- ما هذا.
- مبلغ من المال.
- وماذا افعل به؟
- تشتري مسكنا وتختار تجارةٍ ما فيما يتبقى.

يجمـع شـعره خلـف رأسـه بكلتـا يديـهِ، يرجـع برأسـهِ الى الخلـف، يتنهـد، يلـوذ بالحـيرة مـن أمـره، يقـول:

- لا استطيع قبول هذا المبلغ؟
- وما الذي يمنعك؟
- كـم عامـاً يوجـب عليـكِ الانتظـار لأتمكـن من سـداد هـذا الدَيـن؟
- لن انتظر، لأنهُ ليس دَينا وعليك سداده.
- كان كذلـك لـو كان مـن مالـكِ الخـاص، هـذه أمـوال زوجـكِ.
- كلا، اقسـم لـك بأنـهُ مـن مـالي الخـاص، بعـتُ عقـاراً ملكيتـهُ لي وحـدي.
- لا اصدق ذلك.
- انظـر إلى هـذه الأوراق. (اعطـهِ مـا يثبـت ملكيتـه

وعقـد البيـع وكلاهمـا باسـمي)
- من أين لكِ هذا العقار؟ ولمَ تفعلين هذا؟
- ليكون لكَ مسكنكَ المُستقل وحياتُك الخاصة.
- اشكركِ. (يقولها بعد نظراتٍ متشتتة وتأرجحٌ بين القبول والرفض)

اسألي النرجس عن تكوينه، اسألي من صَنعَ انهار خمر الجنان عن مذاق شفاهه، اسألي ذاك الذي كان بين اضلعي كيف كان ينبض له، اسألي بحّة صوتي وأنا احدثكِ عنه، تهز (ياسمين) رأسها يميناً ويساراً ايماءً بالرفض، لم تكن غير راضيةٍ عمّا سمعت، تقول بغضبٍ عارم:

- لمَ كُل هذا؟
- عشقته.
- مُغامرةٌ خاسرة.
- لا تُسمي عِشقي له بالمغامرة. (اقولها غاضبة)
- آسفة، لكنني اكرهه، منذ أن بدأتِ حديثكِ عنه وانا اكرهه.
- كان يستحق أكثر من ذلك.
- كلا، لا يستحق، انسان فاشل وعديم الهدف.
- انا من جعلته كذلك.
- انتِ!! قدمتِ له أكثر مما يستحق، اكاد اجزم بأنه لم يبادلك ذات المشاعر وإن بادلكِ فمن المُحال أنها كانت بذات القدر.

- كان قد قَدمَ لي، إلا أنني رفضت، قدم لي شيئا عظيما و رفضته.

- مهما كان قد قدم، اكرهه، وكرهي لهُ يزداد كلما تحدثتِ بشأنه.

- حمل بيديهِ وردةً بيضاء وجثا على ركبتيه وسط الشارع وطلبني للزواج.

- ومتى حصل ذلك؟

- منذُ البداية.

- أي بداية؟

- بداية كل شيء حقيقي بيننا، طلب إليَّ الطلاق من (شريف) والزواج به، إلا أنني رفضت، تركته مكسوراً جاثياً حتى ذبلت الوردة في يده وسط الطريق ظهيرة ذلك اليوم المشؤوم، تركتهُ وهربت لئلا اراه يبكي، ذاك الذي كان يكبرني بألفِ عامٍ من الوفاء، يكبرني بالعمر واقول عنه ابنَ قلبي.

اصمت قليلاً من رهط المرارة في جوف صدري ثُم أحدثها عن الشتات، الانكسار، الألم اللائي في راحة يدي وأنا اعصرها حسرةً لموتهِ الشنيع، ليلاً تركض الكلاب المسعورة بأحلامي لاهثةً فلا أتمكن من النوم، وعند الصباح سماع همس صوته في رأسي يشبه صَبّ الصلصالِ المَحموم بأُذنيّ، لم استدل على قبره، ومنذُ ذلك الحين وانا اخاف دخول المقابر،

تُحلـقُ الغُربـان فـوق رأسي وأقـول عنهـن نـوارس، تلدغُنـي عقـارب السـاعة كلـما كانـت بـذات الشـكل الـذي كانـت عليـهِ عقـارب السـاعة في يـدهِ عنـد موتـه، وصرت اضمـر في جـوفِ صـدري اطفـالاً في مِثـل ذلـك الوقـت مـن كل يـومٍ يقذفـون غيابـهُ بالحجـارة.

ادخـل الى الكواليـس بعـد انتهـاء ذلـك المشـهد، اطلـب إلى المخـرج التريـث برفـع السـتارة للمشـهد القـادم بضـع دقائـق ادخـل إلى غرفـة تغيـير الألبسـة واوصـد البـاب بالمفتـاح، الـوذ ببـكاءٍ شـديد، انظـر إلى اصابـع يـدي وهـي ترتعش فأخـاف لئلا تفقـد النطـق، يخيـل لي أنني نسـيت العـزف وكل طـرق العـزف التـي علمنـي إياهـا (آسر)، اشـعر بالعمـى ثُـم اجـد نفـسي أرى كل شيء مـن حـولي، اشـعر بالسـعادة لأن هنالـك المزيـد مـن الوقـت لكـي اراه فأمسـح الدمـع أمـام المـرآة التـي كلـما نظـرتُ فيهـا بعـد مشـهدٍ مـن تلـك المسرحيـة اجـد التجاعيـد حـول عينـي تتسـع.

أدخـل الى المـسرح وأنـا أعـد الشـاي والافطـار في منـزلي، يدخـل (طـارق) بملامـح وجـهٍ مُبتسـم، يجلـس عـلى الطاولـة، يقـول لي «صبـاحُ الخـير» فأجيـب بمثلهـا، كان شـبيهاً طبـق الأصـل (لشريـف) لطباعـهِ وتصرفاتـهِ، اجـاد دوره ببراعـةٍ بالغـة، فادوارنـا كانـت كلهـا حقيقيـة دون أدنـى شـك، إلا أنـهُ كان مثلـه، يُصفـق لي بحـرارةٍ حتـى لـو أخطـأت، فأجـبر ملامـح وجهـي لتتخـذ شـكلاً مُغايـراً لمشـاعري التـي اضمرهـا اتجاهـه،

لأني كنت على الدوام اخذله، وما البث إلا أن اعود نادمةً، حالما أتذكر كيف كان الخلاص لي من جحيمي الذي كُنت اعيش فيه، تزوجنا خلال ايام قلائل، كان فيه كل الخصال الحميدة إلا القلب المُفعم بالحُبِّ، ولطالما بحثت عنه في كل رواية اقتنيها، كان بارد القول، بارد المشاعر، وأنا بركان ينتظر ساعة الصفر ليُلقي بحِممهِ، كُنت اختزن قول كل ما اريد ولا ابوح بشيء لأحد، كنتُ أعاني شلل الكتابة، كان صدري مَيداناً وأنا الشهيدة فيه، اخترته وتزوجته ولا أنكر ذلك، لكنني اكتشفتُ في نهاية المطاف أنني كنتُ أرد المعروف له ليس إلا، لم يكن لي ملاذٌ غيره، لم يكن لي موطنٌ أو أبوان، تحوم المخاوف حول رأسي بين الحين والحين لتتخذ شكل غيمةٍ سوداء، هاجسٌ يخبرني بأنهُ لو عرف بخياتني له فأنني سأضحي بلا مأوى، لم يكن الامر بيدي، كانت روحي تجثو على ركبتيها (لآسر) كُلما تراه، كما يجثو العصفور لحسوة ماء.

نتناول افطارنا وهو كالعادة يُحدثني عن سياسة الوطن ويحذرني من انتقادها، يسألني عن السيناريو الذي قرأته بالأمس، فاحدثه عنه بالشيء الموجز واخبره بأنني رفضت تجسيد أي دورٍ فيه وانتهز الفرصة للحديث عن (ليلى) وعن معرفتي بها، وكيف تزوجت (روؤف) سراً خلافاً لارادة أهلها بعدما رفضوه لأنه لا يمتلك مسكناً للعيش، الامر الذي دفعني لعدم الإفصاح عن زواجها امامه،

اختلـق كذبـة معرفتـي بهـا للمـرة الأولى وعـن دورٍ اعطتنـي إيـاه في مسرحيـة مـا بعـد أن نلـت اعجـاب الحاضريـن خـلال التدريـب للعـرض، كيـف كان الفضـل لذكائهـا وحذاقـةِ نصوصهـا في زرع حُـب المـسرح التراجيـدي في قلـوب عامـة النـاس والـذي أدى بـدورهِ إلى زيـادة ايراداتـه، كانـت المعلـم والمُـدرب للجميـع ولي خصوصـاً، يقاطـع حديثـي كعادتـه غـير آبـه ليحدثنـي عـن الوطـن وعـما ستشـهدهُ السـاحة السياسـية في قـادم الأيـام، انصـت لـه وروحـي ترفـع يديهـا خفيـة الى رب السـماء تُناجيـه مـن اجـل مُعجـزةٍ مـن لدنـه ليكـن كـما أريـد، بُرهـة ثُـم يخـبرني بـأن أمـي اتصلـت يـوم أمـس عـدة مـرات، تـود المجـيء لرؤيتـي وأنـا مـا زلـت ارفـض لقاءهـا، ارفـض ايضـاً الذهـاب لهـا، فهـي مـا زالـت تشـارك ذلـك الذئـب مسـكنها وحياتهـا، كانـت قـد اخبرتـه بأنهـا لا تمتلـك المـال الـكافي لـشراء العـلاج بعدمـا خـسر زوجهـا كل أموالـه واموالهـا بسـبب القِـمار واجبرهـا عـلى بيـع حُليهـا الذهبيـة واغلـب مُقتنيـات منزلهـا الثمينـة لسـداد ديونـه، اخـبرهُ بأننـي سـأبعث لهـا النقـود عـن طريـق أحـد الأصدقـاء كـما اعتـدتُ منـذُ ان تركتَهـا وتزوجـتُ، كنـتُ اكـذب، فأنـا لم ارسـل لهـا مـن قبـل ايـةَ نقـودٍ، كنـتُ بانتظـار رؤيتهـا تمـوت وهـي عـلى فـراش العَجـز لأشـفي منهـا غليـلي، ممـا كان يفعلـه بي ذلـك الذئـب الـذي يسـكن معهـا.

تنظـرُ لي (ياسـمين) نظـرات تعجُـب، تسـألُني عـن أسـباب

فعلتي تلك فأخبرها بأن ما كُنتُ اضمرهُ لها كان أقسى مما فعلت هي، بسببها ظلت الأحلام المُرعبة تُلاحقني، ما فعلته بي كان كمرض البُهاق على وجهي لم أتمكن من التخلص منه، لي من الذرائع ألف لكي افرح لخبر موتها.

ولم تزل (ياسمين) تجهل فحوى حكايتي، في قلبي عاصفةً من الوجع بعثرت الشعور بالسعادة على الأرض حتى داسته اقدام المارة، كنت كما المؤمن التائه يحمد ربه وهو ليس على ما يُرام، أحدثها كيف يتفوق الألم على الإيمان، اسرد لها عبارةً وجدت على احدى جدران سجن (Mauthau-sen) في (النمسا) الذي شهد اقسى حالات التعذيب لليهود على يد الجيش النازي، إذ وجدوا بعد اخلاء السجناء أحد السجناء كان قد كتب على الجدار قرب سريره: «لو كان هُنالكَ إله فأنهُ سيترجاني لأعفو عنه».

ينهض (طارق) بعد انتهائهِ من الإفطار، يمسح كلتا يديه بمنديلٍ بالقرب من صحنه، ينظرُ لي وأنا أُحرك بيدي اليُمنى الشوكة واقلب بها طعامي دون ان التهم منه شيئا، أتكئ بوجهي على راحةِ يدي اليُسري وانا اعقفُها، انظرُ في طبقي فأرى اشلاءَ ذكرياتي، يتنحنح (طارق)، فاستفيقُ من غفلتي لأعود للنص المسرحي، كان عليّ وقتها سؤاله عن مدة غيابهِ القادمة، فهو يتناول افطارهُ امامي وهو يرتدي بزتهُ العسكرية بعد ان انتهت اجازتُهُ من ساحة حربنا الخاسرة على الرغم من تداعي وسائل الاعلام بانتصارنا

وعليه الالتحاق بالجبهة، سألته عن تاريخ عودته فأجابني بأنهُ لا يعلم، اخبرني بأنه لن يعود من ساحة الحرب إلا بعد انتصار قواتنا، اومأت برأسي بالفخر المُصطنع وانا اشمئز من استمرار زعماء العرب بسياسية الغاب في الوقت الذي ينشغل غيرهم باكتشاف كواكبَ جديدة، فنحن بؤساء على الرغم من جَبروتنا، ونحن عُظماءُ لولا زُعمائنا، اسير برفقتهِ الى حافة المسرح، كان هُنالك بابٌ اودعهُ عنده، نصل الى هناك فأعانقه بيدٍ واحدة من دون ان يثير تلامس جسدهُ لجسدي اي مشاعر، حياتُهُ الرتيبة كانت سبب انطفاء روحي.

التفتُ (لياسمين) لأخبرها عن ابشع اللحظات التي مرت في حياتي، كيف اخترت الاحتقار ثوباً انيقاً لنفسي.

تمام الساعة السادسة مساءً، أرتدي ثيابي، ارتدي اقراط الندم واسوار البؤس، اجول الطُرقات بحثاً عنه، اسير حافيةً على الإسفلت باتجاه بائع القهوة، اشتم المارة بدم بارد، ندمت لأنفعالي وغضبي، تشاجرت بالأمس مع (آسر) بعدما كتب أحد الصحفيين مقالاً عن رسم كاريكاتيري رسمه شاب في أحد الشوارع المتفرعة من ساحة (طلعت حرب) يصحبهُ صورة فوتوغرافية التقطها له أحد المارة بعد مشاهدته يوشك على أن ينتهي من الرسم، من حُسِن الحظ أن الكاميرا الفوتوغرافية لم تظهر وجهه بوضوح، كان يضع قبعةً تمكن من تغطية وجهه، يُشيد الصحفي في مقاله

بـأن الكاريكاتـير لم يُكلـف رسـامه إلا بضـع دقائـق ثُـم يلـوذ بالفِـرار بـين الازقـة، كاد ذلـك الموقـف يـزج بـهِ في السـجن.

يهـز الحنـين جذعـي فيتسـاقط منـي الدمـع، اتـألم كأننـي قطفـتُ ثـماراً قبـل نضجهـا وتسـممتُ بهـا، بالأمـس خسـرت طعـم فمـي ومـا عـدتُ اسـتلذ بطعـم القهـوة، اعتـذرت لـكل المـارة الذيـن شـتمتهم وانـا في طريقـي إليـه، أقـف أمـام شـقّته دون موعـدٍ مُسـبق، اطـرق البـاب فتجـيء (ليـلى)، تُرحـب بي بوجـهٍ يشـوبهُ التعجـب وتطلـب إليَّ الدخـول، أُلقـي التحيـة بمخـارج حـروفٍ غـير مفهومـة، يخـرج (آسر) مـن غرفتـهِ راكضـاً مـن غرفتـه، ارتـدى قميصـهُ عـلى عجـل ونـسي إغـلاق اعـلى ازراره واهمـل ترتيـب اكمامـه، يـترك البـاب مواربـاً بعـد خروجـه، الدهشـة تمتلـك الـكل بسـبب زيـارتي المُفاجئـة تلـك والفضـول يخنقهـم بحبـلٍ غليـظ ليعرفـوا السـبب الـذي جئـت مـن أجلـه، ادخـل بخطوتـين حتـى اتوسـط (رؤوف) و (آسر)، يرحبـان بي، ابتسـم للـرد عـلى ترحيبهـم وانـا اختلـس النظـر إلى غرفـة (آسر) لثـوانٍ متواصلـة، تشـب النـار داخـل صـدري لمـا رأيـت فأثـير انتباههـما فيلتفتـان الى الغرفـة ليعرفـوا عـلامَ كل هـذه الدهشـة، ينظـر كل واحـدٍ منهـم بوجـه الاخـر مسـتغرباً، لم يكـن مـن اليسـير الانضـمام لهـم، كيـف لي ان اشرح لهـم هـول مـا رأيـت وهـم ينبـذون وجـودي، كنـت أنـا الوحيـدة بجسـدٍ وروح وكلهـم موتـى، جُثـث هامـدة، رأيـت (شـدن) مُسـتلقيةً عـلى سريـر (آسر).

(٤)

بخطوتين احدهُما من الصَخبِ واخُرى من النَشوة، أصوات مسير (شدن) على المسرح، مشهد يُدمي قلبي لمرارة اثره، انظر إليهُ من خلف سِتارة المسرح وانا امسكُ بيدي النص المسرحي مُدعيةً بأنني بحاجةٍ الى مراجعة نصوص ما تبقى لي من مشاهد، كُنت اتوق وقتها إلى رؤيتها وهي تُجسد دورها الحقيقي مع ظن الجميع بأنه وحي الخيال، جسدت حقيقتها وهي تدخل زاويةً مُظلمة، كأنها عائدة إلى منزلها، تخلع معطفها وتضعهُ بمعية أكياسٍ قد ابتاعتها على طاولةٍ مُستديرة وسط المسرح، كأنهُ يُشير الى شقّتها الجديدة التي استأجرتها مؤخراً بعدما قررت العيش وحدها، تتجول في الوسط قليلاً ثُم تجلس على أحد الكرسيَين وتضع اقدامها احداها على الاخرى، تُفرق الاكياس التي جلبتها لتخرج كيساً يحتوي على فاكهة الكرز، تتذكر ما قالهُ لها صاحب محل الفاكهة الذي حاول المزاح معها وهو يزن لها فاكهة الكرز بعد ان ملأت كيساً كبيراً منها، سألها إن كانت لا تُحب غير هذه الفاكهة لأنها اعتادت شراءها على الدوام، ولا تجيبه كعادتها، ولا تبتسم بوجههِ ايضاً، تعطيه ثمنها ثُم تخرج ليظل صاحب المحل مُتسائلاً بغرابةٍ عن غرابتها، تفتح علب فاكهة الكرز وتتناول احداها فلا تجد ما تبحثُ عنه، تتناول الأخرى، ثُم الأخرى، تُحاول تذكر واحدةً لها طعماً لم يتكرر، تناولتها

مـن يـد (آسر) ذات يـوم كانـت تجلـس فيـهِ عـلى ناصيـة طريـقٍ رفقـة عاهـرات المدينـة لتجـارة الجنـس، تقـرَّب منهـا ومَـدَّ كـف يـدهِ المُحتفـظ بلطـف ببعـض حبـات الكـرز، ، كان يسـير مُحدثـاً صديقـه ومَـر مـن جنبهـا، توقـف ثُـم رجـع بضـع خطـواتٍ الى الـوراء وتوقـف امامهـا، ناولهـا بكـف يـده فاكهـة الكـرز بوجـهٍ باسـم، نظـرت في عينيـه تعجبـاً، محاولـةً سـؤالهُ بصمـتٍ عـن أسـباب هـذا اللطـف وهـي ومَـن برِفقتهـا مَحـطّ سُـخطٍ لـكل المـارة، اخـذت احداهـا بعـد وهلـةٍ مـن الغرابـة الممزوجـة بالخـوف والقلـق والبهجـة، ودون ان يـدور أي حديـثٍ بينهـما.

كانـت هـذه المـرة الأولى التـي تـرى فيهـا (آسر)، بعـد أن طـال الامـر بهـا لأن تُقـدم اللـذة المكنونـة بجسـدها إزاء لُقمـة العيـش وبوصيـة ذلـك الرجـل الـذي دفـع حسـاب طاولتهـا بـدلاً منهـا في تلـك الليلـة التـي كانـت تجلـس فيهـا تُفكـر فيـما سـيؤول إليهِ مصيرهـا بعدمـا دفعـت اخـر نقـودٍ بحوزتهـا مُقابـل اخـر ليلـة لهـا في ذلـك الفنـدق الفخـم الـذي نزلـت في احـدى غُرفـه مـن دون تفكـيرٍ مُسـبق، كانـت تتكـئ بيدهـا عـلى وجههـا وتُحـرك بالأخـرى قلـم حـبرٍ طلبتـهُ مـن النـادل مـع ورقـةٍ صغـيرة، كَتبـت عليهـا عبـاراتٍ غـير مفهومـة، قضـت سـاعات وهـي تُحـاول تذكـر عنـوان منـزل (ليـلى) الـذي اعطتـهُ لهـا في اخـر ليلـةٍ قضتهـا معهـا في السـجن، انتهـت زجاجـة الخمـر التـي كانـت تحتسـيها دون ان تتذكـر،

وهي من شدة خيبتها وقلة حيلتها لم تشعر بطعمها او بأي نشوةٍ كانت قد تُفضي بها الى النوم، انتهى الصحن الذي امامها وشارف الشمع الذي على طاولتها على الانتهاء، مازالت تُحاول التذكر لكن دون جدوى.

بين وهلةٍ واخُرى يخلو مطعم من حولها من الحاضرين، يقترب منها رجلٌ انيق، ذو ملامح حادة وحاجبين كبيرين، كان قد استمر لساعةٍ او ما يُقاربها بالنظر إليها والتواري عن انظارها، مُنشغلاً بحديثٍ واهنٍ مع رفيقٍ له ويختلس النظر الى (شدن)، يميل برأسهِ يميناً ويساراً كلما سنحت لهُ الفرصة، يرفع يدهُ ليطلب من النادل الحضور، ويخرج من جيب سترتهِ المال ويُشير الى طاولتها بأصبع السبابة، يومئ برأسهِ لها ليُشير بأنهُ دفع حِساب طاولتها، يجيء النادل قُربها فيهمس بإذنها بصوتٍ خفيض ليخبرها بأن طاولتها باتت مدفوعة الثمن، لم تتمكن من النظر بوجهِ النادل لأنهُ كان على درايةٍ تامة بأن الثمن الذي ستدفعهُ لطاولتها اغلى قيمةً من المالِ الذي دفعه ذلك الرجل ومن كلِّ فئات الأوراق النقدية.

تبقى بانتظاره، دقائقَ ثُم يتجهُ نحوها بعد السير بخطواتٍ قام خلالها برفع بنطاله كما اعتاد الرجل البدين كلما نهض، ينحني على طاولتها مُلتزماً الصمت ويأخذُ القلم من بين أصابع يدها برفقٍ ليكتب على الورقة (٣١٥) ثُم يتجه بعدها نحو المصعد، ترمقُها عيناه بنظرةٍ

ثُم ابتسامة تخفي من تحتها انيابا كانت قد اعتادت رؤيتها مع وجه كل رجلٍ تلقاه، تعود لتمسك القلم وتنظر أمام ورقتها الصغيرة البائسة، تقف خاشعةً أمام الرذيلة، تقفُ يائسة من تذكر عنوان (ليلى) وتؤمن بأن ليس لها ملاذ غير ذراعين ذلك الرجل الذي دفع حساب طاولتها، لا مناص للخروج من هذا المأزق إلا بما لا تُريد ولا تهوى، تذرف دمعةً واحدةً تقع مُسرعةً على طرف الورقة، تنظرُ إليها وهي خُلاصة الامر، تنظرُ إليها بأعيُن أم تنتظر عودة ابنها من حربٍ انتهت منذُ سنتين، بأعيُن رجلٍ مُسن ينظرُ إلى باب غُرفته في دار العجزة آملاً مجيء صديقه الوحيد الذي توفي بعمر الشباب.

تحمل حقيبتها الصغيرة وتتجه نحو المصعد، تلقي بنفسها بصمتٍ تام واذرعٍ مفتوحة نحو سريره، تدفع ثمن مبيتها وما تناولته محاولةً الحفاظ على ما تبقى بحوزتها من نقودٍ لليوم التالي لعلها تتذكر عنوان (ليلى)، كانت تعلم بأن قصتها صغيرة بحجم حبة القمح، مصيرُها الرُحى لتُطحَن، قصة بهيئة الليالي الحُمْر التي يعرف بشأنها الكُل ولا أحد يروي فحواها لأحد، قصةً تشهق حَتفها من فوهة مداخن مصنعٍ مهجور قُتل بدخلهِ جميع العاملين بحريقٍ هائل، قصةً تحمل من الذنوب ما يحمله ذقن الكاهن ومن الصُراخ ما تحملهُ المآذن.

تَسمع صوتَ باب شقتها الجديدة وهو يُطرَق، يُصيبُها شيئاً من الذُعر، فهي ما اعتادت بعد صوت خشب ذلك الباب، كما لم يكن لها من قبل باب يُطرَق، اعتادت الوحدة غالباً، ورجلا أوحد يمتزجُ بتلك الوحدة ليُخالجها إياها.

يدخل (آسر) ضَجراً، يجلس امامها على الطاولة دون التفوه بكلمة، ينعم النظر في سقف شقتها الجديدة وكل زواياها، بعد أن اخفضت (شدن) ارجلها من الكُرسي الذي كانت تضعُ ارجلها عليه لتسمح لهُ بالجلوس، تكاد عيناها تقضم من وجههِ قطعةً من شدة اشتياقها إليه، تُخبئ أكياس فاكهة الكرز عن نظره وتبعثر الأشياء التي على الطاولة كي لا تُثير انتباهه، يجلس امامها مُتكاتف الايدي، تجلس هي بظهرٍ مُنتصب مُتشابكة أصابع اليدين تلف اقدامها الواحدة خلف الأخرى متشوقة إلى سماع ما سيقول، لكنه لا يتفوه بكلمة، ظل ينظر إليها، يضع يده على الطاولة ثُم يُحرك اصبعه، ينقر على الطاولة الخشبية ليصدر صوتاً يبعث على الترقب والقلق، من ثُمَ يسألُ (شدن) قائلاً:

- لمَ اعطيتني نسخةً من مفتاح شُقتكِ الجديدة؟
- ألا تود المجيء الى هُنا؟
- أود المجيء لكن لمَ رحلتِ وتركتِ العيش معي؟
- لتتمكن من التفكير بمستقبلك، لتخرج وتبحث عن عمل، ستبقى منغمساً بين لوحاتك ولا تفكر بأن

تكـون لـك عائلـةٌ او بيـتٌ مسـقل ذات يـوم.

- ومـا علاقـة ذلـك ببقائـكِ معـي، ألم نتفـق مـن قبـل بأننـا أصدقـاء؟

- نعـم اتفقنـا، اتفقنـا عـلى العيـش معـا حتـى تشـاء الاقـدار، وهـا هـي شـاءت.

- أنا احُبكِ.

- وأنا مُلتزمةٌ بالاتفاق الذي تم بيننا.

- عطـركِ لا يـزال عالقـاً بأنفاسي، وصوتـكِ لا يزال في رأسي وكل خلايـا جسـمي.

- وانـت مـا زلت تلهـو بداخلي، تقفـز فرحاً بـين اوردة قلبـي وتنـام ليلـك في عقـلي.

- نتفـق بـأن علاقتنـا نتبـادل فيهـا كل شيء مـا عـدا المشـاعر، ونفـترق مـع الحفـاظ عـلى صداقتنـا؟

- وهـا نحـن عـلى العهـد، المفاتيـح عنـدك لتـأتي متـى تشـاء، لكـن يجـب ان نفـترق، يجـب ان نبـدأ بالبحـث عـن مسـتقبل بـدل الضيـاع الـذي نتوسـده كل يـوم.

- لَم أكـن اعلـم بأنـكِ بهـذا الحجـم مـن البهـاء، لم أكن اعلـم بأننـي اتنفسـك وأنـا اضـعُ اللِثـام.

- (آسر) أنـا مُمتلئـةٌ بـك، أنا احُبـكَ، ارى فيـكَ ما يرى الطفـل بأمـه، أرى الصيـاد يضـع اسـمكَ بسـنارتهِ ويمدهـا بجـوار قاربـهِ فتتقافـز حولهـا الأسـماك، أنـا احداهـن، أنـا اشـدهن جوعـاً لاسـمكَ.

تستعرُ نظرات الغضب من عين (آسر)، وعين (شدن) تمضغُ الدمع دون ان تذرفه، يضربُ بكفِ يدهِ الطاولة غضباً، تتحرك الاكياس التي على الطاولة فيسقط كيس فاكهة الكرز على الأرض وتتبعثر منه حبات الكرز، يرتبك (آسر)، يتمتم بكلماتٍ غير مُكتملة، ينظرُ إلى الدمع المكبوت في عينيها وهو يهطل من شدة الاسى، الدمع في عينيها كان كزوجين من الاودية يسيران بشكلٍ متوازٍ، ينظرُ الى الأرض، الى حبات الكرز المُبعثرة فيرى غابةً ارملةً تضمُ قطيعاً من بقايا حيوانٍ مُنقرض، يهوي بجسده على جذع شجرةٍ مُحترقة بعد أن تعب من الوقوف بوجه مشاعرها الصلبة، مُغامرٌ يطوي خيمتهُ بعد مطلع الفجر، يُحاول اقناع المُحال ليتحقق، يُحاول نكز قرص الشمس ليبتعد، يجد (شدن) تقف وسط مجرى نهرٍ دون أن تغرق، لم يرَ الضعف الذي كان يتوقعه فيلوذ بالفرار.

تسمع صوت باب مسكنها وهو يُغلق بصوتٍ صاخب، إلا أن (آسر) لم يتمكن من الرحيل، الرحيل عنها أو الرحيل منها، يستند بظهرهِ الى باب من خارج مسكنها باكياً، يضرب برأسهِ برفق على الباب، ينهال جسده الى الأرض فيجلس القرفصاء، تشعر بهِ (شدن) كما تشعر ملياً بمأساتها، تصمد وهي لم تزل تحتفظ بالدمع في عينيها تارةً وتذرفهُ تارة أخرى، تجلس القرفصاء مثله مُتكئةً برأسها على الباب من الداخل، يظهران على المسرح كلاهما من

زوايا متعاكسة، ينظر الجمهور لهما في آنٍ واحد، بينهما فاصل يتمثل ببابٍ خشبي، إلا أن الفاصل الحقيقي كان مأساة الوصول لمفترق طريق، بين حبيبٍ معدوم لكن مذاقه كفاكهة الكرز وبين زواجٍ مُر يوفر الخبز كل صباح.

يبقى (آسر) جالساً في الوقت الذي ترجع فيهِ (شدن) لتجلس كما كانت، تغمر العتمة ظهوره على المسرح ويبقى ظهورها، تنهض من شكل جلوسها الدامي وقتما يدخل (محمود الخشاب) المسرح ويجلس امامها، يبتسم فتظهر اسنانه غير المتراصة ويُعرفُها باسمه، يرفع يده ليطلب النادل، يدخل أحد الكمبارس بدور النادل ويدخل معه الكثيرون وتزداد اعداد الطاولات ليصور المشهد أحد بارات العاصمة عند الليل، يطلب زُجاجة نبيذ وكأسين، يسألها عن ليلة أمس، عن رقم غُرفتها في الفندق، عن مسكنها الدائم، عن اسم عائلتها في المدينة فلا تجيبه، يسألها عن اسمها فتكذب عليه باسم مُستعار، يبتسم على سبيل الاطراء، ويخبرها بأن الاسم الذي ذكرته ليس اسمها، وأنها لا تمتهن تجارة الجنس بدلالة هدوئها وصلابة شخصيتها وبرودة جسدها الذي تَنَعم بهِ ليل الأمس، تهمهم ضجراً، يسألها عن عدم طلبها لأجرٍ بعدما ذهبت الى غرفته، فتخبرهُ وبريقُ عينيها يُشير لحزنٍ عميق بأنها اكتفت بالنقود التي دفعها عن أجرة طاولتها وما كانت تحتسيه.

يدور بينهما حديثٌ تكتشف من خلاله بأنهُ يترأس شبكةً

للدعـارة في المدينـة وانـهُ مُسـتعدٌ لتوفـير لهـا المسـكن والطعـام لقـاء ان تدفـع لـه نصـف مـا تحصـل عليـه كل ليلـة، تكـسرُ قـارورة احلامهـا وتوافـق عـلى طلبـه بعدمـا أخرجـت الورقـة الصغـيرة التـي كانـت برفقتهـا ليلـة أمـس وهـي تحتـوي عـلى احـرف ليسـت متكاملـة في مُحاولـة منهـا لتذكـر عنـوان (ليـلى) وهـي لم تـسر مـن قبـل في شـوارع مدينتهـا ولا تعـرف الخـروج مـن الفنـدق الـذي جلبهـا إليـه سـائق التكسي الـذي اسـتأجرتهُ بالقـرب مـن السـجن الـذي خرجـت منـه، كانـت لا تعـرف معنـى الحريـة ولا معنـى أسـماء الشـوارع والمـدن، كانـت لا تعـرف معنـى الطفولـة ومعنـى الضحـك، باتـت ارجوحـة مُعطلـة ومُغطـاة بوشـاحٍ اسـود.

قـررت (شـدن) العمـل مـع (محمـود الخشـاب) وعـدم الأكـتراث لمـا سـيؤول إليـه مصيرهـا، كانـت عـلى يقـينٍ بأنهـا مهـما فكـرت او حاولـت فأنهـا سـتموت وحيـدة، يهـم (محمـود الخشـاب) بالوقـوف ويمـد يـده لهـا لترافقـه في مسـيرهِ، لترافقـه العمـل البـذيء لقـاء العيـش الرغيـد، تمـدُ يدهـا نحـوه وتذهب برفقتـه، عرفـت فيـما بعـد بـأن (الخشـاب) يُصنـف عملـهُ إلى صنفـين، الصنـف الأول؛ يضـمُ نسـاءً يعملـن في تجـارة الجنـس عـلى المـارة في الطرقـات في المقابـل يأخـذُ نصـف اجورهـن، امـا الصنـف الاخـر؛ فنسـاء الأكثـر جمـالاً مـن الصنـف الأول وهُـن لا يذهبـن إلا لبيـوت الأثريـاء واصحـاب المناصـب المرموقـة وبالمقابـل يحظـين بمعيشـةٍ مُترفـة وطلبـاتٍ مُجابـة،

يخبرها بأنها ستخضع مدة للتجربة ومن بعدها سيُقرر الى أي الصنفين سيؤول مصيرها، وأن شكلها الجذاب سيُقدم لها معروفاً لن تنساه حتى اكتشفت بنفسها ذلك وآل الامر بها لأن تكون في الصنف الراقي من شبكة (الخشاب) كما خضعت لشروط ذلك الصنف جمة، فلم يكن الخروج الى الشارع والتعرف الى الناس من مشيئتها، وافقت على العمل كما شاء لها القدر وتعسفت مشيئته، كانت تذهب الى الفنادق ذوات النجوم الخمس فأكثر لتُتاجر بالجنس مع الأثرياء فقط، كان (الخشاب) يمنح صورها لمُروجي شبكته فيتم طلبها عن طريق الهاتف، يذهب برفقتها (الخشاب) ليتقاضى الاجر، كان لا يمنحها أي نقود، هكذا كانت شروط الصنف الثاني، العيش الرغيد والحُلي البراقة والألبسة باهظة الثمن واجود أنواع الطعام والشراب وسيارة من طرازٍ حديث تقلها حيثما تشاء نقود الرجل الثري لشراء جسدها، في المقابل كان (لشدن) شرط وحيد وهو ألا تذهب لرجلٍ بَدين، ظلت تخشى شعوراً سابقاً يكسوه الألم، تخشى أن ترى مُجدداً وجه من اغتصب طفولتها وسرق بسمة شفاهها وطعن نضارة وجهها بعدما كبرت، تعلم جيداً بأن ما فعلته في وقتها كان خطأ فادحا، لكن ما الجدوى في زمنٍ تسري فيه ساعة يدها بعقاربٍ على شكل افاعي بفكٍ كبير، ما الجدوى للقيطةٍ عانقت التشرد ولم تنم ليلةً بمعدةٍ مملوءة.

أشــهرٌ معــدودات ويغضــب (الخشــاب) عليهــا ويســوء امرهــا، لم تواصــل خنوعهــا، هربــت ذات ليلــة مــن احضــان رجــلٍ بديــنٍ دفــع الكثــير مــن المــال ليحصــل عليهــا، انصــب غضــبُ (الخشــاب) عــلى حياتهــا فجعلهــا تنــام ليلــة بأكملهــا عــلى رصيــف الشــارع تحــت المســكن الــذي جمعهــا مــع مــن كان عــلى شــاكلتها بالمصــير او بالحــظ الســيئ، عــاودت لتعمــل معــه بعــد تلــك الليلــة لكنــهُ جعلهــا في الصنــف الــرديء، جعلهــا تقــف كل مســاء عــلى ناصيــة الطريــق لتزيــد نظــرات المــارة مــن مــرارة عيشــها وليجنيهــا مــن رجــع ثمــلاً لمنزلــهِ الخــالي عنــد المســاء.

بعــد حفنــة فاكهــة الكــرز التــي تذوقتهــا مــن يــد (آسر) وقتــما رأتــه مصادفــةً لأول مــرة، انتابتهــا مشــاعر لم تكــن تعرفهــا مــن قبــل، كان كالنجــم إذ هــوى عــلى كوكــبٍ مُظلــم، حــدث إنفجــار عميــق بداخلهــا أدى الى وجــود الخلــق وبــزوز الخليــة الاولى، وهــي تتكــئ عــلى البــاب الــذي مــا زال يجلــس (آسر) مــن خلفــهِ القُرفصــاء في مشــهدٍ يــضيء ظهورهمــا والعتمــة تعــم خشــبة المــسرح، تخــبرهُ بصــوتٍ شَــجي بــأن لطفــهُ معهــا لطالــما يذكرهــا بملعقــةٍ ذهبيــةٍ لم توضــع في فمهــا حــين كانــت صغــيرة، لطفــهُ كان نزفــاً يــسري بروحهــا كلــما آلمتهــا الجهــات الأربــع التــي تُحيــط بهــا، كلــما آلمتهــا الكلــمات البذيئــة التــي لا تســمع غيرهــا طــوال الليــل والنهــار، كلــما آلمتهــا مــرآة تقــف امامهــا لتطالــع قوامهــا والكدمــات التــي عليــه اثــر ملــذات السُــكارى.

تعــود لتتجــه صوب بــاب شــقتها في ذات المشــهد عــلى المسرح،

بعدما خلا من سِواها وانتهى المشهد السابق، تضعُ جبينها على الباب لتواسي نفسها بعدما رحل (آسر) مُتعكر المزاج على غير عادته، اعتادت من قبل تقبيل وجنتيهِ متى ما خرج او عاد إليه، تخبر غيابه بأنها لن تنسى ما فعلهُ من أجلها، تقول ذلك بفم ممتن بشتى تعابير الامتنان، بعدما خلصها من (الخشاب) ومن شَبكتهِ في وقتٍ مضى، تُضيء انوار المسرح تزامناً مع التصفيق الشديد من قبل الجمهور لاداء (شدن)، اداؤها حينها كان يفوق كُل توقُع، لم يكن الجمهور على علم بأنها المرة الأولى التي تؤدي فيهِ (شدن) دوراً مسرحيا، لا بل كانت المرة الأولى لها بالتمثيل في عرضنا الأوحد ذاك.

اتصنع الصفح عمّا بداخلي وانظرُ في عينيّ (ياسمين)، أنعم النظر في بريقهما، كانت عيناها تشبه عينيّ أمها بأدق التفاصيل، تحمل ذات الحدة في النظر عند الغضب، ذات شكل الدمع حينما تبكي، يحوم ناظري حول تفاصيل وجهها فأجدها مُستاءةً مني ومن ذلك العِشق، لم تكن تملك من شحوب الوجه ما يكفيها لتعلم بأن العِشق يرغمنا في وقت ولادتهِ من نكران الذات وصفع وجه الضمير، لم تكن لتفهم ما أقول، التمستُ لها الاعذار، فأنا ما زلت امامها أحاول دفعَ فيلٍ غاضب في علبة كبريت.

فأرها تطبقُ شِفاهَها على بعضها من شِدةِ الاسى، عرفتُ في وقتها بأنها باتت تفهم كل ما أقول وتشعر بما اقول،

شعرتُ في وقتها بأنها وبكل ما تحمل الكلمة من معنى اصبحت (امرأة).

على مائدة عشاء في منزلهم، نجلس أنا و(آسر) و(ليلى) و(رؤوف)، تتعالى أصوات الضحكِ والمزاح ونحن نستذكر مواقفَ قديمةً مرت بنا، يلفت (رؤوف)ليخبر (ليلى) وهو ماسك يدها بكل حُب بأن مساء اليوم هو ذكرى زواجهم، تستذكر (ليلى) كيف رأت (رؤوف) في احدى تظاهُرات (القاهرة) وهو يهتف بصوتٍ عال كارهاً انتماءه القومي ورافضاً الحرب، هو ابنٌ لشهيدٍ قضى نحبهُ في حرب عام ١٩٤٨، ذاق مرارة الفَقد الذي لم يذقها الرئيس (جمال عبد الناصر)، كان يصرخ بصوتٍ عال موضحاً للجميع معنى اليُتم، يمسك بيدهِ لافتةً تُعارض فِكرة الحرب، يحاول ان يقترب من جدران منزل الرئيس الفخم ليدق هذه اللافتة بمسامير توسلاته لعلَ الرئيس يقرأها وهو خارج من منزلهِ ليعلن ساعة الصفر لحربٍ خاسرة، بدأت علاقتهُما خلال سيرهُما في تشييع جنازة الرئيس (جمال عبد الناصر)، ولم يتزوجا حتى حصلا على فرصة عمل في الجريدة وبعد أن التحق (آسر) معهم في السكن ليتمكنوا من دفع الايجار معا، أقول لهما:

- أتمنى لكما ذكرى سعيدة.
- شكراً لكِ، وانا أتمنى لكِ ايضاً الحياة الزوجية السعيدة. (تقول ليلى)

- جزيل الشكر لكِ عزيزتي، كنا لنحتفل بذكرى عيد زواجنا إلا أن ليلى كما تعلمين ما زالت تكره الاحتفال بالاعياد، توسلت إليها صباحاً لنعد احتفالاً صغيراً هُنا بعدما صرنا نتمتع بخصوصيةٍ اكبر، فقد سرق (آسر) أحد البنوك وحصل على مبلغ كبير من المال وصار له مسكناً مستقلاً وشركة تجاريّة للنقل. (يقول رؤوف ضاحكاً)

يكاد الصداع يدفع بعينيّ خارج وجهي، أحاول فهم لم أنا اجلس وسطهم، هل دعاني (رؤوف) و(ليلى) للعشاء بمناسبة ذكرى زواجهم؟ أم جئت لأعتذر من (آسر) بسبب شجارنا يوم أمس حول المقال الصحفي الذي كُتِب عنه ونشر صورته؟ ام من دون كِلا السببين؟ لم تعتزل (شدن) نفسها داخل غرفة (آسر)؟ لمَ هي هنا؟ ألم تنتقل للعيش بمفردها؟ هل تم دعوتها ومجيئي افسد موعدهم؟ لمَ لمْ تجلس معهم؟ لمَ تختلس النظر إلي من وراء الباب؟ بتلك التساؤلات، اثرت انتباه الجميع لكثرة التفاتي للنظر في تلك الغرفة، وأثارت نظرات (شدن) إلي اشد حالات الغضب، يحاول (رؤوف) تدارك الموقف وكسر صمت (آسر) بعدما بانت على وجهه ملامح الانزعاج، فيسأله:

- لمَ انت منزعج، ازعجتك زيارة وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية (هنري كسنجر) (للسادات)، أليس كذلك؟

- هل الوقود متوفر في دراجتك؟ (يقول آسر ضجراً)
- بكل تأكيد، أنا ودراجتي في خدمة الوطن.

ليخرج من نوبة الانزعاج، اختلق (آسر) كذبة أنه اعد كاريكاتيراً يريد رسمه اليوم في (شارع رمسيس)، يُقلب بملعقته صحن الطعام الذي امامه وبالكاد يتناول القليل منه، يشعر بأنه سبب الانزعاج لمن حوله فيشرع لتغيير مجرى الظنون التي ساورت الكل، فيما ابقى أنا وسط حيرتي، أحاول ان اشرح له ما اشعر به ليكف عن الانزعاج ولا استطيع، اصمت بعد العَجز عن البوح، كان من الصعب تفسير ما اشعر به، كأنني أُعلم أعمى طريقة قراءة لُغة الجسد، يسأل (آسر):

- مَن منكم يعرف أسباب زيارة (هنري كسنجر)؟
- جاء ليوقف التقدم الاخير لجيشنا في إسرائيل. (تقول ليلى)
- بكل تأكيد، انتصارنا الأخير كان موقفاً سياسياً ايجابياً (للسادات) وسيطلب ازاءهُ شروطاً للانسحاب او لإيقاف توغل جيشنا في أقل تقدير. (أقول انا)
- لن يحسن التصرف، سيخدعونه بالدعم الاقتصادي، شيء بديهي لمصير الدول التي تمتلك جيشاً باسلا واقتصاداً مُتدهورا. (يقول آسر)
- ستتوقف الحرب، أليس كذلك؟ (يسأل رؤوف)
- ستتوقف، بقرارٍ من الاتحاد السوفيتي أم بقرارٍ

امريكـي سـتتوقف، لا اظـن أن هنالـك مـن يخالفنـي في أن الـوزراء الذيـن ورثهـم (السـادات) مـن (عبـد النـاصر) كانـوا لـه كنـزاً عظيـما، عـلى الرغـم مـن توددهـم للاتحـاد السـوفيتي، وجـود الدعـم مـن قـوة عظمـى خـلال حربنـا شيء جيـد لأن ايقافهـا سيشـترط تدخـل مـن قـوة عظمـى موازيـة لهـا.

- الموقـف إيجـابي ولصالحنا، ولكـن ما الذي سـنجنيه؟ (تسـأل ليـلى)

- اقتصادنـا مُنهار ولا سـبيل لنا إلا بالخنوع لقرارِ وقف اطـلاق النـار، مـن أي جهـة كانـت، سـتتوقف الحـرب لأن (السـادات) لا يمتلـك المزيـد وليـس لأننـا نريـد إيقـاف الحـرب، بعـد حـرب الاسـتنزاف والتقـدم الاخـير لـن يتبقـى لنـا حتـى الخبـز لنأكلـه. (يقـول آسر بتشـاؤم)

- مـن المزمـع ان تنـشر صحف الغـد اسرار دعـوة وزير الخارجيـة الأمريكـي للسـادات لزيـارة الولايـات المتحـدة، قـرأتُ معظـم النـماذج المُعـدة للطبـع اليـوم في موقـع الصحيفـة. (يقـول رؤوف)

- سنعرف صباح الغد. (يجيب آسر)

ينهـض (رؤوف) ويدخـل الى غرفـة (آسر) ليجلـب ورقـة واقـلام الرسـم، يجلـب المسـند الخشـبي، ايضـاً، الغريـب انـه لم يطـرق البـاب قبـل دخولـه، والغريـب أكثـر انني رأيـت كل زوايـا الغرفـة وانـا اجلـس امامهـا ولم أرَ (شـدن)!

- ارسم لنا ما سنفعله اليوم، وإن لم يعجبني الكاريكاتير أعدكَ بأنني سأترك وسط الشارع بعدما تنتهي من الرسم لعلك تحظى برصاصاتٍ من فوهات بنادق الشرطة المنتشرين في (ميدان رمسيس)، مجنون، تريد مني الذهاب الى هناك؟ قم وارسم لي الكاريكاتير الذي اعددته وأنا سأختار المكان المناسب.

ينهض (آسر) ويبدأ بالرسم، يرسم طائرةً يقودها الرئيس الإسرائيلي (مناحم بيجن)، يجلس فيها (السادات) ومن خلفه يجلس (هنري كسنجر)، يرسم فوق رأس السادات فقاعةً بداخلها هديةٌ مُغلفة، فنصفق لهُ جميعنا بحرارة، تقول (ليلى) ضاحكة:

- لمَ لا تفتح لنا الهدية لنرى ما بداخلها.
- انها خدعة، مجرد وَهم. (يقول آسر)

تتعالى أصوات التصفيق في المسرح في ذلك المشهد الحقيقيّ بتصرف، يقف بعض منهم ليشتم (آسر) فيما يواصل التصفيق بعض اخر، كان مشهداً يصور انتحاره مجازاً، وكأن حبل المشنقة تدلى من فوق المسرح وتقرب من رقبته عقوبةً لسخطهِ وامتهانهِ رئيس الدولة في مكانٍ عام، بدأت همسات الواشين في المسرح تتزايد لأن يُخبر احدهم قوات الشرطة بأن ذلك الشاب هو الرسام الكاريكاتيري الذي تبحث عنه الشرطة، رسم بذات الدقة والطريقة كما اعتاد الناس

رؤيـة رسـوماتهِ السـاخرة، بسـببهِ تـم القبـض عـلى الكثـير مـن الرسـامين واقبعـوا في السـجون حتـى بانـت براءتهـم بتقريـرٍ من خـبراء أيـدوا عـدم تطابـق طريقـة الكاريكاتـير المنشـور وطريقـة رسـمهم، اراد ان تكـون النهايـة.

يعـود الهـدوء ليعـم المـسرح بعـد انتهـاء المشـهد واغـلاق السـتارة، أقـف خلـف الكواليـس الـوذ بالرعب لمـا سـتؤول إليه نهايـة المسرحيـة، مـا كنـت أتوقـع بأنـه سيرسـم بـذات الطريقـة التـي يعرفهـا النـاس، كان المتفـق عليـه قبـل العـرض ان يظهـر كأنـه لا يعـرف الرسـم ويرسـم عـلى اللوحـة أمـام النـاس رسـماً تخطيطيـاً سـاخراً بحسـب نَـص المسرحيـة كـما يرسـم الطفـل لا ان يفضـح امـره بعدمـا احتـار النـاس وقـوى الامـن بالتعـرف اليـه اطلقـوا عليـه شـتى الألقـاب والمسـميات، أقـف في احـدى الزوايـا المظلمـة داخـل الكواليـس وانـا خائفـة، مـا زال (شريـف) يجلـس في الصـف الأول ويـرى كل شيء، تمنيـت لـو أننـي قـادرةٌ عـلى رؤيـة الشـيطان الأسـود الـذي يجـول في خاطـره في وقتهـا.

في خلـف الكواليـس ومـع انـزال سـتارة المـسرح يطلـب (رؤوف) الى (آسر) قائـلاً:

- اخـتر شـارعاً اخـر غـير (ميـدان رمسـيس) لرسـم الكاريكاتـير، المـكانُ خطـر عـلى القيـام بفعـل كهـذا.

– سنذهب الى شارع رشدي باشا او شارع الجمهورية ونرى ايهما اصلح.

كان (آسر) بالرسم على الجدران قبل موعد صلاة الفجر بقليل، مع سكون الشوارع وخلوها عادةً في هذا التوقيت من المارة، اتسامه بسرعة الرسم وحمله على الألوان بطريقةٍ تجمعها حول حزام بنطاله كانت كفيلةً لأن ينجز الكاريكاتير في دقائق وينتظره (رؤوف) بالقرب ويتابع الحركة حول المكان ليلوذا بالهرب بعد ذلك، على المسرح، كذب (آسر) بشأن مكان الرسم الذي أراد رسمه تزامناً مع العرض، تحدث بشأن شارع رشدي باشا وشارع الجمهورية وانه سيبلغ جرائد المعارضة عن وجود الكاريكاتير ليكون ضمن صفحات جرائدهم ليوم الغد، إلا أنهما لم يذهبا الى هناك، أراد من الموجودين في الكواليس معرفة ذلك لأنهم حتماً سيبلغون الشرطة والتي ستنشغل بالذهاب الى هناك ولن تجد شيئا فيما يتمكن هو من الانتهاء من الرسم في مكانٍ اخر، ظننته بأنه أراد ابعاد الشك عن نفسه في ذلك العرض وافهام الجميع بأن طريقة الرسم ليست كمثل التوقيع حكراً على الشخص، وان وجود ذات الكاريكاتير في أحد احياء القاهرة وقت عرض المسرحية يمنح دليل براءة (لآسر) من الشتائم التي وجهت اليه في اثناء المشهد.

أعض على نواجذي من شدة الحَسرة، من قسوة الندم لفقدي إياه، افرك رئتي براحتي يديّ حتى اختنق، أمضغ

قلبي بين اسناني، اتآكل شيئاً فشيئاً، انهش يدي بأكملها وحالما انتهي منها انهش قدميّ، اضحى وسط بركة دم دون ان اموت، كُتِبَ عليّ العذاب بالعيش من بعده، وكُتِبَ عليه الراحة والطمأنينة، ومن يدري، لعلهُ يشتاق إلي مثلما اشتاق إليه، وإلا ما الذي يدفعه للمجيء والجلوس على الكرسي المتأرجح قبل طلوع الشمس، فلعل الأنبياء والمُبشرين كانوا على حق وفعلاً هُنالك حياةٌ بعد الموت، كيفما تكنْ تلك الحياة فأنني سأحبه مُجدداً، حتى لو لم تكن هنالك مشاعرٍ في تلك الحياة والكل متأهب لِحساب يوم القيامة، فسأبقى بقربه حتى موعد الحِساب، وإن انشغل الخلق بتعداد سيئاتهم وحسناتهم للتفكّر بالجنة والنار، فأنا سأنشغل بالنظر إلى وجهه، سأخبئهُ خلف ظهري إن وقفنا للحِساب أمام الرب، سأخبر الرب بأن السبب لمأساتنا كان أنا، وهو لم يكن لهُ ذنب، سأرتجيه ليصب عليّ نار السعير بدلاً منه، سأرتجيه لأحمل العذاب بدلاً منه، لعل الرب يستجب لي ويزجُ بهِ في الجنة.

يُطرَق الباب، اتوقف قليلاً عن سرد مأساتي، تَقطع (ياسمين) انصاتها لي وتذهب بإتجاهه بخطواتٍ مُتناسقة، هكذا جرت العادة لكل امرأة تعرف طريقة من تُحب لطرق الباب، تجد من تحب فتبادلهُ التحية على استحياء، تخبرهُ بأنني جالسةٌ في الشُرفة، اعتاد المجيء في الغالب بهذا الوقت الذي اعود للنوم فيه بعد طلوع الفجر

وتناولي لأفطاري وقُبيل ذهاب (ياسمين) الى الجامعة، اعتاد المجيء الى هنا ليذهبا معا الى الجامعة، اتناول عقاقيري الحقيرة واستلقي على الفِراش، اخرج صورة (آسر) من جيبي واضعها تحت وسادتي لتنام النوم غير الهانئ مثل نَومي، كانت تلك العقاقير تؤثر في صورتهِ ايضاً، كانت تمسك وجوهنا بقسوةٍ وتزجّ بها في حوضٍ مملوءٍ بحامض (النتريك) لكننا نخرج منه بأعجوبة، نتجرع الألم معا ونمضي قُدماً، كنتُ انظر عند الفجر إلى ملامحهِ فأجدها مُبتسمة، وحالما اخلد الى النوم متعبةً اجد ملامح التعب قد تغلبت على مبسمهِ في الصورة ايضاً، كانت صورتهُ تحدثني، تسامرني وحدتي، تبادلني الرأي لو ندمت عمّا فعلت آنذاك، كانت صورته تبتسم إذ رجوته ليفعل شيئاً احمق من اجلي، كأن يقف في باحة منزلي لعلهم يرونه، او يقول لطبيبي او لمن حولي بأنهُ حيّ، لأنهم يضايقونني، اريد ان اثبت لهم بأنني لست مجنونة وأنه كان يقف بجانبي حين كنت احدثُ نفسي في غرفةٍ مُظلمة.

(سامح)، شاب لهُ من العمر ما (لياسمين)، زميلُها في كلية الطب، من عائلة ثرية تقطن في القاهرة، تفتقر علاقتي بهِ للمودة كما يظن هو، إلا أنني كنت اكن له كل الحُب والتقدير، كان جُل خلافنا هو طلبهُ العيش في القاهرة ما إن تزوج (ياسمين)، سكنه الدائم هناك إلا أن فرصة دراسته للطب في جامعة (الإسكندرية) جاءت

بـهِ ليتعـرف الى (ياسـمين) ويتقـدم لطلـب يدهـا في عامهـم الـدراسي الاخـير، اشـترطت عليـه أن تبقـى ابنتـي بقـربي حتـى اخـر يـوم لي في هـذهِ الحيـاة، اشـترط ابـوه كـما اشـترطُ انـا، ابـى ان يفـارقَ ولـده كمثـلي، لعـام ونيـف وهما بحكُـم المخطوبـين، انتهـت مـدة دراسـتهما وتؤجّـل اخـذ القـرار، وَانـا سـأقبل المـوت بحـادث دعـسٍ مقابـل ألا أقبـل أن تذهـب (ياسـمين) للعيـش في القاهـرة.

كان لا وقـت لديـه ليجلـس معهـا، لديـه الكثـير مـن المهـمات توجـب إنجازهـا بعـد ان انتهـت مـدة دراسـتهم وانتهـاء مـدة اقامتـهِ في الإسـكندرية، يطلـب اليهـا ان تتركـه بضـع دقائـق عـلى انفـرادٍ ليتحـدث معـي بأمـرٍ مهـم، لأن الأوان قـد حـان لزواجهـما، وان اعـتراض ابيـه عـلى البقـاء في (الإسـكندرية) واعـتراضي أنـا عـلى ذهابهـا الى (القاهـرة) بـاتَ حجـراً وسـط طريقهـما ويحـب تحطيمـه، يبتسـم طالبـاً إليهـا ان تعـد لـه كوبـاً مـن الشـاي، يدخـل ثُـم يجلـس جنبـي، يلقـي عـليّ تحيـة الصباح فـأرد بمثلهـا دون أن التفـت لـه، بعـد ان انفكـت (ياسـمين) عـن التشـبث بكـف يـده قـربي وعينيهـا تختـزن الدمـع ولا تذرفـه، اشـعر بـما قالتـه لـه وكيـف نظـرت إليـه وبـما يـودان قولـه وطلبـه، لأن مـن المُسـلمات بالفِطـرة أن الأمُ تتمكـن مـن رؤيـة أولادهـا دون ان تلتفـت إليهـم، الأم الحقيقيـة وليسـت تلـك التـي لبـت شـهوةً فانتفخـت بطنهـا لتجـد بعـد بضعـة اشـهر كائنـاً صغـيرا بـين يديهـا،

على المرأة التضحية كثيراً لتُسمى (أُم).

بعد ان يغلق الباب الزُجاجي المؤدي الى الداخل ليضع حديثه موضع السِر، يقول لي:

- لما يُقارب العام وأنا اعرف (ياسمين)، لكني اجزم بأن هنالك شيئا ما في هذا البيت ما زلت لا اعرفه، تعاملكِ الغريب معي لم اجد له تفسيراً ولو مرة واحدة، انتهت دراستنا ونريد الزواج، وعدني ابي بأنه سيهدي لنا منزلاً فخماً، سيُجهز لنا عيادةً طبية خاصة بنا، شريطة ألا نسكن هنا في (الإسكندرية)، بالأمس دفعني غضبي لتهديده بأنني سآتي للعيش هنا برفقة (ياسمين) لأنني احبها، فأخبرني بأنه لن يوافق على زواجي ولن يحضره، ارجوكِ لمَ لا توافقين على مجيئها معي الى (القاهرة)؟

- لن أوافق ابداً، إن اردت الزواج بها فعليك أن تقبل بشرطي الوحيد، أن تسكنا معا هنا برفقتي.

- لن يوافق ابي على سكني هُنا، كيف لهُ أن يقبل بأن يسكن ابنه في بيت زوجته وهو غني!

- هنالك حل، استأجر مسكناً حيثما تشاء، لكن في هذه المدينة.

- مستحيل، لن يوافق.

- لن يكن هنالك حلٌ بديل، أنا لم اطلب إليك أي شيء سوى السكن هنا في هذه المدينة، في داخلك

موضـوعٌ اخـر، تحـدث عنـه.
- كلا لا شيء.
- كما تشاء.
- كلا، يوجـد، سـألني ابي مـراتٍ عديـدة عـن والـد (ياسـمين).
- اخبرتـك مـن قبـل بـأن اسـمها (ياسـمين كامـل محمـد)، ابوهـا رجـل اعـمال، تـوفي وهـي عمرهـا ثـلاث سـنوات.
- اخبرتني ياسمين بأنها لا تعرف عنه شيئاً.
- وكيـف لهـا أن تعـرف، كان لهـا ثـلاث سـنوات في وقـت وفاتـه.
- معـكِ حـق، لكـن، هـي لا تملـك لـه صـورة او حتـى اي ذكـرى. (يقـول مُرتبـكاً)
- كنـت عـلى خـلافٍ معـه، حاولنـا الانفصـال قُبيـل وفاتـه، ووقـت وفاتـه لم نكـن نعيـش معـا، جمـع اغراضـه وملابسـه وهجرنـا أنـا و(ياسـمين)، بعـد أيـام قليلـة علمـت بوفاتـه، وقتـما كان قـد دُفـن وانتهـى عـزاؤه.
- اين قبره؟
- لا اعلـم، تفـوح رائحـة الشـك مـن كلامـك، اخـبرني إلامَ تريـد الوصـول؟ (اقـول غاضبـة)
- يريد ابي معرفة تفاصيلٍ أكثر عن والد (ياسمين).
- اخبرتـك كل التفاصيـل، ولم نعلـم ايـن دُفـن، حَمّلنـي ذووه سـبب النوبـة القلبيـة التـي كانـت السـبب لموتـه،

دام الشِجار بيننا شهورا، حتى انهم اقاموا بحقي دعوى قضائية اتهموني بها بالتسبب بموته ولكن تشريح جثته اكد حدوث تجلط مرتين في اوعيتهِ الدموية القريبة من القلب قبل موته خلال عامٍ واحد ولم يكن يكترث لصحتهِ او يتناول أي دواء.

- صليني بأهله، اعطيني رقم هاتف او أي عنوانٍ استدل به لأصل إليهم.

- لم يتبق بحوزتي شيءٌ يربطني بهم، احصِ جيداً عدد السنواتٍ التي مرت على تلك الحادثة، يُمكن لأبيك الذهاب الى دائرة السجل المدني للأستعلام عنه، بحوزتك اسمه، لا أظن بأن الامر سيكون صعباً على أبيك.

- ذهب بالفعل، اخبروه بصحة اسمه وصحة تاريخ وفاته كما اخبرتهِ به حين جاء برفقتي لخطبة (ياسمين).

- كنت لألومه على فعلتهِ هذهِ ولكنني لو كنت مكانه لفعلت ما فعل.

- لم يكن يقصد الإساءة، لم يكن يقصد اتهامكِ بالكذب، أراد معرفة ابيها ليس إلا، اخبره على عنوان سكنهِ المُثبت لديهم فلم يجده، كان ضمن مساكنَ عشوائية تمت ازالتها، يخلو سجلهُ من الاخوة والأخوات، مُثبتٌ في سجله اسم ابويه وقد توفيا قبل وفاتهِ، ارجوكِ، لا تقفي بجانبه لمحاربتنا، يكفني القتال المستميت امامه لأنعم بالزواج من (ياسمين)، يعمل ابي جاهداً لمنع زواجي منها، ينعتني بالكلمات البذيئة ويلجأ لضربي بما يحمل بيده إذ قلت

لـه بأنني سـأضطر في نهايـة المطـاف بالهـرب منـه مقابـل ان اتـزوج مـن احببـت. (يقولهـا بنـبرةِ رجـاء)
- كُـن عـلى يقـينٍ تـام بـأن الـكلام معـك في المـرة القادمـة سـيأخُذ منحنًـى آخـر. (اقولهـا ممتعضـةً)

تدخـل (ياسـمين) وهـي تحمـل ابريق الشـاي برفقـة ثلاثـة اكواب، يخبرهـا (سـامح) بأنـهُ عـلى عجلـةٍ مـن امـره، تنظـر بنظـرةٍ خاطفـةٍ عـلى ملامـح وجوهنـا فتجـد كـما العـادة، نتفـق بشـتى الأشـياء عـدا ذهابهـا الى (القاهـرة)، يخبرهـا بأنـه سـيأتي عنـد المسـاء لأصطحابهـا الى العشـاء، فتنظـر إلي دون أن تجيبـه، أشـعر بالفخـر الشـديد، تحفـظُ جيـداً مكانـة الأم في تلـك القـرارت الآنيـة التـي تقـف عائقـاً عنـد الأبنـاء وسـط عنفـوان الحُـب وبـر الوالديـن، اومـئ بـرأسي لهـا بالقبـول فتغمرهـا الغِبطـة، تقـول لـه بصـوتٍ هـادئ: «سـأنتظركَ عنـد الثامنـة»، تسـير بخطـواتٍ متسـارعة مـن خلفـه وهـو يخـرج، شـعرت جيـداً بأنهـا أغلقـت البـاب مـن ورائـه دون ان يلقـي عليهـا تحيـة الـوداع.

كُل كلمـة (لا) قُلتهـا في ذلـك الوقـت كنـت لأقولهـا (نعـم)؛ لـولا مأسـاتي غليظـة الصـوت وهـي تهمـس بداخـلي وصفـاً لأشـباحٍ قـد تُطـارد (ياسـمين) مـا ان خَطـتَ اقدامهـا شـوارع (القاهـرة)، لا أعلـم مـا إذا كانـت لمأسـاتنا هنـاك بـذور نَمـت وأصبحـت غابـاتٍ تتخللهـا اشـباحٌ سـود قـد تطاردهـا، أم انهـا انتهـت مـع انتهـاء مسرحيتنـا.

(٥)

بعدما عَرفَ من أين يؤكل قلبي اضحى يُقبّلني بشهيةٍ مفرطة، (آسر)، باتت حياتهُ غير تلك الحياةِ العبثية، باتت ملابسه المعلقة في دولاب غرفتهِ باهظة الثمن، لهُ في يده ساعةٌ مُرصعةٌ بالالماس، كنت سعيدةً بهيئتهِ الجديدة سعادة ام بمولودها الأول، اخذت علاقتنا منحًى جديدا، يجلس ويحدثني كثيراً عن تجارتهِ الرابحة، اوجد حيزاً بغضون سنتين لشركتهِ بين شركات التجارة، صرت التقيه بمنزله، بعدما انتقيتُ أنا اثاثَهُ وموجوداته كافة، وبحسب حبي للالوان، كان يمرح ويقفز كالطفل في اول دخولهِ لمدينة الملاهي إذا طلبت اليه الرسم، في كل مرة نسهر فيها اطلب ان يرسم لوحةً واعلقها على أحد جدران منزله، إلا انه في تلك الآونة بات أقل حباً للرسم، اعزى السبب مازحاً وقال لي:

- أن شهوة الربح تحجب المواهب، وأن جنيّ الأموال يختصر طريق الموهوبين الى المجد، ولمن ولِدَ فقيراً يكون ترف العيش المجد بذاته.

نجلس وسط المسرح على طاولةٍ صغيرة، لها كرسيان باللون الأبيض، المسرح مظلم بأكمله والضوء مُختصرٌ على طاولتنا، تعزف (شدن) في ركن منضوٍ الحاناً ومن البيانو الشاهد عليى مأساتنا، تخفض رأسها وترفعه، تومئ بهِ يميناً

ويساراً تجنباً للغرق وسط الألم، اكاد اجزم بأن تلك المسافة التي فصلت بيننا كانت لتقتلها شنقاً بقطعة قماش معلقةً في السقف، تتدلى أمام عينيها وتتوارى عنها ثُم تلتف بسرعةٍ حول رقبتها النحيلة.

في ذلك المشهد، تلاطمت بحورٌ من السقم، تمنيتُ بشِدة ان انال ذلك الإحساس الذي نالته (شدن) هي تجلس على حجره وتعزف على البيانو وشعرها المتدلي يتراقص مع الحانها وقتما نظرت إليهما خِلسةً على المسرح، كان يشرب (آسر) من زجاجة النبيذ الأحمر الذي يحبه مُحاولاً مُلاطفة كلماتهِ المُنتقاة من نصِ مسرحيتنا وهو يتوق شوقاً إلى معرفة من الذي كتبه، خرجنا عن النص في حوارنا وظل القصد ذاته، ابادله النظر ولا اجيد الطريقة التي ينظرُ إلي فيها، كان مخاضاً انجب مأساةً ولدت مشوهة الارجل، مأساة أولئك الذين رسموا بمخيلتهم حياةً غير الحياة التي يعيشون فيها، الكأس التي امامي على الطاولة فارغة، ظل يقدم لي من الغزل اشهاه، ويلقي بلومهِ عليّ لأني انقطعت عنه مدة لم اكلمه فيها عبر الهاتف ولم ازره في منزله، كان قد اغتالني وميض وجه تلك المرأة عَلِقَ عطرها بثياب (شريف) عدة مرات وهو يعود الى المنزل متأخراً، اجلس امامهُ وانا للمرة الأولى أكون ذهنا شاردا، تارةً اتكئ برأسي على يدي اليمنى وتارةً على اليُسرى، اراه وسط همومي يتكاثر مراتٍ،

ومـراتٍ يزيحـه ويهـون عـليّ شـكوك المـرأة التـي تمـوت حـين يسـاورها الشـك، يُمازحنـي فينادينـي: «يـا فتـاة»، كان بصوتـهِ الخـلاب ذاك يفَـكّ عُقـدة التـاء المربوطـة لتمتـد، لأكـون (فُتـات) بـدل (فتـاة).

يحدثنـي عـن شـوقهِ إلي بلهجـةِ شـاعرٍ غـاوٍ، أُلمـم عباراتـه محاولـةً الهـرب خيانـة زوجـي لي وهـو رجـلٌ مثلـه، لا يملـك مـا يزيـد عليـه لئـلا يخـون، تـتراءى نظـرات (شـدن) لي مـن خلـف بـاب غرفتـه وقتـما تناولنـا العشـاء معـا برفقـة (رؤوف) و(ليـلى) فتقـوى الغـيرة عـلى التهامـي لقمـةً واحـدة، تـراودني فِكـرة جثتهـا وهـي مُلقـاةٌ عـلى ظهرهـا في غرفـة (آسر) حديـث للمفتشـين والشرطـة في ارجـاء المنـزل عـن أن تُقيـد حـادث مقتلهـا ضـد مجهـول، وبالتضـاد لهـا تـراودني فكـرة ان مـن المُحـال ان ينبـض قلـب (آسر) يومـاً لغـيري، يقطـع شرود الذهـن في عقـلي فيحدثنـي عـن الحُـب عنـد الرجـال فيقسـمه عـلى ثلاثـة، امـرأةٌ مـن الممكـن ان يكـون الرجـل لهـا لكنهـا لا تتعـدى ان تكـون صديقتـه، وامـرأة يكـنُّ لهـا الاعجـاب المخلـوط بالحـب خـالي المشـاعر لتكـون قرينتـه، اشـد قربـاً مـن صديقتـه، يحـاول الحـذر دائـماً مـن الحلـم بأنهـا قـد تصلـح ان تكـون حبيبتـه، ويجـزم حـد الكَـزّ عـلى اسـنانهِ بأنـه يغـار ممـن يتزوجهـا، اخـيراً تلـك التـي تكـون عشـيقته، تلـك التـي لا يمكـن ان يُقبلهـا مثلـما يُقبـل غيرهـا، تختـص بنـوعٍ واحـد مـن المشـاعر يولـد ويمـوت مـن اجلهـا، حتـى ان نبـض قلبـه بحـب غيرهـا فـأن المشـاعر خاصتهـا لـن يشـعر بهـا مُجـدداً.

وانا بين أن اوافقه الرأي تارةً وتارةً اخالفه، تبقى يدي تتشبث أصابع يدهِ كتشبث الطفل بيد امهِ وسط الزحام، كان لا مسوغ للنقاش معه، فات الأوان بعدما صرت ادمن حديثه، حين يحدثني تقبع في عقلي نفاثةٌ للعُقَد،كان كالموسيقى، يأخذني بعيداً من الواقع، يملؤني بالألوان، يقدم لي البهجة لُقمةً بنكهة الزعفران سهلة الالتهام في فمي، عيناه تسكب الخمر في قلبي فتُخدِر اوردتي فيتدفق الدم برفق، اعلن في نهاية المطاف استسلامي، فاخبره بأن لا شيء يضاهي وجده قربي وأن كل الهموم بوجودهِ تنهار، اخبره بأنني وقتها قال لي (احبُكِ) اول مرة هرعت اجول الطُرقات بحثاً عن (ورقة بن نوفل) لأجزم بأنها النبوة.

تنطفئ الأضواء وتبقى (شدن) مستمرةٌ بالعزف، نذهب أنا و(آسر) خلف الكواليس فيدخل صديقها الغني الى المسرح ويجلس على طاولتنا، يتغير الديكور الى المطعم الفخم الذي تعمل بهِ في الليل بعدما هجرت العيش مع (آسر) وقررت البدء بحياةٍ جديدة، يدخل النادل وليرفع ما على الطاولة ويضع وردة جاء بها الغني كعادته ليستمع لعزفها، تكاد صالة المطعم شيئاً فشيئاً تخلو من الحاضرين، باتت تعزفُ بارتباكٍ، يشغلها التفكير في العودة الى المنزل متأخرةً عند الليل، ترجع بواسطة باصات النقل لأنها ما عادت قادرةً على دفع اجرة سيارة الأجرة كل يوم، مسكنها الجديد في منطقةٍ عشوائية وبعيداً جداً من المطعم،

سكنت في احدى العشوائيات التي كانت مستشريةً على اطراف القاهرة، كان ايجار الشقق السكنية باهظاً مقارنة بما تجنيه من المطعم، ما عادت ترغب في الحضور الى المسرح.

كانت ليلةً باردةً، يُحب الجميع فيها اللجوء الى اغطيتهم الدافئة مبكراً، إلا ان صديقها الغني مواظباً على الحضور الى المطعم في موعده، تكشف الأضواء وجهه فيظهر أحد الممثلين يجسد دوره واضعاً القناع على وجهه، اثار انتباه الحاضرين إلا انهم اعتادوا متابعة دوره وهو مقنع، يجلس وحده على الطاولة، ينصت ملياً لعزفها ويغمض عينيه عند بعض المواضع، يتمعنها بنظراتٍ لائقة، بنظراتٍ تتفق نساء العالم على استلطافهن، يحاول جذب انتباهها ليبتسم لها، فهي لم تزل كعادتها لا تبادل أي رجلٍ الابتسام، امامه تظل كأس النبيذ ووردةٌ حمراء جلبها من أجلها، تضرب بأصابعها انغام لحنها الأخير فيصفق لها وحده فتلتفت نحو الصالة دهشةً من صوت التصفيق المنفرد، فلا تجد غيره.

تهم بالنهوض وهي تجمع أوراق النوتات من على البيانو فتسمع صوت سير اقدامهِ نحوها، ادعت بانشغالها بشيءٍ مبهم لتنتظر مجيء النادل وهو يهديها الوردة كما جرت العادة ويقول لها بأن الرجل الذي يجلس هناك أرسلها لكِ، إلا أنه لم يجئ، جاء إليها صديقها بنفسه، تطالع تفاصيل وجهه فتجده ثرياً جداً، كأنه لم يعرف معنى الارق ذات يوم، يصدح صوت (آسر) بداخلها فتكتمه، تطالعه

مـرة أخـرى فتجـده رجـلاً يسـتحق أن تتقبـل منـه المـرأة وردةً حمـراء بعـد منتصـف الليـل، يخبرهـا بأنهـا عزفـت بشـكلٍ مُغايـر عـن عزفهـا اليومـي وأنـه بعيـدٌ كل البعـد مـن أنـواع الفَـن إلا أنـه يجيـد فهـم مـا تعـزف، يخبرهـا بأنـهُ مُعجـبٌ بعزفهـا وأنـهُ عـلى الـدوام يـأتي لسـماعها، يتكـئ بيـدهِ اليسرى عـلى البيانـو وهـي لا تـزال جالسـة ايـماءً لتقبـل اسـتمراره بالحديـث، يخبرهـا بـأن مجيئـه لأول مـرة الى المطعـم كان مصادفـة، كان عشـاء عمـل برفقـة زملائـه واثـار عزفُهـا انتباهـه حينهـا، يمازحهـا قائـلاً بأنـه ليلتهـا اضطـر لتقديـم الاعتـذار لأصدقائـه لإهمالـه حديثـه والانشـغال بعزفهـا، تومـئ بالرضـا مـن حديثـه دون أن تُجيبـه بـشيء، يصمـت لثـوانٍ مـع صمتهـا ثُـم يقـدم لهـا الـوردة التـي ظـل يحملهـا بيـده وهـو يحدثها، يخبرهـا بأنهـا جميلـةٌ للغايـة وانها الليلـة اشـد اناقـةً مـن بقيـة الليـالي، وأن عزفهـا قـد لامـس قلبه، إلا أنهـا متعكـرة المـزاج، يحـاول سـؤالها عـن الأسـباب ويتوقـف عـن ذلـك لأنهـا لم تـزل صامتـة ولا تتفـوه بـأي كلمـة، يجـول في خاطـره الظـن بأنهـا خرسـاء فيراهـن نفسـه عـلى عكـس ذلـك، يفكـر في أنهـا لم تتفـوه بكلمـة لتشـكره فكيـف لهـا ان تخـبره أسـباب تعكـر مزاجهـا وتبـوح بـشيء مـن المؤكـد انـه لا يُبـاح بـهِ للغربـاء، في تلـك الثـواني تفكـر هـي في تجـاوز سـؤاله، كيـف لهـا ان تصـف اشـكال الشـباب الواقفـين وسـط الطرقـات وهـي تمـر مـن جنبهـم كل يـوم ويتحرشـون بهـا، كيـف لهـا ان تصـف محـل سـكناها ومـا يحيطـهُ مـن إماكـن لبيـع المخـدرات ومجرمـين ومدمنـين مروجـين لـه وانهـم في كل يـوم يطرقـون بـاب منزلهـا

بعد دخولها إليه ويضربون نافذتها بالحجار ويتلفظون بحقها شتى الالفاظ البذيئة لانها تعود في ساعة متأخرة من الليل وتسكن وحيدة، إلا أنها على الرغم من الشلل الذي تتقنه تمد يدها له، لتأخذ الوردة منه ولتتأكد عبر نظرةٍ عميقة من ان الاطمئنان الذي انتابها كان بمحلهِ او كان بسبب استلطافه لها، إلا أنه أمام تلك النظرة كان اشد ذكاءً، حتى أنه تأكد تماماً من انه عرف منها ما يُريد معرفته.

ترجع لمنزلها وفي جوف صدرها انفجار مدوّي، تستلقي على اريكتها حال دخولها الى منزلها دون ان تُغير ثيابها، لم تخلع حذاءها ايضاً، تمسك بالوردة الحمراء بيدها ثُم تضعها على صدرها، تتأمل ذلك الحزن الشديد الذي ينتاب كل النساء وقتما يهدي لها الورد رجلاً غير الذي تتمناه، تتلاعب بمشيئة الاقدار وتمنح (لآسر) بعضاً من مميزات ذلك الثري، تعود لتمنح ما للثري (لآسر)، تتنفس الصعداء ثُم تبكي وفي قلبها حسرة ضياع ما كانت تكتنز، تنشطر فِكرة تَقبُّل اعجاب ذلك الثري لشطرين ينفي احدهما الاخر، كأنها تنقسم لامرأتين مُتضادتين، احداهُما يساريةٌ ساذجة تدعي بأن للجدلية الماركسية الفضل في تطور الكون، وأخرى مؤمنة بأن (اليسوع) يمسك زمام أمور الكون ومواظبةً على حضور قُداس كنيسة حيها، تهمس وهي تستذكر حبيبها، تسأله عمّا سيؤول إليه الامر فلا يُجيب، تسأله بعينٍ ملؤها الدمع فلا يُجيب ايضاً،

تستدرك فتخبره بأن فكرة القبول والرفض تتجهان بإتجاهٍ واحد، تجزم له بأنها في نهاية المطاف ستلقى حتفها، تتوسل لطيفهِ باكيةً، تتمنى لو أن اسمه يُمارس رياضة الجَري بداخلها لئلا يزداد حجمه في كُل يوم.

أحاول بشتى الطرق اقناع (ياسمين) بأن الجزء المُظلم من القمر اشد جمالاً من جزئه المُضيء، وأن الذنب ليس ممقوتاً على الدوام، وأن هنالك ذنوبا تتشح بالفضيلة، ومن الواجب ان تُكنّى بفضيلة الذنب.

بأثر الوضع الاقتصادي الذي شهدتهُ (مصر) انذاك، توقف المسرح عن العروض وتفرقت تلك الاسرة التي جُمِعت بخلاف العادات والأعراف، صار (لآسر) شقته الجديدة وعمله الجديد وسكنت (شدن) وحدها ايضاً في أحد المساكن العشوائية توافقاً مع دخلها الضئيل، سافرا (ليلى) و(رؤوف) الى (المملكة العربية السعودية) من اجل العمل، حزن (آسر) وحزنت أنا ايضاً لسفرهما، كان ذلك بأثر سياسة الانفتاح التي تبناها الرئيس (السادات) وزيارته الى (واشنطن) وبعدما قررت حكومته رفع الدعم الحكومي عن السلع الغذائية وبات على عاتق كل مواطن الشراء بالسعر الحقيقي للسلع مضافاً إليها الضرائب، فبدت موجة الهجرة إلى خارج (مصر) للعمل، كان العراق ودول الخليج العربي للمصريين الوجهة الرئيسة للهجرة آنذاك، حصلا (رؤوف) و(ليلى) على عرض عمل بواسطة

أحـد مكاتـب التشـغيل في الخليـج، كان عرضـاً مُغريـاً بسـبب خبرتهـما في اعـمال الطباعـة وتشـغيل وصيانـة مكائـن الطبـع والتصحيـف.

يجلـس (آسر) في مشـهدٍ حزيـن يمـلأ مطفـأة السـكائر امامـهُ عـلى الطاولـة بتبـغ فـراق رفقائـه، ادخـل الى المسرح الـذي كان يصـور منزلـه الجديـد لأقـدم المواسـاةَ لي ولـه عـلى فراقهـما، اجد ملامحـه تتـآكل، كـما يفعـل الصـدأ بالمعـادن، وجهـهُ الكالـح كان يحمـل مـن الحـزن اشـد مـن حـزن فراقـهِ لرفقائـه، كان هـول الصمـت في حنجرتـه يبعـث لأنفاسـه صـدى، انصـب لـهُ الفِخـاخ فيتجاوزهـا، كان يضمـر شـيئا لا يقـوى عـلى البـوح بـه، تأثـرت تجارتـه بأثـر الوضـع الاقتصـادي وصـار غـلاء المـواد يؤثـر في حركـة الأمـوال في السـوق، أدى كسـاد الحركـة التجاريـة الى خسـارته لجـزءٍ مـن رأس المـال الـذي يتداولـه والديـون المتراكمـة في السـوق اتفـق الجميـع عـلى عـدم الوفـاء بهـا في الوقـت الراهـن آنـذاك، توقفـت بالمقابـل تجارتـه في النقـل وفكـر حثيثـاً في أحـد الخياريـن، امـا الامتثـال للكسـاد ولمـا سـتؤول إليـه الاحـداث أو لتغـير نـوع تجارتـه والمقامـرة بنصـف رأس المـال خاصتـه بالابقـاء عليـه لـدى الدائنـين الذيـن لـن يفـوا بـه إلا بعـد انتهـاء الكسـاء، أحـاول اقناعـه بالخيـار الثـاني إلا ان حزنـه يظـل بـذات المقـدار، يخـبرني بـأن ذلـك ليـس بحـل، لأن شركتـه كانـت للنقـل والشـحن وديونـه لـدى تجـار المـواد الغذائيـة والتجـار في السـوق عمومـاً لا يفـون بديونهـم

نقداً وحين المطالبة وإنما مقايضةً بديون أخرى لدى دائنيهم سعياً لأن الاحتفاظ بالمال نقداً هو الضمان للتقليل من حجم الخسارة مع كل ازمةٍ مالية يشهدها السوق.

بين الوهم والصحو، يعلو صوت الموسيقى في مشهدنا ذاك، تتحرك كل الأشياء من حولنا وتحوم حول مكانها، نمسك معا بقارورة السُم لنحاول اخذ جرعةٍ تخلصنا من ذلك المأزق فنجدها فارغة، زوجي يطرق بابا وانا في منزل (آسر)، ارتعد خوفاً يصور جلياً هرع الزوجة الخائنة عند مجيء زوجها لرؤيتها على حقيقتها الرعناء، لم يكن هنالك ثمة متسعٍ للوقت، أسأل كيف يهرب (آسر)، كيف أهرب أنا؟ لم يكن لي ثياب عِفة لأرتديها؟ تلك الثياب التي من واجب كل امرأة أن ترتديها وهي بانتظار زوجها، حبي له لم يبق لي أي ثيابٍ تتسمُ بالعِفة، فكك اقمشتها وصنع لي منها فستان زواجٍ ابيض، ملكني منذُ ان طلب إلي الزواج، امسك بيده لأحثهُ على الإسراع بالخروج من الباب الخلفي كما في كل مرة، فينهض (آسر) بخطواتٍ بطيئة، شتانٌ بين الجمر الذي في فمي والثلج الذي في فمه، ينهض ثُم يسير متثاقلاً، كأنه يحاول لومي على ما نحن عليه، ما الذي يجبرنا على تجرع قارورة السم في كل مرة حتى أضحت خالية، يلومني لأنني لم اقبل الزواج به وما زال قلبي ينبض بحبه، يخفضُ بندقية لومه واخبئ أنا سكين الندم خلف ظهري، نعقد الهدنة كقنطرةٍ بين قريتين متجاورتين طال بينهما النزاعات

القبلية، التفت الى الجمهور فأرى (شريف) لا يزال جالساً في الصف الأول، شاهداً على ما حدث ويحدث، يقبض كف يده من شدة الغضب وينظر إلي كأنه على وشك ان يقتلني.

يدخل (طارق) الى المسرح، تغير الديكور بأكمله ليصور منزلي، اعانقه بيدٍ واحدة، تلاحق يدي الأخرى (آسر) لتتلمس وجنته وتلتمس رضاه، يلقي عليّ السلام ثُم يجلس على الاريكة، يطلب مني أن اعد له فنجاناً من القهوة، فاخبره بأنني سأعُد فنجانين، جلست برفقته لأشرب معه القهوة تملقاً ساذجاً له، لئلا يعُد لي المكايد، إلا انه حدثني مجدداً بشأن امي، يخبرني بانها اتصلت مراراً لترجوه لاتصل بها، كنت لا أُجيب عن اتصالها وفي كل مرة يخبرها الخدم بعذرٍ ما، يسألني لمَ لمْ تزرنا من قبل فأخبره بأنها تشكو من مرضٍ عُضال وأنها طريحة الفِراش لا تقوى على النهوض إلا لتناول دوائها، كانت قد اخبرته امي في اخر اتصالٍ لها بأنها لم ترني منذُ اسابيع، كنتُ في كل مرة اكذب بلكنةِ كِذب السياسيين في اجتماعات التفاوض بأنني ذاهبةً للقائها وما ابرح حتى اجد اقدامي تأخذني لمنزل (آسر).

افتعلت البكاء، صرخت بصوتٍ عال، انهار ثُم اقع على الأرض، اجدتُ التمثيل جيداً لأقنعه بأن امي كانت تكذب وتحتال، وانها لا تصلح لأن تكون اما، لأن خلافاً بسيطا لي معها دفعها لاتهامي بعدم زياتي لها لاسابيع، اطلب اليه الذهاب معي لكشف كذبتها.

يومها، كان ليذهب معي (شريف) لولا تمثيلي وبكائي، هدأ من روعتي واحتضن رأسي وانا على الأرض، طلب الي زيارتها لأنها وبكل الأحوال امي، وان المسائل الخاصة يجب ان تُحل على انفراد فليس من اللائق ان يأتي معي لزيارتها وسط الخلاف ذاك، فتكللت مخططاتي بالنجاح وقطفتُ ثِمار كل شجرةٍ زرعتها من أجل الانتقام الذي كنت اضمره.

ذهبتُ لها صباح اليوم التالي، وجدت زوجها المخمور يتجول وسط البيت بثيابٍ رَثة، كانت راقدة في فراشها وعلى وشك الموت، ازّرَقَ وجهها وشَحُبَ لونه، مُغمضةُ العينين وأطرافها باردة، لكن البرود الذي انتاب مشاعري اتجاهها كان اقسى، تمنيت لو أنها تموت مِيْتَةً بشعة وليس في فِراشٍ دافئ، جاء زوجها لي بكأس ماء فصرخت بوجهه عن أسباب رقود امي بهذا الشكل، وهل جلب لها الطبيب الى المنزل فأجابني (بنعم) عِدة مرات، انظر إليه فأتذكر افعاله الدنيئة، لم يزل يشرب اردأ أنواع الكحول حال استيقاظه صباحاً، ذو رائحةٍ نتنة وشعرٍ كث، وقذر لدرجة أنه لم يُقلم اظافره منذ شهور، بصقت في وجهه وطردته خارج غرفتها لأنني كنت اريد الحديث معها على انفراد، هددته بالقتل طعناً بسكينٍ حاد احملهُ في حقيبتي ما إذا ظهر ورأيته حال خروجي، هرع بالخروج راكضاً واغلق الباب من ورائه.

الأشـياء مبعثـرة قـرب سريرهـا، كأس المـاء قـرب رأسـها غريـب، كان المـاء الـذي بداخلهـا بلـونٍ مُقـزز، عقاقيرهـا مُبعثـرة، اغطيتهـا بيضـاء مُتسـخة، انظـرُ إليهـا باشـمئزازٍ كبـير، فخـورةً بـما آل إليـه أمرهـا، تحولـت رفـوف الكُتـب العلميـة والأدبيـة في منزلهـا الى رفـوفٍ لزجاجـات الخمـر الفارغـة، مذيـاع البيـت كان يبعـث بأغـاني الصباح ونحـن نتنـاول افطارنا تحـول الى صـوت انـينٍ للعاجزيـن والمـرضى، سـتائر منـزل قاتمـة ومُتهدلـة، كانـت قـد حركـت اجفانهـا بعـد صُراخـي وانـا اطـرد زوجهـا، جئـت بكـرسي مـن الغرفـة المجـاورة مسـحتُ بيـدي الاتربـة التـي تراكمـتٍ عليـه وجلسـتُ بقربهـا، التفـت إلي وفرحـت كثـيراً، كانـت تتحـدث بصعوبـةٍ بالغـة، سـألتني عـن أسـباب غيـابي عنهـا فأجبتهـا بنظـراتِ جحـود، افهمتُهـا وانـا صامتـة تفاهـة رضـا الوالديـن في اولويـات حيـاتي، وأنـا اجلـس باسـترخاء اُحـركُ بقدمـي عبثـاً، أقـول لهـا:

- لمَ اردتِ رؤيتي؟
- لمَ لا تزوريني؟
- لا اود ذلـك. (أقـول وانـا أحـاول أن اُصفـف شـعري بيـدي)
- انا على عجلة، لمَ اردتِ رؤيتي؟
- هنالك امر مهم.
- وما هو؟
- هل بعث اخوتكِ برسالةً لي؟

- ليس لدي اخوة، أولئك اولادك.، نعم بعثوا وما زلت اتواصل معهم وما زالوا رافضين الرجوع الى مصر.

- اعلم بأنكِ تضمرين لي الحقد، لكن ليس هنالك خيار اخر، فكرت كثيراً فيما عرضته عليّ. (تقول وهي تَسعِل)

- وما قرارك؟

- موافقة، ما عاد لي خياراً اخر، طلب الي بالأمس الذهاب معه لنقل ملكية المنزل لمشترٍ جاء به ولم اعلم الثمن، اخبرته بأنني غير قادرة على المشي فجاء بكرسي متحرك ورفضت ايضاً فضربني وسكبَ الماء الساخن على وجهي.

- هل انتِ نادمة؟ (أقول وانا انظر إليها بحَدة)

- فات الأوان، لم يعد هنالك متسعاً في الوقت للندم.

- امامكِ الوقت، لم يحن موعد موتكِ بعد.

- لا تستعجلي موتي فأنا اموت بالفعل.

اعود لأجلس باسترخاء، اضع كلتا يدي في جيوب معطفي، كانت غُرفتها باردة جداً، تقول لي:

- اصبتُ بمرضٍ في الرئة، أخبرني الأطباء بأن هنالك ورما في رئتي يستفحل حجمه يوماً بعد يوم، ويتوجب استئصاله.

- اعلم ذلك منذ شهر، منذ اخر مرة زرتكِ فيها، كان سعالكِ يُصاحبه رذاذ دم، سألتُ طبيباً واكد لي أن

ذلـك أحـد اعـراض وجـود الأورام الخبيثـة عـلى الرئـة، ففرحـت كثـيراً.

اختنقـت مـن شِـدة السـعال فلـم تقـدر عـلى قـول مـا كانـت تُريـد، طلبـت الي ان اناولهـا عقاقيرهـا، كانـت ثـلاث، اشرت بيدهـا وهـي تسـعل حتـى ازرَقّ وجههـا قاصـدةً علبـة دواء باللـون الأحمـر، أخرجـت منهـا سـائلاً وشربـت منـه القليـل، هـدأت عـلى الفـور واسـتمر سـكونها دقيقتـين ثُـم شربـت مـن كأس المـاء التـي بقربهـا، وعـادت تسـعل لكنهـا قـادرة عـلى الـكلام، تبعـد قطعـة القـماش المملـوءة بـرذاذ الـدم مـن فمهـا، وتخـبرني بالـدُرج الـذي احتفظـت فيـه بـأوراق ملكيـة المنـزل والتنـازل الرسـمي الخـاص بي، وانـا مـا زلـت اجلـس بـذات الاسـترخاء، اسـتمع لهـا وهـي تتحـدث عـن حُليهـا الذهبيـة التـي سرقهـا زوجهـا وباعهـا وعـن معصـم يدهـا كيـف تعرض لجـروح وهـو يحـاول انتـزاع أحـد اسـاور يدهـا، اقسـمت لي بعـدم امتلاكهـا لأي نقودٍ لـشراء دوائهـا وأن جارتهـا الصيدلانية تتكفـل اسـبوعياً بجلبـهِ لهـا، وهـي تسـتجدي انفاسـها تخـبرني بأنهـا تمـوت كل يـوم الـدواء ذو الغِـلاف الأحمـر، لأنـه الوحيـد القـادر عـلى جعلهـا تتنفـس بعـد نوبـة السُـعال وانـه باهـظ الثمـن، وانهـا لـو خلـت منـه فأنهـا سـتموت اختناقـاً، خرجـت مـن غرفتهـا وهـي تسـتجدي منـي نظـرة عطـف، او كلمـة وداع، إلا أني خرجـت ولم التفـت لهـا.

اعـود مسـاء اليـوم نفسـه الى منـزلي، توقعـت مـن (شريـف) ان يلاحـق طريقـي، مـا إن ثـارت الظنـون شـكوكه حـول زيـارة امـي، لم اذهـب (لآسر)، اجلـس في غرفـة نومـي أمـام مـرآتي، اشـعر براحـةٍ تامـة لعدالـة الاقـدار واتباهـى بلـذة الانتقـام، يسـألُني (طـارق):

- كيف وجدتِ أمكِ؟
- ليست بخير.
- عرفـت ذلـك في وقـت اتصالهـا، كانـت تسـعل كثـيراً، هـل هـي بحاجـة الى طبيـب او مشـفى؟
- لديهـا مـا يلزمهـا مـن دواء والامـر بـكل الأحـوال لن يجـدي نفعـاً.
- هـل هـي بحاجـة الى السـفر خارجـاً للعـلاج؟ أنـا ادفـع كل التكاليـف.
- كلا، لا اظنهـا قـادرةً عـلى السـفر، تشـكو مرضـا خبيثا في الرئـة.
- للأسف، آمل لها الشفاء العاجل.

كل مـا أقـول (لياسـمين) كان رسـالة وعليهـا ألا تفتحهـا إلا بعـد ان يتجـاوز عمرهـا الاربعـين، فلـم يـزل الوقـت مُبكـراً لتفهـم مـا كنـت اعنيـه حينـما اتقنـت السـمع بعينـي، والنظـر بقلبـي، كيـف كانـت لي شراهـة الانتقـام كشراهـة الانسـان البدائـي في طريقـة أكلـهِ لّلحـم النـيّ.

جعلت سياسة الانفتاح التي تبناها الرئيس السادات مصر في مهبِ الريح، كان من المُحتم أن يخضع للوصايا الامريكية، لم تكن زيارة وزير الخارجية الامريكية لمصر لتهدئة اوزار الحرب بعد التقدم الأخير الذي تقدمه الجيش المصري وتوغله داخل اراضٍ لم يكن من المتوقع ان يتخطاها فضلاً عن حيازته على اسرى من نظيره في الحرب (إسرائيل)، لم يكن أمام السادات خياراتٍ كثيرة، لكن من المؤكد كانت هُنالك خياراتٌ غير الحكم بالاعدام على قطاع التصنيع مقابل ازدهار قطاع الاستيراد، اثمرت سياسته الاقتصادية فاكهةً فاسدة، لم يكن ذلك القرار صائباً تزامناً مع الوضع الاقتصادي الذي مرت بهِ مصر آنذاك، لم تكن هنالك أي اعتبارات للموازنة ما بين معدل دخل الفرد وكُلفة ما يحتاج إليه يومياً، اندمجت طبقات المجتمع المصري في تلك الآونة من ثُم انبثقت منها طبقتان فقط، الطبقة الاولى تأكل من اجود أنواع الاكل المستورد وأخرى تأكل ما يتبقى في اطباق الطبقة الأولى، فجأةً ازدهرت شركات الاستيراد، لمع في سماء الاغنياء أسماء اغنياءَ جُدد لم يكونوا اغنياء بالوراثة، دفعت بهم تلك الأرباح الى الاصطفاف بالجنب لاغنياء مصر في صورةٍ جماعية إلا أن الفارق كان واضحاً بالرُقي والثقافة والشهادات الجامعية، باتت حركة الأموال داخل مصر مُبعثرة، انتشر غسيل الأموال على حساب أسماء وهمية وأخرى حقيقية ولكن بغطاء عباءات سياسيّ الحكومة وكِبار قادتها، صارت

حركة السوق وتداول السلع بيد من انتهج الجشع وكيف لهذا ان يعرف أُسس النُظم الاقتصادية ومُتغيراتها.

الفُقر أو الهجرة كانا الخيارين اللذين تبقيا أمام الشعب، هاجر بعضهم الى العمل كما فعل (رؤوف) و (ليلى)، وتبقى الاخر ليُلاقي حتفه بعاصفة الجوع التي ضربت رياحها أصحاب الدخل المحدود، باستثناءِ فئة قليلة تملك رأس المال في تجارةٍ رائدة، لم يدم الامر طويلاً حتى انفجرت كلمة الشعب وعادت أمجاد ثورة الجياع التي قام بها سُكان مصر ابان حُكم الملك الفرعوني (بيبي الثاني نفر كا رع) (٢٢٧٨ : ٢١٨٤ قبل الميلاد) بعد أن اكد الباحثون حدوثها على وفق آثارٍ وجدت في قرية (سقّارة) في (الجيزة).

تأثر الوضع الاجتماعي هو الاخر بأثر هجرة المصريين الى (المملكة العربية السعودية)، عادَ اغلب من كان يعمل هنالك بثوبٍ قصير وذقنٍ اشعث، بدأت الاسر تفرض الحِجاب على بناتها وانتعشت المفاهيم الحادة التي لا يود ان يصرح بها الكثير من المسلمين بالتداول، بين الحين والآخر يظهر من يُحرم السينما والرسم والموسيقى، تحدث اعمال شغب بين الحين والآخر من قلة اشخاصٍ بلباس الدين الإسلامي المتشدد، باتت مصر تشهد بشكلٍ صريح حوادث مقتل الاقباط وتكفيرهم بالعلن.

انتصرت الرأسمالية على الاشتراكية، شعارٌ يُرفع خلال أحد مشاهد مسرحيتنا المؤلمة، مشهداً يصور تلك الاحداث بدقة اشترك في تأدية الأدوار فيه ممثلون جُدد، تتعالى أصوات الجماهير ما بين مؤيدٍ ومُعارض، لم يكن ذلك المشهد إلا انعكاساً واضحاً للشارع المصري، كانت الغرابة في أننا نصور ما مر على المشهد السياسي بقولٍ جريء، سمعنا بأن قوات الشرطة انتشرت خارج المسرح ولكننا لم نكن نخاف، لمسرحيتنا مأساةٌ عشنا فيها بحياتنا الشخصية فلا ضير لو انها شملت الوطن بأكمله.

أشادَ الكثير من الكُتاب المصريين بأن سياسة الانفتاح آنذاك لها اثارها الإيجابية في اقتصاد (مصر)، تعالت الأصوات المنادية للمجد للانظمة الليبرالية، تغيرت نهج الحكومة المصرية في وقتها من الاتكاء على الكتف الروسي الى نظيره الأمريكي، نُظراء هم بالفعل، فسياساتهم سواء، يستعدان للاجتماع في اشد الأوقات صعوبةً في الحروب بينهما لتجارة أعضاء الحكومات العربية، يتقنون سياسةَ المستحيل في زمن المُمكن لوضع الحلول لحروبهم، وشعوبنا العربية لا تتقن سوى (الفن التشكيلي) لتخليد ذكرى حروبها الرعناء.

يغلب الهدوء على المسرح، تضيء الانوار ركناً من اركانه، أقف فيهِ حائرة وأنا افتش في أغراض (شريف) كما تفعل كل النساء مع ازواجهن، بدأ ان يكون مضطرباً

وقتما يرد على الهاتف في الليل، لا اكذب إذا قلت بأن الشك ساورني بأن يكون المتصل (عشيقته) إلا أنني تصنت عليها مراراً ووجدت بأنه لم يكن يتحدث إلا بشأن العمل، وفي بعض الأحيان في موضوعات غير مترابطة، لطالما كنت ارجئ السبب لأسرار عملهِ الدبلوماسي، ما زال الشك يغتالني على ناصية طريقٍ مهجور وانا اشمُ ذات العطر على سترته وقميصه، نار تستعر بداخلي والشك يطعن صدري بسكينٍ صغير، أفكر لوهلة في ذلك الألم الذي يغتالنا حين يخون من نُحِب، لمَ لمْ أفكر ولو مرةً واحدة في ذلك الألم وانا اتسبب بهِ (لشريف)؟ لمَ اخشاه أنا ولا اخشى ان اتسبب بهِ لأحد؟

تؤلمني تلك الكلمة التي قالها لي زوج أمي وأنا القي بملابسهِ في الشارع، حين اصطحبت قوةً للشرطة لإزاحته من البيت بعدما ماتت أمي في صباح اليوم التالي للقائي بها، وجِدَتْ جثتها مُلقاةً على الأرض، اخبرني (شريف) بعد انتهاء مراسيم الدفن بأن سبب الوفاة كان سرطان الرئة، ولكن الحالة التي وجِدَتْ بها وقت وفاتها كانت تشير الى تجوالها في ارجاء المنزل بحثاً عن علبة دوائها ولم تجدها، اجيبه غاضبةً بأنها من المؤكد ظلت تسعل حتى زهقت روحها وذلك زوجها الدنيء لم يكن بقربها.

لم اقم بأية مراسيمَ لعزائها، اردتها أن تكون منسية، عزوت كل الأسباب الى بغضي لزوجها الذي ما عدت اطيق رؤيته مرة اخرى،

بعت المنزل بعد يومين من وفاتها واتممت إجراءات التسجيل في الشهر العقاري، اتفقتُ مع المشتري الجديد بأن يأتي الى البيت وأن يطلب الى زوج أمي مغادرة المنزل لأنه اشتراه درءً لتصادمي معه إلا أن الامر باء بالفشل، تعرض المشتري للضرب والاهانة من زوج امي أدى بالنتيجة الى تسجيله دعوى قضائية بحقه، يتطلب الامر حضوري للشهادة وقمت بذلك خفيةً عن انظار وعِلم (شريف) لئلا يكتشف امر حصولي على ثمن المنزل، ختاماً انتهى الامر بحضور قوات الشرطة واجباره على ترك المنزل، فدخلت برفقتهم وأنا اتوق إلى إهانته والقاء حاجياته وملابسه القذرة خارجاً.

آذيته وجعلته مشرداً في الشارع بلا مأوى، على المسرح يجسد أحد الممثلين الجُدد شخصيته، يصرخ ويضرب أفراد الشرطة وهم يضعون الاغلال بين يديه، اترقب انتهاء المشهد وانا على المسرح اختلس النظر إلى وجه (شريف) بعدما عرف الحقيقة، يفتح عينيه بشراهة، يفتحُ عينيه لالتهام ما حصل بغير علمه، التفت فيمر من قربي زوج امي برفقة افراد الشرطة، ورذاذ الكراهية يتنافر من فمهِ الوَضر يقول لي: «عاهِرة».

بدأ الأرق يداهم ليلي، صرت أخاف النوم في العتمة، تلاحقني امرأةٌ مُسنة بقامةٍ قصيرة جداً ورداءٍ ابيضٍ ذي اكمامٍ طويلة يتدلى شعرها الأسود القاتم على وجهها

ليُغطيه بالكامل، تقف في احلامي صامتة، تجيء وترحل كأنها تود ان تقول لي شيئا، ظل المشهد مؤثراً للجميع، ابقى وحدي على المسرح ولا اسمع سوى أصوات انفاس الجمهور، ابكي بحرقة ولا اريد التوقف عن البكاء، لا اريد سماع صوت امي وهي تسعل، صوتها يلين ويتحجر في آذاني، ارتعش، يضربُ رأسي دوارٌ يفقدني اتزاني، اسمع نقيق ضفادعَ مجتمعةٍ من حولي في بُركةِ ماء لا وجود لها، اتبعُ ظِلاً في غُرفٍ مُظلمة، اسمع مواءً لقطط جائعة، ابني هيكلاً من الطين وأدعي العُزلة، اخبئ صنماً لا يعني لي شيئاً فاثرثر بكلام عليه كما ثرثروا في السابق على (ود) و(سواع) و(يغوث) و(يعوق) و(نُسرا).

يرجع (طارق) جالساً على من ورائي، يرجع ذات المشهد الذي كنت فيه احدثه لما بعد زيارتي لأمي، تعود كل التفاصيل وادقها، يُقلب (طارق) كوب الشاي الذي امامه بملعقته بحركةٍ بطيئة، اتركه واذهب الى ركنٍ اخر يصور غرفة النوم في منزلي، اخلع حذائي وقلادتي والاقراط من اذني، افتح حقيبتي الصغيرة التي كنت احملها فأخرج السكين الصغير الذي كنت احمله خشيةً من زوج امي وهددته به، اخرج بقية محتوياتها والأوراق ملكيتي لمنزلها، ابكي مُجدداً باجفانٍ كئيبة، كأنني اذرف الحجر بدل الدمع وأنا اخرج دواء أمي ذا الغلاف الأحمر من حقيبتي.

(٦)

«إذ هـزت اليقظـةُ مرايـاكَ، ارجـع إلي، فأنـا مـا زلـت احـنُ لسـمارِ وجهـك» كلـمات أُرددهـا وذئـب مَجـاز الشِـعر بداخـلي يعـوي، اردُدُهـا وسـيئات افـكاري يقبعـنَ خائفـاتٍ في سراديـب الادب، وقتـما كنـتُ اجلـس بـين النـار والمـاء، وقتـما عرفـت بدقـة كيـف يُنسَـخ الألم بـألمٍ أشـد منـه، وقتـما التقيـا (شريـف) و(آسر) عـلى طاولـةٍ واحـدة وأنـا اشـاركهُما الحديـث عـن اوضـاع (مـصر) الاخـيرة، ترنحـتُ بـين المـوت والحيـاة وأنـا اجلـس بجانـب (شريـف) اتـذوق وجـه (آسر)، وأنـا امامـه احـذو حـذو نظـر عينيـه وهـو يسـتعمل قلبـي ببالـغ القسـوة.

بعـد توقـف عـروض مسرحنـا، اقنعـت (شريـف) لأن يكـون لي عمـلي الخـاص، اختلقـت فكـرة أن شركـةَ (آسر) تبيـع اسـهماً قابلـةً للربـح، وافـق (شريـف) بعدمـا اسـتقصى عـن الامـر بتفاصيلـه كافـة، اخبرتـه بأنني ذهبـت الى شركـة (آسر) وتعرفـت اليـه، وأن حديثـاً دار بيننـا اثمـر عـن موافقتـه لافتتـاح فـرعٍ آخـر لشركتـه يكـون بـإدارتي ذي نشـاطٍ تجـاري آخـر يُضـافُ لأنشـطته حتـى انتهـى حوارنـا بموافقتـه، يهـز (شريـف) رأسـه إيـماءً بالاعجـاب حينـما ناقشـنا الامـر بثقـة ممنوحـة لكلينـا، وكلانـا يضمـر بعقلـه نيـات قاتـلٍ مأجـور يتربـص بقتيلـه ليأخـذ اجـرهُ المتفـق عليـه ولُعـابُ الجشـع يسـيل مـن فمـه، يخـبرني بأنـه لم يكـن يعـرف مـن قبـل أننـي اجيـد العمـل في التجـارة، لم يكـن يعـرف باطـن الامـر، كان

كالبركان، نيرانٌ داخل جبلٍ تستعر، ولونه الاخضر يغري ذكور الغِزلان للقفز واللعب على منحدراته.

كان لقاء عمل، تعرفا الى بعضهما، تبادلا وجهات النظر التجارية ثُم السياسية ثُم الاجتماعية، هكذا جرت العادة في حواراتِ مجتمعنا آنذاك وما زالت، لكنني كنتُ كما كان (موسى) يقف أمام الطاغوت الأكبر، فرعون مشاعري التي أكنها وارسم على وجهي اضدادَها حين كنت اختلس النظر إلى وجهه البهي.

عَرّفهُ (شريف) بنفسه وبفكرةٍ مُقتضبةٍ عن عمله الدبلوماسي، بالمقابل عَرّف (آسر) نفسه بأنهُ رجل اعمال وأنه تورات التجارة عن ابيه، اختلق كذبة أنه منذ أن كان صغيراً كانت لأبيه شركةٌ للاستيراد والتصدير، خبأنا عن (شريف) علاقتنا لئلا يقتلنا دفاعاً عن الشرف، خبأنا عنه عملنا معا في المسرح إلا أن (آسر) اخبرهُ بذلك حتى اكتسى وجهي الشحوب، خفت كثيراً لكنه اتقن سرد حقيقة ذلك بنواةٍ كاذبة، يمرر ابهامه على صدغه ليزيل عرقه ظاناً بأنه يتعرق من شدة الارتباك، يدغم الاحرف بين الحين والحين وهو يتحدث، لكنني حين سألتهُ عن أسباب اخباره بذلك عزا الأسباب الى أن ليس من الممكن أن نُخبئ عنه ذلك، لأنهُ ادهى من ألا يتذكر وجهي حين هربنا تلك الليلة التي دهمنا فيها (شريف) ليلاً في المسرح، جزمَ (آسر) وقتها بأن (شريف) اذكى من أن يترك امر شركتهِ وشأنه وأنه

مـن المؤكـد سـيبحث عـن تأريخـه وعـن أصدقائـه، اعتقـد بأنـه لـو ادعـى حبـه للفـن وسـط انشـغاله بالتجـارة افضـل مـن ان يخـبره بأنـه كان يقـضي يومـه بوجبـة طعـامٍ واحـدة ابـان عملـه في المـسرح.

اطالـع زوايـا المـكان وكل الاضـاءات مـن حـولي، تتصـارع انفـاسي مـا ان اتفقـا في الـرأي او اختلفـا، انتابنـي شـعورٌ غريـب يؤكـد لي بـأن (شريـف) ابـدى بضـع تنـازلات في ذلـك اللقـاء، احـترت في جـدواه مـن ذلـك، بعقـلِ امـرأةٍ حمقـاء تخيلتـه يـود ان انشـغل بعمـلي لينـال وقتـه الـكافي مـع امـرأة اخـرى، تخيلتـه يرقـص معهـا وهـي ذات شَـعر بُنـي، إينـما وجدتهـا فأننـي حتـماً سـأقتلها، ومـا أن عـدتُ لرشـدي وجـدت سـبب مجيئـه وتعرفـه الى (آسر) كان مـن أجـلي وبنـاءً عـلى رغبتـي وإلحاحـي، كنـت حمقـاء في وقتهـا لكننـي وبـكل تأكيـد كنـت عـلى حـق.

عنـاق قـوي ووجـوهٌ مُكتئبـة، عناقنـا الواهـن تحـت مـدرج طائـرة الخطـوط الجويـة المصريـة العائـدة مـن السـعودية، عـادت (ليـلى) برفقـة (رؤوف) عـلى متنهـا صبـاح يـوم ذي درجـةِ حـرارةٍ مرتفعـة، عانقـتُ (ليـلى) فلامسـت الحـزن الـذي بقلبهـا، شـعر (آسر) بـذات الشـعور وهـو يُصافـح (رؤوف)، مشـينا معـا ونحـن نسـألهما دون توقـف عـن احوالهـما، احـدق بوجـهِ (ليـلى) فأراهـا كأنهـا فقـدت شـيئاً ثمينـاً، و(روؤف) ايضـاً، ذقنـه الاشـعث سـاور الشـك بي بأنـه اقتنـع بأحـدى التيـارات الدينيـة التـي كانـت تـصر بأنهـا الوحيـدة عـلى حـق، مـضى الوقـت سريعـاً ولم يُجيبـا عـن اغلـب اسـئلتنا، اخـذا

حقائبهما ونزلا في بيت (آسر)، تعجبا حال دخولهما لحالهِ كيف تغير، تعجبا أكثر لعلاقتنا التي أصبحت في العلن، لم تبق (ليلى) برفقتهم، مسكت بيدي من معصمها وطلبت إليَّ ان اصطحبها الى أحد فنادق (القاهرة)، إلا أنني اصطحبتها في تلك الليلة الى منزلي، سهرنا معا وحدثتني عمّا جرى لهما، كيف (رؤوف) تغير، كيف بات صدرها خاليا وهي تبحث بجسمٍ مُتهرئ عن قلبها بين الجُثث.

ندمَت لأنها أحبته الحب الشديد، لم اتفق معها آنذاك لأننا موضع تأثير لما نمر بهِ من ظروف، لأننا من الخطأ ان نسلم طوال حياتنا لمبدأ واحد، لأننا ما أن قررنا النزوح من حيثيات نشأتنا فأن عواصف الفِكر وبرق البحث لن يتركانا وشأننا، سيضربانا بعنف، بكت بدمع اكبر من مقاس عينيها وهي تخبرني بأنهما اختارا خيار الطَّلاق قُبيل رجوعهما بيومين.

ظلا طوال تلك المدة يعملان في مطبعةٍ كبيرة، كان دخلهما جيدا، إلا أن مدير المطبعة كان معتنقاً للأفكار الوهابية ومُقلداً نصوحاً للتيار السلفي، في بادئ الامر كان يدعو (رؤوف) الى الصلاة، لم يتجرأ في وقتها أن يخبره بأنه لم يصلِّ من قبل كما لم يتجرأ على اخباره عن فنه وعن عمله في المسرح، خشيةً على مصدر رزقهما، تعزو (ليلى) أسباب تشدده للتيار السلفي بوقتٍ قصير الى حُجرات عقله التي لم تقرأ عن الدين من قبل،

وعـن دخلـه الـذي بـدأ يرتفـع مـع كل صـلاةٍ وخطبـةٍ يذهـب بهـا (رؤوف) مـع رب عملـه، تخـبرني بأنهـا تخوفـت منه مـراراً الى أنـه كان يدعـي بأنـه يرعـى مصـدر رزقـه وأنـه سـمع رب عملـه ذات يـوم يقـول بـأن مـن المُحرمـات أن يبقـي تـاركاً للصـلاة يعمـل في مطبعتـه لأن أموالـه سـتؤول الى كافـر وأنهـا سـتُصرف لغـير مرضـاة الله، رِمشـها المُبلـل بدمـع الدهشـة يجعلهـا تصمت ثـواني ثُـم تعـود إلى الحديـث، حدثتنـي عـن ايـام جميلـة عاشـا فيهـا والضحكـة لم تكـن تُفـارق ثغرهمـا، حدثتنـي عـن اموالهـا التـي جَنوهـا حتـى تقاسـماها ليلـة طلاقهـما.

«كان زواجهـما العُـرفي وصمـة عـار في حياتـه»، هـذه كانـت عبـارة (رؤوف) التـي عـزا بهـا سـبب طلاقـهِ منهـا، طلـب إليهـا ان تلبـس النقـاب فرفضـت، وهـي بالـكاد تحجبـت تماشـياً مـن الظـرف الاجتماعـي في (السـعودية)، باتـا نقيضـين ينامـان عـلى سريـرٍ واحـد، آل امرهمـا الى الفـراق بالمعـروف، اخبرهـا بكلمـةٍ تنهـي حياتهـا الزوجيـة لأنهـا بـدأت بكلمـةٍ ايضـاً، لم يكـن بينهـما عقـد زواج قانـوني لتطالـب بحقوقهـا في المحاكـم الشرعيـة، تبكـي بمـرارة فقـدان البنـت لأبيهـا لأنهـا وهبـت نفسـها لـه بثمـنٍ بخـس، تـردف قولهـا بعـد ذلـك بأنـهُ لم يكـن كذلـك، (رؤوف) المؤمـن بالفِكـر الشـيوعي الثائـر المناضـل مـن اجـل حريـة الـرأي وازدهـار ثقافـات الشـعوب بـات احجيـة بذقـنٍ اشـعث يُحركـه مُتعـالٍ يعتـلي المنـبر كل يـوم جمعـة تحـوم مـن حولـه كاميـرات القنـوات التلفزيونيـة.

يرجع (شريف) في أواخر تلك الليلة فيتفاجأ بوجود (ليلى)، رحب بها اشد ترحيب مستذكراً مجيئها السابق وقتما طلبت إليه عودتي الى المسرح، أخبره بأنني ذهبت برفقة (آسر) لأصطحابها من مطار (القاهرة)، ألمح بطرف عيني نظرات تعجب بوجه (ليلى) فأتغاضى عنها، يسألها عن غيابها فتجيبه بصوتٍ كامد بأنها كانت تعمل في (السعودية)، يكرر ترحيبه ويطلب إليها بأن تطيب اقامتها في منزله وأن تحدثه عن أحوال المصريين هناك عند افطارهم صباح الغد.

اكاد التهمه وهو يتحدث، اتفحص حركات عينيه، حركة رقبته، أنفاسه، سيئات افكاري تنفقئ مثل الدمامل والورد الراقص في اوانيه على طاولتي يتحول الى اشواك قاسية وأنا انظر إليه والشك غمامةٌ سوداء أمام عيني، حدسي يخبرني بأنه كان مع تلك المرأة ذات الشعر البُني وأكذبه، تتصارع بداخلي ظنون السوء وثقتي العالية به فأركض افتش بجيوب بدلته عن رقم هاتفها، ارفع ياقة قميصه لأبحث عن عطرها، اتلمس بيدي اكمام سترته لأبحث عن اثر شعرها، لكن محاولاتي اجمعها تبوء بالفشل، لم اجد شيئاً، اعيد ترتيب اشيائه واهم بجمع ملابسه التي اعتاد تركها على الفراش والدخول للاغتسال حال عودته في كل مرة، لعله يود إخفاء آثار احمر شِفاهها من وجهه ورقبته، أسأل مراراً واندم وانا اعود ادراجي خائبة،

ولكن ماذا عساي أن افعل وشعور الغيرة في قلب المرأة ابشع من رائحة شواء جثة بعد قتلها خَنقاً.

تُرفع ستارة المسرح، يدخل (طارق) ليشاركنا الطاولة في منزلنا صباح اليوم التالي، يسأل (طارق) (ليلى) عن زوجها، تجيبه دون أن ترفع عينيها بوجهه ان الامر لا يزال بخير وهي تضم كفيّ يديها معا لتخبئ اصبعها الذي اضحى خالياً من خاتم الزواج، يستدرك قوله فيسألها عن أحوال المصريين فتخبره بأن الاجور الزهيدة مقابل العمل المُضني، وأن هناك ثمة أجور كبيرة نالها المتخصصون في مجالاتٍ محددة او المتهنين لمهنٍ نادرة، ومن ثُم تختم حديثها بعبارةٍ شمطاء تمدح فيها ارض الوطن مشيرةً الى أن العيش في ارض الوطن وإن كان صعبا فأنه أجمل من العيش الكريم في المهجر. وأنا ما زلت اقلب الحساء امامي بملعقتي لأرسم وجه (آسر) اسرد لها ما يقوله الإمام (علي بن ابي طالب) بكتابهِ (نهج البلاغة): «الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة» فتنال مقولتي تلك اعجابهم وصمتهم لثوانٍ اعود فيها لرسم وجه (آسر) في حسائي ثُمَ التهمه، أفكر ملياً بالتنازل عن روعة رؤية مناخ الجنة مقابل متعة البقاء في قعر جهنم برفقته.

وهو يقف من وراء الكواليس يختلس النظر إلي، اجلس في زاويةٍ اراه فيها ويراني، مرت اشهر سبقت عرضنا ذلك ولم اتفوه معه بكلمة، خاصمته شديد الخصام حتى افترقنا،

كان عرضنا المسرحي آنذاك رصاصة رحمة اطلقناها على جسد غزلنا القديم وهو يحتضر، تسألني (ياسمين) عن أسباب ذلك والانبهار يعتلي وجهها فأخبرها بأن ما فعله في وقتها جعل وجهه الجميل يتشقق في مُخيلتي وتنبت في تلك الشقوق حشائش ضارة، جعل ازيز ريح تجول داخل تجويفٍ يُخيفُني؛ كان على الأكثر فمه الذي كنت اعشقه.

على الرغم من وسامته ببدلتهِ السوداء وهو يتأنى بخطواتهِ إتجاهها بحذائهِ المُبتل بالنجوم، إلا أنها كانت رافضةً بأن يكون ظهرها مجسات بيانو يُمرر أصابع كف يده عليه وقتما يشاء، في موعدٍ في مطعم ناءٍ شارف موقعه اطراف العاصمة تنتظر (شدن) مُعجبهًا الأهم، ذاك الثري المغمور بالعطور الفرنسية باهظة الثمن، تحملق بوجوه الحاضرين مُحاولةً قراءة أفكارهم، تتبع حركة شِفاه امرأة تجلس امامها تتحدث لرجل وسيم بعد أن أنعمت النظر في عينيها وهي لا تثبت على موضعٍ واحد في وجهه، يرتبك بؤبؤ عينها، يتراكض بين وجنتيه، صدغه، شعره، فمه، تحاول فهم لمَ اعين العشاق ابلغ قولاً من حناجرهم، تحاول أن تكلم رجلاً اخر غير (آسر) وهي تضرب قلبها بكف مشاعرها من أجل أن ينبض من جديد، وهي تعرف جيداً حتى وأن اعتذرت العاصفة فأن غصن الشجرة المكسور سيبقى مكسوراً.

تلتقيه، تبتسم له ابتسامةً كاذبة محاولةً تقبل فكرة النظر بعينيهِ نظرة اعجاب، يبدأ الحديث بموضوعات متشابكة، ينتقي انتقاءً خاطئا لبدايات كلامه، يسألها عن أحب الأشياء لها فتختبئ في قلبها الإجابة، أجزاء من الثانية وكادت تخبره بأن عيون (آسر) أشد ما تُحب، إلا انها انعطفت عن قول ذلك فأخبرته بشهيتها المُفرطة لفاكهة الكرز، لم تخبره كيف قضت سنواتٍ وهي تشتري تلك الفاكهة في موسمها وغير موسمها بحثاً عن طعم احداها يشبه طعم تلك التي تناولتها من يد (آسر)، تقف بكلتا اقدمها على رئة مشاعرها اتجاهه، تنحني بوجهٍ عبوس لتخنق قلبها بكلتا يديها، تلهث ثُم تتنفس بهدوء، تَغيب عن وعيها ثُم تعود إليه، تحدق بوجه ذاك الثري متغاضيةً عن ظهور وجه (آسر) بوجهه، تلعق دماءً تسيل من ذاكرتها وذكرياتُها لم تزل ترسم رأسها بشَعرٍ منسابٍ لجانبين وهي تتكئ على كتف (آسر)، تبقى في قيد الانصات لما يقول وفكرة مشاركتها له بسريرٍ واحد امرٌ يحتدم مع نهايات كل جُملةٍ كان يُنهيها ويبدأ بغيرها، تَقبَلته، تَقبَلت بأثر ذلك حقيقة تُشير ببنانِها بأنها مومس، تجدها كلمة تكتب على جدران ارصفة وسط المدينة كلمة بلونٍ اسود في كل شارع تفكر في سلوكه لتعود ادراجها، فَكرت ملياً بحرق ثيابها في وقت عودتها الى المنزل خشية بقاء شيء من عطر ذلك الغني عالقاً بثيابها، تخاف لئلا تستيقظ صباحاً فتجد قربها (آسر) يشاركها منامها فينزعج من أمر خيانتها له، تبتسم بمرارة من فقدِ حبيبته بمرضٍ

عضـال مؤمنـةً بإسـتحالة تسـويغ نجاسـة فِكـرة كسـب المـرأةِ لقوّتهـا مـن التعـري.

يُنهيـان لقاءهمـا عـلى امـل اللقـاء مـرة أخـرى، تسـتغرب مـن عـدم طلبـه بـأن ترافقـه الى منزلـه او الى أحـد الفنـادق الفخمـة التـي تليـق بثيابـه وخاتـم اصبعـهِ المصنـوع مـن الذهـب والمُرصـع بأحجـارٍ غريبـة اللـون، تندهـش مـن روعـة لقائـه ورِقـة كلامـه الخـالي تمامـاً عـن أي إيحـاءٍ لغريـزة الرجـل الثـري مـا إن انفـرد بإمـرأةٍ تبسـمت لـه.

ترجـع الى بيتهـا برفقتـه في السـيارة، يسـلك ذاك الثـري ازقـةً مظلمـةً لم يعتـد سـلوكها مـن قبـل ليصـل الى مسـكنها، تتـألم وهـي تطلـب إليـه التوقـف أمـام مسـكنها الصغـير ذي الألـوان المتهالكـة، يـؤشر بأصبعـه لمدخـل المسـكن مُتسـائلاً عـمّا إذا كان هـذا مسـكنها فتجيبـه بأنـه هـو، يطلـب اليهـا عـدم النـزول مـن السـيارة، تترنـح في مخيلتهـا اسـئلةً واجوبـةً تضـاد احدهـا الآخـر، تُخمـن بوجـهٍ خائـف مـا سـيطلبه إليهـا، تُفكـر في عقـلٍ ضجـر عـن أسـباب منعهـا مـن مغـادرة سـيارته، تنظـر إليـه فـتراه بجسـم انسـان ورأس ثعلـب، ظـل هـو ينظـر مترقبـاً مـن المـرآة الصغـيرة في الزجـاج الامامـي للسـيارة لصـوتِ حديـثٍ يمتـزجُ بالمـزاح اتٍ مـن الخلـف، ينظـر إليهـا فيراهـا تحـاول جاهـدةً فهـم مـا يجـري، يمـر ثلاثـة رجـالٍ بالقـرب مـن السـيارة يتوقفـون برهـةً يحملقـون بوجهيهـا مـن خـارج زجـاج السـيارة، يلصـق حدهـم وجهـه عـلى الزجـاج المجاور (لشـدن)

ثُـم يرفـع رأسـه تـاركاً لُعابـه عـلى الزجـاج، يتراجعـون الى الخلـف مسـتأنفين حديثهـم الضاحـك، يواصلـون سـيرهم دون التفـات، ثُـم بصـوتٍ قاتـم يطلـب إليهـا النـزول والدخـول الى مسـكنها، (ليلـةً سـعيدة) تقولهـا لـه، فـلا يُجيبهـا بـشيء.

عـلى المسرح، يتعـالى صـوت عـزف (شـدن) كأنهـا تـضرب مجسـات البيانـو بألـواح خشـبية وليـس باصابعهـا، يصـور المشـهد دخـول (آسر) الى حجرتهـا بعـد أن دخـل بيتهـا بمفاتيـح كان مـا زال يحتفـظُ بهـا، يدخـل اليهـا وهـي تعـزف لحنـاً يترنـح بـين الحـب والخيانـة، يسـوغ الخيانـة مـن أجـل الحُـب ويسـوغ الحُـب مـن أجـل الخيانـة، ترفـع رأسـها وتنظـر إليـه، يبتسـم بهـا، تقفـز بـكل قـوة وتعانقـه، اشـعر بكلتـا يديهـا وهـي تخنـق رقبتـي وهـي تحتضنـه، أقـف خلـف الكواليـس وانـا انظـر إليهـما، أتذكـر وقـوف (آسر) وقتـما كنـت اعانـق (طـارق) الـذي يتخـذ دور (شريـف) عـلى المسرح وهـو عائـد مـن الحـرب، في تلـك اللحظـات التـي طـال عناقهـما فيهـا لمـا يزيـد عـلى ألـف عـام، كأن فمـي وقتهـا كان مخرجـاً للطـوارئ، كانـت الكلـمات تخـرج مـن فمـي غـير آبهـة بأنهـا عاريـة، عاريـة مـن الصحـة، كان هنالـك حريـق هائـل بداخـلي، احتطبـت اضلعـي نظـرة عينـاهُ إليهـا، كان ينظـرُ إليهـا بشـغفٍ كذلـك الشـغف الـذي كان يحتوينـي بـه، في وقتهـا ادركـت جيـداً حجـم ألم رؤيـة شريـك مـن نُحـب.

احـرك كلتـا يـدي بفوضويـة وبـكل الاتجاهـات أحـاول الهـرب ممـا أقـول وأنـا اود الوصـف (لياسـمين) كيـف كنـت امضـغُ آلامَ التَفكّـر بقصةِ)الغَرانيـق العُلى(وانـا اراهمـا معـا عـلى السريـر، تتوسـد صـدره وتغفـو بحريـةٍ تامـة، تبحـر عـلى اليابسـة بقـاربٍ فخـم، ينتهـي مـن سـيجارته ويحدثهـا عـمّا مـر بـه في غيابهـا، انظـر إلى أنفاسـها فأراهـا متبعثـرة، شـكل بؤبـؤ عينيهـا يكـبر ويصغـر سريعـاً، تمـوت خجـلاً مـن منزلهـا ومـن حيّهـا القمـيء، تسـقط بـين يديـه كصخـرةٍ مـن مُنحـدر عـالٍ، تجـيء قربـه وتنظـر بعينيـه بشـكلٍ مُريـب، تتحـلى بشـجاعةٍ بالغـة وتخـبره بـأن مسـكنها مهـما كان رديئـاً فـأن افضـل مـن زنزانتهـا في السـجن، يحظـى صـدره بوابـلَ مـن الرصـاص السـاخن، يحملـق بوجههـا ثـم يسـألها:

- هل كُنت في السجن؟

- نعم.

- متى وكيف؟ لماذا دخلت السجن وكان ذلك في أي سنة؟

- قبل ان تعرفني واعرفك.

- وما سبب دخولك السجن؟

- القتل العمد.

- ومن كان المجني عليه؟

– حيـوانٌ مفـترس، يشـبه شـكله شـكل الانسـان. (تقـول بنظـرٍ مُتشـتِت).

– وما الذي دفعكِ لقتله؟

– اخبرتـك بأنـه حيـوان مفـترس. (تقـول بضجـر كأنهـا لا تريـد الحديـث أكثـر).

كل ذلـك لم يعـنِ لـه شـيئاً لأنـه سـيظل يحبهـا، وهـي مـا زالـت تخشـى ان تأخـذه منهـا امـرأةٌ حمقـاء لا تفـز مـن نومهـا مـن أجـل ان تُقبّـل وجهـه.

مَـشى مُرقّـع، فاتـر الشـك، خامـل، كأننـي محمولـةً عـلى نعـش اسـودٍ، هكـذا كانـت خطـواتي وأنـا انهـض مـن الكُـرسي داخلـةً الى غُرفتـي، اجلـب صـورة اجتزأتهـا مـن صحيفـة قديمـة نشرت ذات يـوم كاريكاتـيراً رسـمهُ (آسر) في أحـد ازقـة القاهـرة، كان فيـه الرئيـس (السـادات) جالسـاً عـلى طاولـةً وامامـه صحـن يحتـوي عـلى قطعـة لحـم مشـوية، يمسـك شـوكةً وسـكينا بيديـه ورأسـهُ للاعـلى ضاحـكاً واسـفل الصحن أنـاس جيـاع بملابس رثـة يحملـون ذلـك الصحـن، صـوّرَ (آسر) بذلـك الكاريكاتـير عـدم اكـتراث الرئيـس لثـورة الجيـاع التـي اندلعـت صبـاح يـوم ٢٨/ ١/ ١٩٧٧ والتـي تسـببت بحـرق سـياراتٍ للشرطـة وصاحبتهـا احـداث شـغب في عمـوم القاهـرة والإسـكندرية، اعـود الى الشُرفـة واجلـس عـلى الكـرسي متعبـةٌ جـداً، تنظـر إلي (ياسـمين) والدمـع لا يـزال حبيـس عينيهـا، أسـأل في باطـن

عـن عقـلي عـمّا يـدور في ذهنهـا، لعلهـا تسـأل لمَ اتي مُتعبـةٌ مـن سريـري، لم تكـن تعلـم كـم هـو يزدحـم بالذكريـات، كـم هـو مُثقـلٌ بالغـزل، كيـف ضجيـج الحـزن فوقـه صاخـبٌ ولا يهـدأ، تنظـر (ياسـمين) الى الكاريكاتـير وتحـاول المـزاح معـي:

– مـن المؤكـد انهـا احـدى المُحرمـات المخبئـات تحـت سريـركِ المتهالك ؟

– نعم. (اقول بابتسامةٌ كاذبة كأن المُزحة اعجبتني)

– مـضى وقـت طويـل دون أن يجـري الحـدَّاد تصليحـاً بسريـركِ، لم اعـرف سر التمسـك بـهِ طـوال تلـك السـنين؟

لم تكـن تعلـم بأنـه ذات السريـر الـذي كان يجمعنـي بحبيبـي (آسر)، لاحقتـه عـبر عـدة منـازل لأشـتريه، كلفنـي ثمنـه كثـيراً، كثـيراً مـن المـال وكثـيراً مـن اللهفـة، مـا زلـت اوظبـه بوسـادتين، ولا تغمـض عينـي إلا وأنـا ملتفتـةٌ لوسـادته ويخيـل إلي وجهـه الجميـل، تنظـر إلي وأنـا انظـر الى البحـر، تعـرف بـأن ابتسـامتي كانـت كاذبـة فـلا تسـتأنف مزاحهـا، تسـألني عـمّا آلـت اليـه الاحـداث بعـد ذلـك الكاريكاتـير فأخبرهـا بأنهـا كانـت النهايـة، رسـمها (آسر) في تلـك الليلـة التـي عُرضـت فيهـا المسرحيـة، في ذلـك المشـهد الـذي صـور احـداث الشـغب التـي تزامنـت مـع ثـورة الجيـاع، كانـت فكـرة (آسر) لابعـاد أصابـع الشـك التـي اشـارت إليـه بعـد رسـمه للكاريكاتـير عـلى المـسرح ووصلـت انبـاء عـن انتشـار الشرطـة خـارج

المسرح، خرج (آسر) برفقة (رؤوف) خارج المسرح وذهبا الى أحد ازقة القاهرة ليرسم كاريكاتيراً مُغايرا عن ذلك الذي رسمه في المسرح، ولكن الشرطة تمكنت من نصب كمينٍ له.

وهو ينتهي من رسمه رصده أحد المارة فاطلق الصفير من فمه اتجاه شخصٍ اخر ينتظر بعيداً، كانت قوات الشرطة منتشرة بالزي المدني في اغلب الطرقات والساحات، لم يتمكن (رؤوف) من اكتشاف المكان قبل الرسم بسبب استعجالهما من اجل الرجوع سريعاً الى المسرح خلال ثلاثين دقيقة حتماً مع انتهاء المشهد التالي لظهورهما والاستراحة، صرخ (رؤوف) منادياً (آسر) بأن عليه ركوب دراجتهِ النارية التي بصحبتهما ولكنه اصر على إتمام توزيع الوانه، اختبأ (رؤوف) في أحد الازقة بانتظار (آسر) حتى ركب خلفه وهو يمسك بقدمه مُتألماً، تعرض في وقتها لرصاصةٍ أصابت عضلة ساقه اليسرى دون ان تستقر فيها، رجعا الى المسرح وضمد (آسر) جرحه ليستأنف دوره، اراقبه منذ ان دخل المسرح والحق به بالخفية حتى تمكن من تعقيم الجرح والوقوف مجدداً على قدمه، سألت ليلتها (رؤوف) فأخبرني بما حدث، وددتُ التحدث معه ومواساته، كان الاشتياق الذي اكنه له بداخلي لا يُعد بالايام او بالاعوام، حجم الحنين الذي كنت اكنه بداخلي كان يفوق فكرة الزمن، إلا أن خذلانهُ لي وضع جدارا كبيرا لم يتسنَ لي اجتيازه، مرت

مـدة طويلـة دون ان اراه او احدثـه، مـا فعلـه كان اكـبر مـن ان تغفـره أيـة آلهـة.

في صبـاح يـوم مشـمس، التقيتـه، مُمحـاة التعـب وراحتـي اجمـع، في مقهـى أعتـاد أجـواء الخمسـينيات مـن القـرن، يُعلـق صـور المشـاهير عـلى جدرانـه مـن شـتى دول العـالم، كان ذلـك الموعـد اشـبه بـشرارة اليـأس والإحبـاط التـي اشـعلت لهيـب فراقنـا، سـقطت سـقوطاً مدويـاً في حفـرةٍ حفرتُهـا بنفـسي، ، إلا انـه القـى القبـض عـلى عينـي بتهمـة الكُحـل المُبالـغ، تغـزل بي فجعـل ابتسـامتي تمتـد مـن اقـصى الغـرب حتـى اقـصى مشرقـه، ثُـم قـدم لي اعتـذاره بأوعيـةٍ فضيـة، النظـر إلى مفاتـن وجهـه في وقتهـا مَحَـقَ كل العَتـب، كنـت خائفـة مـن ان تنهـض (شـدن) بعـد أن جعلـت منهـا جُثـةً هامـدة في عقلـه، يسـألني:

- هل تعرفين شيئاً عن ليلى؟

- كلا، قضـت بضـع ليالٍ في منـزلي قبل ان ترجـع نادمةً الى بيـت ابيهـا في أسـيوط، لم يعـد لهـا مسـكنٌ هنـا، طلاقهـا مـن رؤوف لم يكـن في حسـبانها.

- تغـير (رؤوف) كثـيراً بعـد عودتـه من (السـعودية) لم يعـد ذاك الثائـر عاشـق الادب والفـن.

- هل ما زال يسكن في منزلك؟

- نعم.

- لعنـة التدين بعـد التيه جعلته انسـاناً يريـد تطبيق ادق تفاصيـل ديانتـه تكفـيراً عـن ذنوبـه في السـنوات الفائتة.

- خائفٌ أنا لئلا يكفرني ذات يوم ويستبيح قتلي. (يقول آسر مازحاً)

- سيجيء يوماً ويكتشف بأن الوائحه السمائية التي يترنم بها من صُنع البشر.

- سيموت قبل ذلك، (رؤوف) من أولئك الذين يصمون آذانهم للرأي الاخر، يتقوقع حول ما يريد تصديقه، بات متشدداً وداعياً لحمل السلاح بوجه الدولة.

- مؤسف، لكن أنا أرى بأن الدولة ستستأنف بنهجها (الناصري) في قمعهم وسيستمرون هم في الاقتتال، الاثنان هدفهم ذلك، الدولة تتمتع بقتلهم لأنهم الخصم الأشد ولطالما بقوا مستضعفين فأن الدولة قوية، وهم يتمتعون بموتهم من اجل انهر الخمر واللبن في الجنة.

اطفأ سيجارته وطلبَ كأس ماءٍ من النادل، حدثني عن محاولاته التي باءت بالفشل في اصلاح العلاقة بين (ليلى) و (رؤوف)، طلب إلي التدخل بينهما لكنني رفضت، لكن سرعان ما تداولت مخيلتي فكرة اضمرتها ولم احدث (آسر) عنها، اخبرني بأن تشدد (رؤوف) يزداد يوماً تلو الاخر حتى نعت (آسر) في اخر حوارٍ بينهما بأنهُ كافر، طلب إليه ترك الرسم والانضمام لجماعةٍ يحاول ومن معه من المتشددين تأسيسها، يشعل سيجارة اخرى وينظر نظرات

ارتباك من حوله، يخبرني بأن (رؤوف) يحمل في بيته اموالاً طائلة، يوفرون من خلالها الأسلحة الخفيفة والقنابل اليدوية، منعه من جلب أي نوع من الأسلحة لمنزلهما المشترك، يصف لي صعوبة العيش معه بعد ان تغير، يقارن بين (رؤوف) قبل هجرته وما بعد عودته، يبتسم فتشرق شمسٌ أخرى غير التي في سماء ذلك اليوم ثُم يحدثني عن صراخ (رؤوف) في وقت ما دخل المنزل ورأى صورةً شبه عارية معلقة في احدى الجدران، يضحك مجدداً وهو يستهزئ من طلبه محاولاً احراقها، ينتهي من شُرب اخر رشفةٍ من كأس الماء من امامه ثُم يقول:

- صديقي الغبي لا يعلم كم مرة يموت فيها الرسام حتى يخلق كائناً حياً في لوحته.
- يخلق!! بل يرسم. (اقولها بتعجب)
- كلا، يخلق، في هذا الكون ثلاثة فقط لهم القدرة على الخلق، الرب والرسام والروائي.
- انت متأكد؟ (اقولها مُبتسمة)
- نعم، ومن اجل التأكد من ذلك، ارجعي الى معنى فعل (خَلَقَ) في معجم اللغة العربية، خَلَقَ يعني (أوجَد وأبدَع مِن العَدَم) أو (كان سَبَباً لشَيء أَوْجَد وولَّد)، أخبريني عن أدوات أولئك الثلاث لينجزوا ما ينجزونه، لم يكن بحوزتهم سوى العدم.

بعثرني ثُم أعاد ترتيبي ونجح، كان دائماً كذلك،

يقـول الصـواب ولـو كان عـلى خطـأ، أنصـت لـه كأننـي في حـضرة الصـلاة، وعـلى الرغـم مـن ذلـك، مـا زلـت اطمـع لتنقيـة دمـه مـن اسـم (شـدن)، ابحـث مـن بـين سـطور كلامـه عـمّا يؤكـد لي بأنـه لا يحبهـا، تحدثنـا بموضوعـات شـتى ومـا زال عقـلي يبحـث عـن الدليـل لكلامـه، احسـاسي مـا زال يشـنقني بكلتـا يديـه وهـو مـا زال يؤكـد لي بأنـهُ يُحبهـا، مـا زال يبحـث بشـالِ الحِشـمة عـن منفـذٍ لنهدهـا.

اتخـذ شـهيقاً عميقـاً مـن هـواء يومنـا الذي شـارف عـلى انتهاء ظهيرتـه لأخـبر (ياسـمين) عـن مشـهدٍ اظهـر فيـه أنـا بوجـهٍ شـاحب، تنهـال صدمـة سـماعي لتسـجيلٍ صـوتي في احـدى الأشرطـة التـي يحملهـا (شريـف) في حقيبتـه بالـضرب المـبرح عـليّ، اظهـر في احـدى زوايـا المـسرح المضيئـة بـين الاخريـات المظلـمات اسـمع عـبر جهـاز تسـجيلٍ صغـير صـوت محادثـةً تـدور بـين (شريـف) ورجـل اخـر عـدة دقائـق، ثـم تتشـارك معهـا امـرأة لم اميـز عمرهـا مـن صوتهـا ولكـن صـوت الرجـل الـذي مـع (شريـف) كان قـد تجـاوز السـتين مـن عمـره، يتفقـان عـلى كيفيـة نصـب آلـة تصويـر في غرفـة فندقيـة، عرفـت مـن خـلال ذلـك التسـجيل بأنـه ينصبـون كمينـا لرجـل مـصري يحمـل الجنسـية الاجنبيـة وهنالـك شيء مـا في حقيبتـه يتفقـون عـلى سرقتـه:

- تمكنـت مـن الاتفـاق مـع أحـد المُسـاهمين المُـلاك للفنـدق وطلبـت إليـه حجـز الغرفـة المُتفـق عليهـا ثلاثـة أيـام قبيـل

الموعـد وان يجـري التعديـلات اللازمـة لمـا يتطلبـه تجهيـز الكامـيرا واخفاؤهـا. (يقـول الرجـل)

- احـذر مـن ان يكـون حجـز تلـك الغرفـة باسـمِ شـخصٍ يعـرف بالامـر. (يقـول شريـف)

- لا تقلـق، رُتِّـبَ كل شيء، حقـاً، هنالـك امـرٌ مهـم، الصديق رقـم (٨) كُشـف أمـره وكل تحركاتـه مراقبة.

- وكيف عرفتم ذلك. (تقول المرأة)

- لنـا وسـائلُنا وتسـجيلاتنا الفيديويـة. (يجيـب الرجـل مـع تعـالي ضحكاتهـم)

- اخـبر زوجتـه بعملـه بعدمـا سـألته عـن مصـدر أموالـه الغزيـرة وجـاء باكيـاً ليطلـب العفـو لـه عـن هـذا الخطـأ وقـدم الضـمان بأنهـا لـن تبـوح بـشيء. (يقـول شريـف مسـتطرداً)

- تأكدتم من عدم افصاحهِ عن شيء مهم؟ (يسأل الرجل)

-لم يكـن بحوزتـه شيء مهـم ولم يؤمـن مـن قبـل عـلى سرٍ مهـم، إلا انـه مُراقـب بعدمـا اشـترى سـيارة فخمـة لا توائـم الحـي الـذي يسـكنه، غبـي اثـار الشـكوك حـول نفسـه وتراقبـه السـلطات فحسـب، تمكنـت مـن الاطـلاع عـلى تقاريـر الامـن المكتوبـة عنـه لم يذكـر عنـه سـوى الشـك بأنـه سـارق. (تقـول المـرأة)

- يجب ان يُسافر، احجزي له على تذكرة. (يقول الرجل)

- تأكد من انه سيُغادر على متن أقرب رحلة. (تُجيب المرأة)

لم أتمكن من معرفة المزيد، كما لم أتمكن من طرد شبح الخوف والفضول من رأسي لأتناسى الموضوع، كأنني اجنجة فراشة تحترق بهليب شمعة ارتطمت بها عمداً، لغة حوار (شريف) لم تكن تلك التي اعرفها، لم يكن ذلك الرجل الذي تزوجته، لم انم بقربه ليلتها من شدة الفزع، تداعيت المرض لأسهر طوال الليل لئلا انام قربه، حرصت على ترتيب اشيائه بعد سماعي لذلك التسجيل لئلا يشعر بمن يفتش حقيبته، ولكي أتمكن من استئناف ثقته بي لترك حقيبته دون احكام اقفالها بأرقام سرية، اكتشفت وقتها بأنه لم يكن يعمل بالسلك الدبلوماسي فحسب، كان له عملٌ اخر، كانت لهجته مع الاخرين في تلك التسجيلات الصوتية تضفي عليها صيغة الأمر، كأن كل من يوجه له الكلام خاضعٌ له، استمريت أياما انصت فيها خلسةً لكل التسجيلات التي كان يحتفظ بها في خزنته.

أراد كاتب النص المسرحي آنذاك أن يصور بشكل تام حقيقة (شريف) بشخصية (طارق)، إلا انه من غير المتوقع ان تظهر التسجيلات الحقيقة على المسرح، وان يكون فيها صوت (شريف) لا صوت (طارق)، لم يكن أحد يتوقع ان يكون العرض حقيقيا وواقعيا الى هذه الدرجة، من بعد

ذلـك المشـهد ركضـتُ الى الكواليـس خائفـة، كان وجـه (شريـف) يـكاد ينفجـر مـن الغضـب لكنـه تمالـك نفسـه لئـلا يثـير الشـبهات حولـه وخصوصـاً ان لا أحـد قـادرٌ عـلى تمييـز صوتـه مـن الحاضريـن وبعدمـا سـمع الجميـع بـأن الشرطـة خـارج المسرح تُلاحـق الرسـام الكاريكاتـيري الـذي اختبـأ فيـه.

وانـا اقبـع خائفـةً هنـاك اسـمع عـلى المسرح صـوت هتافـاتٍ عاليـة، «لا إلـه الا الله .. السـادات عـدو الله»، «ياحاكمنـا في عابديـن .. فـين الحـق وفين الديـن»، كان مشـهداً يصـور احداث الثامـن عـشر والتاسـع عـشر مـن كانـون الثـاني ١٩٧٧، ثـورة الجيـاع التـي ترأسـها العـمّال، الاسـم الحركـي لاتبـاع الحـزب الشـيوعي في مـصر، ذكـرت الصحـف الثـلاث الأكـبر آنـذاك خـبراً عـن أحـداث زعزعـة واضطرابـات في عمـوم المحافظـات بغيـة قلـب نظـام الحُكـم، وافـق في وقتهـا الرئيـس (السـادات) مرغـماً بالتراجـع عـن قـراره الاقتصـادي بشـأن رفـع الدعـم فاعلنـت حكومتـه ذلـك خـلال نـشرة اخبـار السـاعة الثانيـة والنصـف ظهـراً واوعـز لقطعـات الجيـش للنـزول الى الشـارع وحُظِـرَ التجـوال حتـى مسـاء ذلـك اليـوم، زُجَ بـالآلاف مـن أولئـك المتظاهريـن في السـجون بتهمـة احـداث الشـغب والانتـماء إلى الحـزب الشـيوعي، لاحقـت قـوات الشرطـة الكثير مـن رجـال القانـون والمُحامـين والكُتـاب والفنانـين لـذات التهمـة، لم يتبـق في الطرقـات أحـد منهـم، كانـت اعدادهـم اكـبر مـن أن يضمهـا سـجنٌ واحـد،

وزُعِّـوا بـين سـجن (طـرة) وسـجن (الاسـتئناف) وسـجن (بـاب الخلـق) وسـجن (أبـو زعبـل).

يصـور المشـهد قضبـان سـجن يكتـظ بالمتظاهريـن بثيـابٍ رثة، يهتفـون بصـوتٍ عـال: «عبـد النـاصر ياما قـال .. خلـوا بالكـوا مـن العـمّال» يهتـف بعـضٌ مـن الجمهـور معهـم، هتـفَ مـن كانـت ميولـه يسـارية، يصمـت بعـض اخـر حُبـاً (بالسـادات) عـلى الرغـم مـن يسـاريته او عـلى الرغـم مـن بغضـهِ لهـا، تتعـالى أصـوات الهتافـات أكثـر بعـد ان انضـم متشـددو الحركـة الإسـلامية لهـم، مشـهدٌ يـكاد يجـزم للعـالم بـأن الفئتـين المُتناحرتـين توحدتـا مـن اجـل اسـقاط نظـام (السـادات)، تُغلـق سـتائر المسرح عـلى عجـل دون ان ينتهـي المشـهد، لم يظـن مخـرج المسرح بـأن وقـع الهتافـات عـلى الجماهـير سـيكون بتلـك الشـاكلة، كانـت قـد مـر الكثـير عـلى تلـك الحادثـة، مـات مـن مـات وحوكِـم مـن حوكـم وأُطلِـقَ سراح مـن وشـى برفاقـه.

تقاطع حديثي (ياسمين)، لتسأل:

- ومـا الحقيقـة؟ هـل كانـت ثـورة (جيـاع)؟ أو ثـورة (حراميـة)؟
- الاثنان.
- كيف؟
- كانـت سياسـة (السـادات) ذات منعطفـاتٍ قوية، في السياسـة يجـب ان يتـدارك السـياسي مواقفـه وتصريحاتـه

كما يتدارك سائق الشاحنة عند المنعطف، يجب عليه ان يقف ملياً على مقاصد كلماته محلياً ودولياً، ان يتذكر كم تحتوي خزينة دولته، كم يكفيه اكتفاؤه الذاتي من العيش فيما لو دخل في نزاع دولي، فضلاً عن وجوب تفحص متانة قاعدته الجماهيرية، كان السادات ينعطف سياسياً بشكل سريع، إلا انه من اعظم حُكام مصر سياسياً، التظاهرات كانت في اليوم التالي لتصريح الحكومة بأنها زادت رواتب العاملين بقدر (١٠٪) ثُم صرحت بزيادة أسعار كل السلع التي تدخل في حياة المواطن المصري بعد أن قررت المجموعة الاقتصادية برئاسة الدكتور (عبد المنعم القيسوني) حزمة إصلاحات اقتصادية من اجل النهوض باقتصاد البلد الذي ارهقته الحروب المنصرمة، كان الشعب قد اعتاد دعم الحكومة لاسعار السلع الاستهلاكية للفرد حتى اعتاد الجلوس في المقاهي وانتظار اللقمة لتصل إلى فمه، لم يدرك ان الحكومات السابقة ارادت منه ذلك الجمود لتكرس كل أمواله للحرب والتظاهر بأن رائحة الانتصار ازكى من رائحة الرخاء الاقتصادي، التظاهرات كانت رد فعل سريع، كيف للشعب آنذاك ان يعرف حجم الضرر الذي سيصيبه؟ من حَللَ له ذلك القرار اقتصادياً؟ من قرر ان يكون التجمهر في مدينة (حلوان)؟ لتمتد الى القاهرة بشكل سريع، من المؤكد أن الشعب آنذاك كان قد اعتاد التجمهر والهتاف

بحكم الحروب ودعايات الانتصار المزعوم التي مر بها، إلا ان هنالك تساؤلا؛ هل كانت تلك المظاهرات كميناً لاسقاط النظام؟ لإحراج الرئيس أمام شعبه لأن يختار احدى الخيارين اما التنحي عن السلطة او إبادة المتظاهرين؟ انتشرت عدة اخبار مفادها ان وزير الداخلية آنذاك اللواء (سيد فهمي) اخبر الجهات العليا بوجود التجمهر والاستعداد الى التظاهر إلا أنه لم يتلقَ الرد، واخبار أخرى تفيد بأنه تلقى رداً لإخطاره بأن عليه مواجهتهم بالرصاص الحي إلا أنه رفض لشدة وطنيته، وفي الختام تمت اقالته؟

- وهل الغت الحكومة قراراها بالفعل؟ أو كان ذلك مُخدراً لتهدئ سخط الشعب؟

- نعم، أُلغيت قرارات رفع الدعم وعادت الأسعار الى وضعها السابق واضطر (السادات) للانتحار من اجل شعبه.

- الانتحار!! (السادات) اغتيل، ولم ينتحر.

- السادات انتحر، اتبَعَ سياسة (الممكن في زمن المستحيل) من اجل أن ينقذ مصر، كان الدافع من اجل قرار رفع الدعم هو امتناع البنك الدولي من اقراض مصر مئتي مليون جنيه مصري، كان البلد على وشك الانهيار اقتصادياً، كان السادات يفكر في كيف ان تكون مصر عظيمة خاليةً من أي تدخل خارجي او استثمارات في جوفها ايادٍ خبيثة تعبث باقتصادها وبالمقابل كان

الشعب لا يُفكر إلا بقوت يومه، من الصعب أن يترك الحاكم المُحنك سياسياً القرار لشعبه خاصةً ما إذا كان غالبه جاهلاً بشؤون السياسة، انتحر السادات خلال قرارٍ اتخذه رديفاً للقرار المُلغى، انتحر حالما قرر أن يسدد ديون مصر برصاصاتٍ تلقاها في عنقهِ وصدره.

يرهقني التعب فيكاد يُغمى عليّ، تُحاول (ياسمين) افاقتي، تقُحِم الدواء في قمي وابصقه، لدي موعدٍ مهم عند المساء ولا يجب أن اتناول أي ادوية، صداع شديد، تمنيت لو انني قادرةٌ على النوم، لعلي اصحو برأسٍ غير رأسي، أغمض عيني لأواصل الذكرى، أرى جثتي يتصارع على اكلها ذِئبان، وأرى ضباعاً تنتظر على بعد امتار لتأكل ما سيتبقى منها.

بعد ضجيج المشهد السياسي، تظهر (شدن) بمفردها على المسرح، تُصور تجوالها الأول في منزلها الذي انتقلت للعيش فيه برفقة صديقها الغني، تلمس كل شيء باطراف اصابعها، تمشي بغنجٍ مُدعيةً الغبطة، تقف أمام مرآة بأطارٍ خشبي لتنعم النظر في جسدها، تتماهى بقوامها الجميل، تجلب طبقاً من فاكهة الكرز وتجلس أمام المرآة بحثاً عن (آسر)، او عن ذلك الشعور الدفين الذي تكتنزه المرأة من قاع رجل احبته، ما زالت تقضم الواحدة تلو الأخرى ببطء دون ان تأكل احداهن، تدفع الطبق قليلاً عنها، ترفع قدميها على الكرسي الذي امامها وترجع برأسها

الى الـوراء فيتـدلى شـعرها خلفهـا، أنعـم النظـر في وجههـا فـأرى دمعـةً واحـدة تهطـل مـن عينهـا، وأنـا مـا زلـت انظـر إليهـا خلسـة مـن وراء سـتارة المسرح، مـا تركـت لهـا مشـهداً إلا وراقبتـه ومـا كان هنالـك إحسـاس بداخلهـا إلا وشـعرت بـه، كأنهـا كانـت تخزنهـا ولا تـود ذرفهـا لـولا تـدلي رأسـها الى الـوراء، يكمـن بداخلهـا صمـت طفـلٍ مُصـاب بالتوحـد، وفي عينيهـا صـورةٌ لطـيرٍ مذبـوح، يعتـلي صـوتٌ يتزامـن مـع صـداه يفصـح بأشـد وضـوح لمـا طلبـه إليهـا صديقهـا الغنـي مقابـل العيـش الرغيـد، طلـب إليهـا ان تمـارس (السِـحاق) مـع امـرأة لمـرة واحـدةٍ فقـط، تخـرج مـن روحهـا احاسـيس كانـت قـد تخلصـت منهـا، تـارة تلـوم فقدانهـا (لآسر) وتـارة تـود العـودة للشـذوذ، مـا كان ليعجبهـا رجـلٌ غـيره، كانـت تتقيـأ في كل مـرةٍ تعـود فيهـا مـن موعـدٍ مـع صديقهـا الغنـي، تبحـث عـن مخـرج لتلـوذ بالفـرار فـلا تجـد، مـا زال الفقـر يحـوم حولهـا ودخلهـا الشـهري مـن ذلـك المطعـم لا يكفيهـا للعيـش والمسـكن الموبـوء في الحـي مـا زال يحـوم حولـه الكثـير للتحـرش بهـا، كان طلبـه اشـبه بفـأسٍ يُهشـم جـذع جسـدها، تمنـت لـو كانـت طفلـةً مـوؤدة، فكـرت بالانتحـار وبطرقـه العديـدة، تخثـرت انهـار التفكـير في رأسـها، فقـد اطفأهـا مَـن سَـعت لتوهجـهِ، قتلـت جـزءاً بداخلهـا يوسـوس لهـا بأنهـا لـن تسـتطيع تجـاوز الامـر، ذاب ذلـك الوجـه وصـار مفزعـاً ولطالمـا حَلِمـت بوداعتـهِ، مـدت كفهـا امـلاً وعـاد خائبـاً، بكـت حتـى أثـر بكاؤهـا بـكل الجمهـور وصَفـقَ لهـا، افهـم بكاؤهـا الجميـع بأنهـا وافقـت عـلى

طلبه واثبتت بالدليل القاطع بأن ألم العوز والفقر اشد من الموت حرقاً، اثبتت لمَ الأموات يحصلون على الزهور أكثر من الاحياء، لأن ألم الندم أشد بكثير من ألم الامتنان.

بعد أن بات (للسادات) ندٌ وهم اتباع الحزب الشيوعي، قرر الابتسام بوجه متشددي الحركة الإسلامية، افرغ كل السجون من أولئك المتشددين وسمح لهم بالتجمع وتكوين الندوات والحوارات بغضاً بالشيوعيين، خرج (رؤوف) من سجنه بعد ان اُعتُقَل شهورا عديدة، كنت ارسل له الطعام في السجن واخبر الحراس بأن يقول بأن مرسل الطعام هي زوجته، ظل أوقاتا يظن بأن (ليلى) تود الرجوع اليه، وكنت اتصل اسبوعياً بها لاستمع إلى معاناتها في بيت ابيها وقسوة العيش معهم، عن فرق العيش والسكن بين (القاهرة) و(اسيوط)، كان حالها افضل قبل طلاقها، تجلت معاناتها بتجارة ابيها بها ودفعها للزواج مقابل مهرٍ قليل من اجل الربح بدل التثاقل من وجودها، كان يظن بأنها باكر، لم تخبره عن زواجها العُرفي، كذبت عليه واخبرته بأنه كانت في السعودية طوال تلك السنوات، اقنعتها بأن تعود إلى زوجها وأن ترتدي الحجاب وان تمتثل لديانته ولقناعته بما يفرضه عليه دينه لأنها ستكون زوجة مسلم متدين متشدد فمن المستحيل بأن يقبلها من دون حِجابٍ او ثيابٍ تغطي جسدها بأكمله، نضحك معا ونحن نستذكر تذكرني كيف كان سابقاً يشاطرهم شرب النبيذ وتدخين السيجار.

اخـبرت (آسر) بفعلتـي تلـك، طلبـت إليـه السـفر الى (أسـيوط) للقـاء (ليـلى) وان يخبرهـا بأنـه كان يـترك لـه الطعـام عـلى بـاب سـجن (رؤوف) ويخـبر الحـراس بـأن المرسـل زوجتـه ذريعـة أن السـلطات منعـت زيارتهـم إلا ان تكـون صلـة القرابـة مـن الدرجـة الاولى، حدثنـي مُحـركاً كلتـا يديـهِ مصـوراً لي شـكل فرحتهـا لمـا فعلـه مـن اجلهـا، وبعدمـا قـرر السـادات العفـو عنـه وعـن زمرتـه خـرج مـن السـجن فوجـد (ليـلى) و (آسر) بانتظـاره.

انشـغلت كثـيراً في تلـك المـدة بغيـوم الظـن السـيئ وامطـار الشـك التـي مـا عـادت تفـارق منامـي وصحـوتي، حاولـت اللحـاق (بشريـف) حـال خروجـه مـن المنـزل ليـلاً لتتبـع سـيره واكتشـاف امـر علاقتـه بتلـك الشـمطاء ولم يفلـح الامـر، مـرةً اخـرى افتـش فأجـد شـعرة مـن تلـك المـرأة اللعينـة التـي يلتقيهـا تتعلـق بسـترته، كأن تلـك العاهـرة تريـد ان تعلمنـي بخيانتـهِ، تمالكـت غضبـي لئـلا يفتضـح امـر مراقبتـي لـه فـما زال امامـي المزيـد لاكتشـاف امـر اشرطـة التسـجيلات الصوتيـة التـي في حقيبتـه وخزنتـه، بـتُ اؤمـن بـأن الواقـع والخيـال توأمـان، يعتـاش أحدهمـا عـلى الآخـر ويمـده بأسـباب البقـاء، بينهـما نفـقٌ سري اكتشـفه شـخصٌ مـا مـن شـدة الألم، الواقـع الناتـج عـن أسـباب الخيـال، فـلا منـاص مـن أن المـرء نِتـاج خيالـه.

جرعـةً أخـرى مـن التفكـير كانـت لتدمـرني، قـررت الهـرب نحـوه، ذاك الـذي كان نديمـي في نشـوتي، وسـميري في حكايات ليـلي، صاحبـي و رفيقـي وصديقـي، الخيـط الرفيـع الـذي

يفصل ما بين العقيدة والعبادة، ما بين الهَوّس والحماقة، ما بين الوسواس والذات، ما بين الجنون وكتابةِ الشِعر.

فعلى الرغم من تحشد قبائل النساء في مُخيلته، وعلى الرغم من كُبر سني إلا أنني كُنت طفلته، كان يخبرني بأن الانسان غالباً ما يزهر مع من يفهمه، لكنني كنت معه لا ازهر فحسب، كنت ابدو اصغر سناً بعد كل لقاءٍ كان لنا، فكم تمزقت لأصل إليه، ولم اهتم، كانت لذة الوصول إليه في كُل مرةٍ تُرممني، اصبحت احمل صلابة الرُخام بعد ما كُنت اظن بأنني خُلقت من الورق، اكتشفت سر خلق هذا الكون، اكتشفت بأن من ابتكر العِناق كان اخرسَ لأنه كان يُريد قول كُل شيء دُفعةً واحدة، اكتشفتُ بأن (آسر) لم يكن إلا جُرحاً في سقف فمي وأنني سأُشفى منه ما إن توقفت عن لعقه.

اتصل عبر الهاتف بمنزل (آسر) ولم يُجبني، عرفت انه خارج المنزل فقررت الذهاب والانتظار هناك بعد ان ترك (رؤوف) مسكن (آسر) وعاد لزوجته، وعاد منزله مغموراً بلوحاته الجميلة، دخلت وتجولت فيه، رتبت اشياءه المبعثرة، فَرشت اغطيةً جديدة على سريره ثُم استلقيت عليه، كان مملوءاً بالازهار والفراشات النافقة، استجمعت كل الليالي التي قضيناها هنا، فكرتُ في العبث بإحدى لوحاته لعلها الوانها لم تجف بعد ويصطبغ إصبعي ثُم يسرق مني ثيابي ويتكرر ذلك المشهد الخلاب.

دقائـق في انتظـاره كانـت طويلـة، لم يكـن هنـاك وازعٌ بداخـلي يُصـبرني غـير الشـوق، الشـوق في الحُـب هـي ذاتُهـا في القـراءة، فـأن لم نكـن في شـوق إلى الصفحـة التاليـة فمـن الواجـب أن نغلـق الكتـاب، لم يكـن شـوق فحسـب، كنـت انصهـر فيـه، ارقـص حـد التعـب، أتيـه فيـه ولا اخـرج إلا بعـد التـضرع بالدعـاء لإلـهِ اغريقـي قـد يكـون هـو الوحيـد الـذي يفهـم مـا بداخـلي، إلـهٍ يُدعـى (افروديـت).

يقـف عـلى ناصيـة قلبـي وهـو معـي، وبتفاصيلـه اللذيـذة، يُلـوّح بيـده لـكل المـارة بـأن مـن بجانبـه هـي حبيبتـه، يمتلكنـي ويتخلخـل مـا بـين قميـصي وجلـد كتفـي، كان الوحيـد الـذي ينصـت للجهـة اليُسرى مـن صـدري، يعبـثُ بي ويحـوم حـولي، يمسـك بيـدي ويطـير بي، نحلـق فـوق الغيـوم لنجـد كل العشـاق مـن تحتنـا صِغـاراً، ينظـر الى الأعـلى أكثـر فيعـرج بي الى السـماء، تغمـرني الغِبطـة ظنـاً منـي بأنـه سـيأخذني الى الجنـة، يجتـاز السـماوات السـبع ليثبـت لي أن ليـس هنالـك احـد، نبحث عـن جنـة فـلا نجدهـا، عـن جهنـم او أي شُـعلةِ نـارٍ، فـلا نجـد ايضـاً، عـن صراخ النادمـين او قهقهـات المنتصريـن، فـلا نجـد، نرجـع معـا دون ان يُجيـب لي ظـن، فريـاض الجِنـان اكملهـا كانـت تتلخـص بوجـوده بقـربي.

مُسـتلقيةٌ عـلى فراشـه بانتظـار مجيئـه، ابتهـل لـربٍ ابتـلاني بعشـقه وعَظَّـمَ صوتـه بداخـلي، تأخـر عـن موعـد عودتـه فشَـيعت أطفـال احلامـي لقبورهـم، لكننـي انتظـرت أكثـر،

فجـأة، انفقـأ خيـالي وتلاشـى كتفـه مـن تحـت رأسي وأنـا اسـتند إليـه، انطفـأ شيء في قلبـي وتوهجـت نـيران أحرقـت اضلعـي، ندمـت؛ لأننـي أحسـنت الظـن بالشـيطان وبرأتـه مـن العبـث بشِـجارِ الجنـة، صدقتـه حتـى قلـت بـأن كان عـلى آدم الاعتنـاء بحـواء أكثـر، يُصيـب الشـلل كل اطـرافي، تمتنـع آذاني عـن سـماع صوتـه وهـو قـادم يفتـح بـاب منزلـه، رافقـه دوي حديـثٍ يخالطـه صـوت امـرأة، يفتـح البـاب، ويدخـل وبرفقتـهِ امـرأة، يقفـان امامـي بأطـرافٍ مشـلولة كـما كنـت اقـف، كانـت برفقتـهِ (شـدن).

(٧)

بوشايةٍ من أحد الحاضرين، تنتشر قوات الشرطة داخل المسرح، حالةٌ من الفزع تشوب المكان حتى يفهم كل الحضور بأن الخروج بات ممنوعاً من المسرح حتى ينتهي العرض، كان محيط المكان بأكمله مُحاصراً، دخلت الشرطة الى كواليس المسرح ودهاليزه وفتشت كل شيء ثُم نادى أحد الضباط على المخرج طالباً إليه مواصلة العرض للحد من الفزع والصراخ الذي حدث وسط الجمهور، كان (شريف) اشد الحاضرين فزعاً لكنه التزم الهدوء، كنت أنا الوحيدة التي تعرف ماذا يدور في ذهنه، نوبة بكاءٍ وارتعاش وغثيان كانت كفيلة لأن تمنحني نبذة صغيرة عن الاحتضار، عن ارتقاب الموت او النظر إلى وجه ملكه، جميعنا لنا تُهم كفيلةً لأن نقضي ما تبقى لنا من العمر خلف قُضبان السجن، نفترش ارضيته الرطبة ونُرغم على استنشاق رائحتهِ النتنة.

ظل يُخيفني، وقع اقدامه وهو يمشي على خشبة المسرح بعدما عمّ السكون ارجاءه، رجلٌ بدين طويل القامة، يُبلل شفتيهِ بلسانه بعد كُل جملةٍ يتفوه بها، يضع خاتمين مرصعين بالاحجار البراقة في كل كف، يجلس في الوسط، يخرج من جعبتهِ ورقةً يبحثُ فيها عن شيء، يقترب من احدى الزوايا ويرفع سماعة الهاتف بعدما يضع الورقة أمام نظره، يتصل بأكثر من شخص يربطهم بمواعيدَ متفاوتة، يتصل أخيراً بشخصٍ ليخبره بأنه وصل إلى القاهرة انهُ بانتظار

التعليمات، يستدرك حديثه واضعاً احدى يديه على حقيبتهِ السوداء ذات الاقفال بأن الجو جميل ويصلح للسياحة والسفر وان البحر كان هادئاً، لعله كان يقصد مروره اليسير من حواجز التفتيش في مطار القاهرة، يغلق الهاتف ثُم يعود وسط المسرح، تنير الأضواء كل المسرح بعدما كانت تنير زاوية الهاتف فقط، يظهر ديكور مقهى شعبي يجلس فيه، يدخل الكومبارس ليسيروا ذهاباً وايابا، تمتلىء الطاولات من حوله ويجيء النادل سائلاً عمّا يود شربه، فيطلب كأس ماء وفنجانين من القهوة، يمازحه النادل باللهجة المصرية عن شربه لفنجانين من القهوة معا وهو يحرك حاجبيه بشكلٍ غريب ومريب، فيجيبه بوجهٍ عبوس: «هذا ليس من شأنك» يسوغ النادل مزحته بأنه على استعداد بجلب فنجان ثانٍ متى ما انتهى من الأول لكي لا تبرد القهوة فيه، ينظر إليه نظرة امتعاض دون ان يجيبه لكنه تفهم أن حركة حاجبيه متلازمة به وانه لا يتصنعها، فيذهب النادل مسرعاً ليجيء بالفنجانين طالباً رضاه بأبخس جُمَل الاستجداء، يضع فنجاناً قربه وفنجاناً اخر أمام الكرسي الذي بجواره، ينزع ساعة يده ويضعها قرب فنجانه ويعيد يده على حقيبته التي يحتضنها كأنها تحمل الذهب، يقف أحد المارة ويجلس على الكرسي الفارغ ويمسك بفنجان القهوة، رجلٌ قصير يضع على رأسه قبعةً سوداء غريبةً، حجمها اكبر من المعتاد في موضة القبعات آنذاك ومرتفعةً بعض الشيء،

كان يلف حول رقبتهِ وشاحاً بذات لون القبعة، كانت طريقةً لاعلامه بأنه الشخص المعني بالموعد، بعد الترحيب يتبادلان الحديث كأنهما أصدقاء منذ زمن لئلا يُثيرا الشُبهة لمن حولهم، يسأله فيما إذا كان منزعجاً من المكان بسبب ضجيجه فيخبره بأنه كذلك، فيهز رأسه إيماءً بالعَجز لأن تفاصيل الموعد من اختيار الزعيم، يلتفتان ليشاهدا على الطاولة المجاورة اربعة شبان يسخطون من شاب يثرثر كثيراً وامامه كتابان وعدة أوراق مبعثرة، يخلع ذو القبعة السوداء قبعتهُ ويضعها على الطاولة، ويخبره بأن الموصفات المطلوبة هي نفسها في القبعة وأن عدد الأطفال الذي يلعبون في الجوار ثمانية، يضع الاخر حقيبته اسفل الطاولة ويخبره بأن الزعيم يبعث له أطيب التحايا ويوصيه بأنه سيشري كميةً أخرى حال توافرها، يومئ برأسه للموافقة وينادي على النادل ليجلب كأسين من الشاي فيخبره رفيقه بأنه على عجل ووجب عليه اللحاق بموعد القطار، ينادي النادل مرة أخرى ليجعل طلبه كأساً واحدة، يضع القبعة على رأسه ويمشي مع المارة، يبقى ذلك الرجل منتظراً في المقهى، يخلع وشاحه ويعلقه على ساعد يده التي حمل بها الحقيبة كأنه يغطي شكلها لأنها من النوع الفاخر وأنها بلا شك تحتوي على المال وسط ذلك الحي الشعبي كانت جرائم السرقة ليست غريبة على الشارع بحكم الجوع المستشري في بطون الغالب آنذاك، يأتي النادل ويضع كأس الشاي، فيسأله:

- ضجيج أولئك الشبان عالٍ جداً، عليك بأن تخبرهم بأنه مزعج لمن حولهم.
- انهم يمزحون، قليلاً وستتبدل الطاولة بغيرهم.
- جيد، وذاك غليظ الصوت، لم سمحت له ان يشتمك قبل قليل حين طلب إليك تغيير فنجان قهوته؟
- لأنني مزحت معه وهو من أبناء الذوات.
- مزحت!! لم يضحك أحد لمزحتك، لكن حينما شتمك ضحك الجميع.
- هنالك مثل ماليزي قديم يقول: «نكتة الغني مُضحكةٌ دائماً»

ينهض الرجل واضعاً له نقوداً على الطاولة ومن دون ان يشرب الشاي الذي طلبه، يخبره وهو حانق بأن ما تبقي من الحساب من أجله، يفرغ المسرح مع خروجه من المارة، يختفي كل ذلك المشهد المؤلم الذي صَوّر مصر العظيمة كيف تجلس عاطلة على المقهى، تنير الإضاءة وجه الرجل ذي القبعة ويخلع قبعته ويمد يدهُ فيها، كانت بطانتها من القماش المرن، يتلمس حاشيته فيجدها قابلةً للطي واللزق، يفتح البطانة ويخرج منها مسدساً صغير الحجم جداً، لم يكن حجمه متداولاً في السوق في وقتها ومعه رصاصات ثم يهم بإرجاعه وارجاع بطانة القبعة كما كانت ويضعها فوق رأسه ويمضي.

اصبحتُ ادخن السجائر بشراهة واذرف الدمع فجأة دون بكاء، اغص بشرب الماء في كل مرة، الفوضى من حولي ودوي كلام وكل شيء حولي صامت، أرى كل شيء في البيت لهُ فم، الأبواب والجدران والسقوف والاثاث والمرايا والمصابيح ورفوف الكُتب وسجاد الأرض، بتُ لا اخرج من المنزل ولا ارفع سماعة الهاتف، اجيب بالصراخ والالفاظ البذيئة كل من يتكلم معي، اضطر (شريف) في وقتها بدفع تعويض لاثنين من الخدم تعرضا للضرب المبرح مني احدهما وقع من اعلى السُلم واخر تعرض لكسرٍ في جمجمته بعدما ضربته بمطفأة السجائر، صار (شريف) يبدل الخدم اسبوعياً، كان في البيت أربعة واخر يتابع أمور حدائق المنزل ويهتم بحراسة البوابة، بدأ عددهم يقل حتى بتُ وحدي في ذلك البيت الكبير وعجوزٌ يحرس الباب الخارجي وابنه اليافع الوحيد يتجول طوال الليل حول السور.

كنت من فرط القلق انسج معطف الطمأنينة واضعه على كتفي في العتمة التي اعتدتُ الجلوس فيها، كرهته اشد الكُره لأنه لا يُفارق شعوري، اكرهه بسبب تلك النهاية المرعبة، تقدم (ياسمين) دوائي وتخبرني بأنني تغاضيت عن موعده فأخبرها بأنني اود مواصلة الحديث وذلك الدواء يقحمني بسكونٍ بشع ويرغمني على الصمت.

صار (شريف) يجيء الى المنزل بغير مواعيده، بضعة

أسابيع امتنع عن السفر وبات يجلس امامي يقرأ كتاباً او يشاهد التلفاز شارد الذهن، يغلق باب غرفة المكتب خاصته ليتصل بالهاتف كل ساعتين او اقل، كانت مدة عصيبة، كنت بحاجةٍ فيها الى البكاء وبكيت.

عادت بعد أيام نشوتي معه، شهورا طوالا وانا انام جنبه جثةً هامدة، لا اشعر بشيء إذ قبلني او تلمّست يده جسدي، كان يداعبني وانا بوجهٍ مطاطي تمرس على التماهي حتى اتقنه، وما ان بكيت قررت نسيان (آسر) وحث شعور الزوجة بداخلي للنهوض مجدداً، رجع (شريف) في إحدى الامسيات ووجدني متأنقةً لمجيئه، شمع وزجاجة النبيذ ولحم المشوي بالطريقة التي يُحبها بانتظاره، أسطوانة اغنية لحفل (عبد الحليم حافظ) بدأت حال جلوسه، ظل يبتسم لي، ثُم مسك كأس النبيذ بيده وبدأ بالترنم مُرددا «وخدتني ومشينا والفرح يضمنا، ونسينا يا حبيبي مين انت ومين انا، حسيت ان هوانا حيعيش مليون سنة» بادلته الابتسام حتى انتابتنا نوبة ضحك، كأننا كُنا نضمر اشتياقاً إلى أيام تركناها على مضض، وقفنا وسط غرفتنا وتمايلنا بالرقص، كنا فرحين للغاية، حتى جلسنا منهوكين، قمت من مكاني وجلست على حجره، فكرت في أن اعترف له كيف كنت طوال سنين زواج به اتناول حبوب منع الحمل سراً واكذب عليه بشأن مشكلات صحية اعانيها تمنعني من الانجاب ولا يمكن التخلص منها إلا بتدخل جراحي،

ادعيت الخوف من تلك الجراحة وقتما طلب ان يكون لنا طفل، والغريب أنه لم يكرر ذلك الطلب ابداً، احتضنته واخبرته قراراً كان يجب ان اتخذه، اخبرته بأنني اريد طفلاً بين احشائي.

تقاطع (ياسمين) ذكراي مستهزئةً بغير عادتها:

- زوجكِ!!، اتجاه سَيركِ المتوفر متى ما ضللتِ في الحُب طريقكِ.

- لا تظني بأنني كنت اريد نسيان (آسر) باحتضان (شريف).

- أخبريني بشيءٍ يجعلني أفكر في غير ذلك؟

- خوفي منه، وخوفي عليه.

- لماذا؟!

- كان (شريف) على اتصال بمخابرات دولةٍ اجنبية ويتجسس لصالحهم.

وددت لو انها تصم آذانها لكي لا تسمع المزيد، تدخل (ياسمين) الى غرفة الجلوس وترفع سماعة الهاتف، تتصل بشخص، إلا انني لم اسألها من يكون، عادت لتجلس امامي وصدمتها مما سمعته كانت كبيرة كمن وجد ثروته حفنةً من التُراب، لكن يجب عليها الانصات أكثر، يجب

عليها ان تعلم كيف بعت الحُب بندمٍ بخس لاشتري حزناً ثميناً.

عملَ (شريف) جاسوساً لصالح مخابرات الاتحاد السوفيتي، يمدهم بالمواقف السياسية ومعلومات عن الاتفاقات السرية بين الحكومة المصرية والأمريكية بعدما قطع السادات العلاقات مع السوفيت، كان بحكم عمله الدبلوماسي يتمكن من الاطلاع على البرقيات الرسمية السري منها والمُعلن، عمل الاتحاد السوفيتي جاهداً لمتابعة خُطا السادات في السياسة الخارجية التي جعلت مصر في وقتها قوية لدرجة انها تقطع علاقاتها من دولةٍ بحجم دولتهم مما جعلهم نادمين لدعمهم إياه من بعد وفاة جمال بعد الناصر بدلاً من الفريق (محمد امين فوزي).

خلال اعتزالي في المنزل عرفت كل شي ووجدت الدليل عمّا ابحث، كنت اعرف بأنه يعمل مع زمرة اعمالاً سرية ويلتقيهم سراً، ينادي احدهم على الاخر بالرقم والشيفرة، منذ اول تسجيل صوتي سمعته وان اشك في امره إلا انني كنت ارجح انتماءه إلى حزب أُسِّس سراً لمعارضة النظام، اسمع حواراته ونقاشاته السياسية فأجده من اشد المحبين للنظام والمدافعين عن سياسته، كما لم يكن اسلامياً ويبغضهم جداً، ومرت حقبا يساورني الشك بأنه يموه عن انتمائه للاخوان المسلمين بإدعائه العلماني وكرهه للمتشددين الإسلاميين، حتى وجدت الأدلة الكافية.

على المسرح والجمهور يتوق إلى معرفة سبب احتجاز الجميع من قبل قوات الشرطة، تتحدث (شدن) بنبرة تشاؤم، يجلس امامها صديقها الغني واضعاً القناع على وجهه، تخبره بأنها موافقة على طلبه، فيخبرها بأن عليها معرفة تفاصيل، كان عليها اغراء رجل يحب شذوذ النساء واخذ نسخة عن مفاتيح الجناح الذي يُقيم فيه، تندهش وتومئ برأسها لترفض فيستدرك كلامه بأنها لن تفعل أكثر من ذلك، هو عاشقٌ لرؤية امرأتين شاذتين في آن واحد ولا يثمل ويفقد وعيه إلا في تلك النشوة، يقف ويتحرك على المسرح ليصف لها ما عليها فعله ثُم يرجع خلف الكواليس ليظهر مشهد يصور ما يحدث بعد ذلك.

تجلس (شدن) وبرفقتها امرأة سمراء بشعرٍ طويل وعينين خضراوتين في جناحٍ فندقيٍ فخم وسط القاهرة، لا تتبادلان أي حديث، تمر دقائق ويفتح الباب رجل تجاوز الخمسين من عمره، امتاز بالوسامة والمظهر الانيق، كان يعلم بمجيئهما، لأن الغني توصل عن طريق الرشوة لشخصٍ يهتم بنزواته كلما زار القاهرة فعرف السر، يتحدث كلماتٍ باللغة العربية تكاد ان تكون مفهومة، كان المطلوب إلى (شدن) ورفيقتها الامتثال لنزواته وتنفيذ كل طلباته وإن كانت غريبة والاهم اخذ نسخة من مفتاح كل شيء بحوزته من خلال ضغط المفتاح على عجينة تستخدم لذلك الغرض، ونجحتا في ذلك.

يصـور ذات المشـهد الليلـة التاليـة لتلـك الحادثـة فيظهـر الرجـل الـذي اشـترى المسـدس الصغـير وهـو بـذات الـرداء والقبعـة التـي تسـلمها في المقهـى الشـعبي، يتمكـن مـن عبـور حاجـز التفتيـش في مدخـل الفنـدق والدخـول الى الغرفـة التـي كانـت فيهـا (شـدن) خـلال مـدة اسـتبدال الحمايـة لمواقعهـم عنـد الفجـر ويضـع وسـادة عـلى رأسـه ويقتلـه برصاصتـين في الـرأس ثـم يخـرج هاربـاً الى غرفـةٍ حجزهـا قبـل ليلـةٍ ويبقـى فيهـا لليلتـين متتاليتـين درءً للاشـتباه فيـه حتـى فُتِّـش الفنـدق بأكملـه ووجـدوا المسـدس في سـلة مهمـلات في أحـد الاروقـة لا تحمـل أي بصـمات لأنـه كان يرتـدي القفـازات بيـده، كان مشـهداً مثيراً لدرجـة انـه صـوّر الحقيقـة بـأدق التفاصيـل، فقـد عـزمَ كاتـب نَـص مسرحيتنـا عـلى دفعنـا جميعـاً للتهلكـة، افصح عـن تفاصيـل الجريمـة وعـن اسـم الفنـدق ورقـم الغرفـة أمـام قـوات الشرطـة التـي عجـزت عـن إيجـاد القاتـل في وقتهـا، اضحـى الجميـع رهـن الاحتجـاز حتـى ينتهـي العـرض.

لا سـبيل للهـدوء، كان مصـدر الضجيـج اعماقـي، ولا غريـب في تناقـض حكايتـي لطالمـا كانـت مشـاعري متناقضـة، شـيطانُ بقرنـين يُغنـي بصـوتٍ مزعـج في رأسي، ويقحـم اكواماً مـن الخـردة في فمـي، احـداث تتعفـن بذاكـرتي ومـا زلـت اعطرهـا بازكـى العطـور، لـو أننـي أعـرف كلمـة أعمـق مـن كلمـة (انطفـأت) لقلتهـا، لكنـي لم أشـعر مـن قبـل بإنطفـاء روحـي مثلـما أشـعر بهـا وهـو بقـربي، (آسر) وهـو يحـاول شرح مـا رأيتـهُ وانـا انتظـره في منزلـه.

بمصادفةٍ لم يسعني الاعتراض عليها، دعا (شريف) (آسر) إلى العشاء في منزلنا، رحبتُ به وحدثتهُ بلطف، دقائق ويأتي أحد الخدم ليبلغنا بوصول مدعوين اخرين، كانا (رؤوف) و(ليلى)، موقف غريب ما كنت اتوقعه، اخبرني (شريف) عند الظهيرة بأن اوعز للخدم والطباخ لتحضير مائدة عشاء لوجود ضيوف مهمين، لم يخبرني بأن المدعوين أصدقائي، كان فرحاً لكوني اردت منه طفلاً فحاول الاحتفاء بذلك أم انه أراد التأكد من خروجي من تلك الازمة وأن ليس هنالك سبب يتعلق بهم؟ فكرتان ظلتا مُتناحرتين في رأسي كتناحر حيوانين بقرنين على سفح جبل يؤول نهاية عِراكهما بسقوطهما من سفحه ومقتلهما معا.

احتضنت السؤال بشوق الإجابة، سألت (آسر) عن احواله، يجبيني بأنهُ بخير وعيناه تقول عكس ذلك، نجلس على المائدة وقلبي يهزم عقلي، انظر الى (رؤوف) كيف يأكل بشراهة، يحرك يديه على أصناف الطعام معا، يمتلىء فمه بالطعام حتى لا يكاد يتنفس، كان اجره من عمله لا يكاد يسد رمق عيشهما وكانت (ليلى) هي الأخرى تبحث عن عمل، تنظر الى اعين الجميع خجلاً مما يجري وتأكل بلطف، يمازح (شريف) الحاضرين لتدارك الموقف بشهيته للأكل كشهية (رؤوف) لولا مشكلاته في المعدة ثُم يحثه لتناول اصنافٍ كانت بعيدة من مد يده، كان لطيفاً طوال وقت العشاء وكنت فخورةً به وبحديثه وبترحيبه، كنت

اشعر برغبةٍ مُلحةٍ للبكاء، كانت تحرقني دمعة وتغرقني الأخرى، موقف عصيب عليّ وأنا اجلس قرب (شريف) اهتم بطبقه وبكأس الماء خاصته قبل ان يفرغ واملأه، وقلبي يركض بإتجاه (آسر)، اقرأ في عينيه عتب، كأن الموقف الأخير كنت أنا المذنبة فيه وليس هو.

بعدما سأل عن اخر اعمالنا المسرحية وعن أسباب فتور عروضنا في تلك المدة، عزا الجميع أسباب التدهور الاقتصادي إلى عمل المسرح وأن الغالب بات منشغلا بتوفير قوت يومه، يعزو (آسر) سبباً اخر وهو حب الناس للاعمال الهزلية وأن عروضنا المسرحية كانت تراجيديا سوداء، يمزح (شريف) بصدد ذلك مشيراً الى أن الناس تلجأ للسينما والمسرح لتنسى التراجيديا الحقيقة التي تعيش فيها طوال النهار ليس لتراها مُجدداً ومقابل دفع المال، ثُم ينظر صوب التلفاز ليسمع نشرة الاخبار، تنجذب عيني (لآسر) فارتطم بوسامته، ينظر هو الآخر الى التلفاز لينصت الى الاخبار ويهملني، يبقى (رؤوف) مهتماً بصحنه فتهمس (ليلى) بأذنه ليكف عن الاكل.

انصدم الجميع من خبر استعداد (السادات) لزيارة إسرائيل، ثواني من الصمت نظر فيها (شريف) الى الجميع متأملاً سماع وجهات نظرهم، بلعتني بئرٌ من الخوف، لكونه من اسياد النظام الحاكم والحاضرين من معارضيه، حاولت السخط من الموضوع وتحقيره لئلا يفتح أحدهم

الحـوار الا ان محـاولاتي بـاءت بالفشـل، ودار الحـوار السـياسي لنصـف سـاعة، لم يتفـق ايٌّ مـن الحاضريـن عـلى رأي.

في وقتهـا كان (شريـف) مؤيـداً للنظـام بشـكلٍ مُسـتميت، شـتان بـين مـا يقـول والتسـجيلات الهاتفيـة التـي اتصنـت لهـا خفيـة، مكانتـه الوظيفيـة المرموقـة كانـت تتطلـب ذلـك، وإلا فمـن أيـن لـه قـصر وخـدم وامـول طائلـة، يتعكـر مزاجـه مـا ان سـمع (رؤوف) يتحـدث عـن مأسـاته في سـجنه وعـن انتمائـه للاخـوان المسـلمين، يتركـه يتحـدث حتـى يتهـم السـادات بتـوددهِ لإسرائيـل، يستشـيط (شريـف) غضبـاً ويمنعـه مـن مواصلـة حديثـه، يستشـهد بـما فعلـه السـادات بقضيـة (هبـة سـليم) التـي تجسسـت لصالـح إسرائيـل، كيـف امـر بإعدامهـا السـادات فـور لقائـهِ بوزيـر الخارجيـة الأمريكـي (هنـري كسـنجر) الـذي طلـب العفـو عنهـا ليُجيبـه عـلى الفـور بأنهـا أُعدمـت ولم تعلـن وسـائل الاعـلام ذلـك لينتبـه مديـر جهـاز المخابـرات المرافـق لـه عـلى الفـور لـكلام السـادات ويتصـل هاتفيـاً بالسـجن ليتـم اعدامهـا بـذات الوقـت لكـي يمتنـع عـن أي وسـاطة للعفـو الرئـاسي عنهـا، يتـدارك (آسر) الحـوار ويحمد الله عـلى تركـه إياهـم إلا أن (رؤوف) يختـم حديثـه قائـلاً: «إن تركـي للجماعـة لا يعنـي تركـي لطاعـة الله وتـرك العمـل وفقـا لشريعتـه»، تتشـتت نظـرات (ليـلى) في وجوهنـا ثُـم تتنهـد، تشـعر في وقتهـا بأنهـا في طريقهـا الى التهلكـة.

سنوات طوال تمر لتعلم مصر عظمة السياسة الخارجية (للسادات)، إلا ان المُعيب في وقتها أنه جاء بدهاء ثعلب وتصرفات اسد، يفرض رأيه على الوطن ويظن شعبه بأنه دكتاتوري الرأي، كيف له أن يناقش من يفضل فكرة القومية على الوطن، ترك (عبد الناصر) إرثاً من التزمت بالقومية العربية والاندفاع نحو الحروب مع توارث الجينات العربية التي تهوى الاقتتال والتفاخر بالزعامة.

في الأول من آيار ١٩٧١أطاح (السادات) بالقيادات المصرية الناصرية لكونهم أصدقاء الاتحاد السوفيتي ثُم قام في ١٨/ ٧/ ١٩٧٢ بطرد الخبراء السوفيت الذين تجاوز عددهم الخمسة عشر ألف خبير بعدما قال بصوتٍ عال: «نريد المعركة أن تكون معركتنا» في إشارة الى اعتماد الحُكم الناصري لقيادة السوفيت في المعارك السابقة، أشارت (ليلى) خلال النقاش الى فضل السوفيت على مصر الذي لا يمكن انكاره، عددت بأصابع كف يدها كيف طوروا سلاح الدفاع الجوي المصري بصواريخ (SAM) التي منعت الطائرات الإسرائيلية من طراز (F-16) أمريكية الصنع وطائرات (ميراج) فرنسية الصنع من اختراق الضفة الغربية لقناة السويس ابان الحرب، وعن تمويلهم لبناء (السد العالي) بعد أن امتنع البنك الدولي من اقراض مصر وتشييدهم لمصنع الحديد والصلب في مدينة (حلوان) جنوب القاهرة و مصنع الالمنيوم في (نجع حمادي) مركز

محافظة قنا وكذلك مدهم لخطوط نقل الكهرباء من (أسوان) الى (الإسكندرية).

كان السادات قد استقرأ مستقبل مصر ما إذا بقي تحت جنح الرخ السوفيتي، ستستمر لهجة الحرب وزج الشعب للاقتتال وتعالي أصوات المذياع وانتظار أسماء الشهداء والاسرى والجرحى، أراد توقف الحرب في الوقت الذي لا يمكن للحرب ان تتوقف إلا ان تعلن مصر خسارتها وانسحابها من أراضي سيناء المتنازع عليها، وهذا مُحال، فبدأ بالتبسم بوجه (كارتر) ولجأ للحوار معه، أراد توقف الحرب ووجد الترحيب لذلك دعماً لسلامة ارض إسرائيل وهو من أولويات أمريكا، انتهج السادات سياسة السلام وخرج منتصراً، انسحبت بأثر زيارته تلك كل القوات الإسرائيلية من ارض سيناء وعادت لمصر دون ادنى خسائر، فعلى الرغم من كل المصاعب وعلى الرغم من الديون وتهالك البنى التحتية وعسكرة الشعب وتعطشه للانتصار في الحرب إلا أن السادات اخذ مصر الى بر الأمان بحنكتهِ ودهائه السياسي، وعلى الرغم من أنه قرر الانتحار إلا ان التاريخ شاهدٌ على أن مصر لم تدخل حربا من بعد قراره ذاك، سيبقى (محمد انور السادات) اعظم من حَكَمَ مصر في العصر الحديث.

في غيابي، كان أطفال صدره يتضورون جوعاً وهو يغلي لهم الحصى ويقلبه كل ليلة، له ما لي من حنين انزلق تحت

عجلة سوء الظن والابتعاد، ذهبت اليه والطريق المؤدي الى بيته كان مملوءً بالخناجر، كنت أحاول الشفاء منه إلا أنني ما زلت أتناوله، على الرغم من قناعتي بأن اضراره كالتدخين، يؤدي بالمُدخن الى الموت بالطُرق اليسيرة، إلا ان تارك التدخين سيموت ايضاً لكن متعة انتشار النيكوتين في أروقة الدماغ فاتته.

طرقت باب منزله وانتظرت ان يفتح الباب ويقف نادماً لخيانته لي، طرقت الباب مرة أخرى ولم يفتح الباب، لم اتصل به قبل مجيئي ولم اعلم إن كان في الخارج او نائم، يفتح الباب وهو عاري الصدر، يرتدي بنطالاً ازرق، حافيا، في فمه سيجارة اشتعلت الآن، ينظر بوجهي ويترك الباب مفتوحاً ويعود إلى غرفته، ادخل واغلق الباب من خلفي، اجده يبحر في عالم الآخرة، قربه كأس وزجاجة كحول، جالساً يتناثر شعره على وجهه ومن امامه لوحةً خلابة، كاد ينتهي من رسمها، نسيت العِتاب وسبب مجيئي ولهوت مع أطفال صدره واطعمهم، بقيت اتأمل لوحته، لطالما علمتني فرشاته السخط والاستهزاء من أولئك الذين يرسمون الأشياء من امامهم او يرسمون وجوه المارة في شوارع عواصم الدول، المجد يبقى للفكرة، لاختيار الألوان، لتلك الروح المشاكسة التي تتغلغل تفاصيل اللوحة حتى تشير إليك بأصبع السبابة بحركة تدفعك للتقرب، للتعمق، للتوغل بين تفاصيل اللوحة، تدفعك للتسائل عن الجزء الذي بدأ

بـه الرسـام، ثـم تدفـع للاعـتراف بالعجـز عـن إيجـاد الإجابـة، تدعـوك للتجذيـف ومداعبـة عقلـك بالحديـث عـن متعـة الإبحـار ثُـم تجـد نفسـك عـلى اليابسـة، رسـوماته كانـت العُكاز الـذي يتكـئ عليـه المَجـاز ليُعـرّف نفسـه في معاجـم اللغـة.

اسـأله عـن حالـه فيجيبنـي بأنـه بخـير إلا أنـه لا يعيـش بالطريقـة التـي يحبهـا، يضـع كأسـه عـلى الطاولـة وكلتـا يديـه ملطخـة بالاصبـاغ، منظـر يدفعنـي لتقبيلـه بقـوة، لكننـي تغاضيـت، سـألته لأثـير غضبـه وجنونـه:

- هل انت ثمل؟
- كلا، الكحـول لا تجعلنـي اثمـل، فقـط امـرأة واحدة تمكنـت مـن ذلـك.
- امرأة!؟ واحدة ام أكثر؟
- ما كنت اسمع نبرة الشك في كلامك من قبل!!
- وما رأيته في انتظارك هنا، ماذا تسميه؟
- جنون.
- وما الذي تقصده؟
- جنون
- عن أي جنون تتحدث؟
- عن جنونكِ بكل تأكيد.
- جنـوني!! انتظرك لسـاعة متأخـرة من الليـل واوظب اغطيتـك عـلى امـل انتظـارك وانـت تصطحـب غـيري وتسـمي ذلـك جنونـا!!

- طلبت إليك عشرات المرات ان ترافقيني لطبيب نفسي، كنت لا تصدقيني، والان صرتِ لا تصدقين نفسكِ، اوهامكِ بدأت تتفاقم، ثقي بي، أنا حبيبكِ، اسلوبكِ السيئ بالكلام بات امراً لا يُطاق.

- ما الذي تقوله؟!! أنا لا افهمك.

- حبيبتي، اجابتكِ نفسها في كل مرة، يبدو ان النسيان يمحق تلك المواقف المتكررة، وسواساً عبثَ بعقلكِ، لعل السبب كانت العتمة التي مكثتِ فيها قُبيل عودتي، او الفزع من دخولي المفاجئ للشقة، دخلت وانتِ بانتظاري، صرختِ بوجهي وأنا لم اتفوه بكلمة، كنت اظن بأنكِ ضجرة بسب تأخري بالعودة، إلا أنكِ لم تتحدثي معي، حملتِ حقيبتكِ وغادرتِ على الفور.

- أنا!!

- نعم، انتِ.

- ومن كان بصحبتك؟

- لم يكن بصحبتي أحد، منذ متى وأنا آتي الى المنزل عند الليلة برفقة أحد؟!

كان كلامه ضربا من الجنون، خفتُ كثيراً، كأنه اجرى لي عملية قلب مفتوح وأنا واقفة امامه، اشعر بتيار هواءٍ بارد بين اضلعي، رعشة تشبه رعشة السقوط ببركة ماءٍ بارد، يخبرني بأن كلامه تكرر عشرات المرات، اخبرني بأنه تشاجر معي كثيراً لكي امتثل للعلاج النفسي وأنا مستمرة

بالرفض، لم أتمكن من البقاء برفقته أكثر، اخبرته بسبب مجيئي هو خوفي من حديثٍ دار بينه وبين (شريف) حول عملٍ ما، خشيت تورط (آسر) بما يفعله (شريف) وأنا لا أتمكن من البوح له بالتفاصيل كافة، وجدت بأن ما دار بينهما لا علاقة له بظنوني التي ما كنت لاصدقها لولا انها جعلتني افيق من غفلةٍ على غفلة أخرى اعمق منها، تركته وخرجت.

افيق من ذكراي واعود إليها، لحنٌ على سمعي يصدر من المسرح، تعزف (شدن) دقيقتين، ثُم تقف وسط المسرح، تمسك بأطراف ثوبها من اعلى كتفيها فتسقطه أمام مرآة كبيرة، تتعالى أصوات دهشة الجمهور، كانت ترتدي ما يغطي جسدها الى ركبتيها دون اكمام، اندهش الجميع من جمال قوامها، تشطب كل الخطوط الحُمْر التي رسمتها من قبل حول سريرها لئلا يشاركها فيه غير (آسر)، تُصفف شعرها، تتمرد، ترقص، تتغنى بأغانٍ قديمة، تجمع كل ملابسها وحاجياتها في منزلها الجديد ورفاه العيش الذي كان بمقابلٍ باهظٍ جداً، تجلس لتكتب رسالة الى (آسر) تعبر فيها عن اشتياقها إليه وعن تمنيها للقائه إلا أن وقتها لم يسمح لأن تبلغه بمغادرتها لمنزلها القديم، وأنها ستذهب للعيش في مكانٍ افضل بعد أن وافقت على الزواج من صديقها الغني، تعرب له عن روعة الأيام التي قضتها برفقته، وعن امانيها بالفشل في نسيانه، تقبلهُ الفاً وتحتضنه الفاً بكلماتِ رسالتها تلك، تقطع لهُ وعداً بأنها متى ما رأته مجدداً فأنها

ستبدأ معه من جديد، ستكون امرأةً أخرى بعقل وقلب اخرين، ختاماً تخبره سراً خبأته عنه طويلاً، تخبره بأن الوردة الأولى التي اهداها إليها صديقها الغني في اول مرة يراها فيها لم تكن مُهداةً منه، كانت هي من اهدته إياها.

(٨)

كانت لي اعراض الوهج، تلك التي يُخفف الماء من شِدتها، تشاجرت مع عقلي الان، على سمعي كلامه عن ذلك الوسواس، برد مشاعره وضجره من موقفي يكاد يقلع اظافري بآلةٍ حادة، ازرع الشك في ذلك الموقف ثُم أرى الأرض قاحلة.

رأيتهُ معها، كانت تضحك على اخر عبارة قالها لها وقتما فتح الباب، اخدودٌ كبير يجرني الى الهَوَس وانا أفكر في الوقت الذي قضاه معها، كيف لها ان تنام على اغطيتي وسريري في بيته، كيف لها ان تملأ تلك الفراغات التي بين أصابعه بأصابعها، هل هي مثلي؟ هل تنتمي الى صوته؟ هل تشعر بذات الطمأنينة التي اشعر بها لو سمعت صوت مسير اقدامه؟

التجئ إلى صديقتي (ليلى)، اطلب إليها المجيء على الفور عبر الهاتف ظهيرة أحد الأيام التي سبقت عرضنا، يجمعني بها معقد خشبي وسط المسرح، وانا في حيرة من اختيار البداية، تحدثت هي:

- ما بكِ؟
- لا اعلم، ثمة غُرابٌ اسود يُحلق فوق عواطفي.
- لم افهم؟
- رأيت (آسر) يصطحب (شدن) لشقتهِ في ساعةٍ

متأخـرةٍ مـن الليـل.

- حقـاً!! وكيـف رأيتـه؟ (تقولهـا ليـلى وهـي تتصنـع التعجـب وتضمـر ابتسـامتها)

- كنت بانتظار (آسر) في منزله.

- لمَ تنتظرينه؟ (تقولها وهي تكبت ابتسامةٌ صفراء)

- تستهزئين، أليس كذلك؟ (تنهمر دمعةٌ من عيني)

- مـا زالـت الأوهـام تطـاردكِ، انهـا سـتقتلكِ. (تقولها باسـتكانة)

- اوهـام!! هل يُعقـل بأن أرى شـيئاً بعيني ثُم اكتشـف بأننـي لم أره؟!

- جائـز، انتِ بحاجـة الى طبيب، تلاحقـكِ الظنون على الـدوام، كنـت تتغلبـين عليهـا ولكـن في الآونـة الأخـيرة بـدأت تتغلـب عليـكِ.

- كنت!!

- نعم، انـتِ تعانين الاكتئـاب، الاكتئـاب ليس بالشيء الخطـير، مـرضٌ مخـادع يجعلـك ترين السـعادة شـيئا ضئيـلا والحـزن حفـرةٌ عميقـة، يجعلـكِ تبحثـين عـن حلـولٍ لمشـكلاتكِ غـير الموجـودة في الأصـل، مـرض يزامنـه القلـق وكثـرة الأوهـام.

- لا أحب تناول عقاقير الهَوَس.

- هـل تنظريـن إلى وجهـكِ في المـرأة؟ صرتِ نحيلـة ووجهـكِ شـاحب اللـون.

- نهكَ روحي التعب.

- لايهمني إن كنتِ نحيلة او سمراء أو مدمنة عِقارا ما، يهمني تلك اللحظة التي أراكِ فيها مثل مصباحٍ وحيد في عالم مُظلِم.

دقائق طويلة وانا احدثها عن جزعي من الخيانة، وعن رهاب الظنون السود التي تطفئ شمعة رغبتي بالعيش أكثر، حتى يشرد ذهني، تحدق عيني صوب ركن المسرح فأرى (آسر) متخفياً خلف السِتارة ينظر إلى مشهدنا، كان واقفاً وجرح اطلاقة النار التي أصيب بها لم تزل تؤلمه، اشعر بما يشعر واظن كما يظن، اقترب منه لاقسم لهُ يميناً بأنها الحقيقة، اقسم له بأنني رأيته برفقة امرأةٍ اكرهها، ورأيت شعرة امرأة على كتف سترة زوجي وشممت عطرها على قميصه عشرات المرات، اقسم له بأن (ليلى) اقرب الناس لقلبي لكنها تضمر شيئاً بداخلها يتعلق بأمري، ينظر ملياً بعيني فيذرف دمعةً من ذات العين التي بكيت منها، كان يشبهني، تنهمر دمعة عينه اليمنى قبل اليُسرى، اراه فأنسى ما اريد قوله، أتمنى لو انني قادرةٌ على بَتر اقدام الوقت ليبقى معي ويتمنى هو زوال ذلك الآسى، يتنهد، ضاق صدر الكون من دخان سكوته، كأنني مُت وهو لا يود اخباري.

سكونٌ يزج الخوف برأسي سائلاً لزجاً عبر آذاني، ابكي بحرقةٍ وانا اضع رأسي على حِجر (ليلى)، اشكو إليها كيف بتُ على تواز، ما عدتُ التقي بأحد، يمر الجميع من جانبي يضعون أيديهم على آذانهم، اصرخ ولا يريد سماعي

احـد، اشـكو اليهـا كابوسـاً يلاحقنـي كل ليلـة أقـف فيـه أمـام مـرآة انظـر إلى وجهـي فأجـد كمامـةً عـلى فمـي، لا اسـمع غـير صـدى صـوتي.

اسـأل (ليـلى) لمَ لا تُجيـب فـلا أجدهـا، تختفـي، اجـد رأسي مُتكئـاً عـلى الأرض ولا أحـد سـواي في ذلـك المشـهد، لا أتذكـر شـيئاً مـن نصـوص دوري عـلى المسرح، ولا (ليـلى) هنـا لتسـعفني وكل الجمهـور ينظـر إلي بأعـين جاحظـة، تنخفـض الإضـاءة شـيئاً فشـيئاً فأشـعر بفسـحةٍ مـن الزمـن اقـدر ان ابـوح فيهـا عـمّا اريـد لحشـدٍ مـن النـاس، لعـل احدهـم يصدقنـي فقـد مَـر الكثـير وانـا اتـوق إلى الـكلام، اتراكـض عـلى خشـبة المسرح بـكل الاتجاهـات ثُـم اقـترب مـن الصـف الأول للجمهـور، انظـر إلى مـا خلفـه ثُـم ابعـد وابعـد، احـدق صـوب كل الاتجاهـات، ابحـث عـن (شريـف) تـارةً فأجـده وتـارةً يختفـي، خـلال اجـزاءٍ مـن الثانيـة اراه في عـدة اماكـن، يُصيبنـي صُـداعٌ قـوي وقتـما رأيتـه يمـلأ المـكان عـلى هيئـة مئتـي شـخص او أكثـر، اتوسـل إليـه ليسـمعني، انظـر في كل الوجـوه فـلا اراه، ثُـم اراه، اضـع يـدي عـلى وجهـي لأدفـع ألسـنة اللهـب عـن وجهـي واصرخ عاليـاً باسـمه، اناديـه فيسـتجيب لندائـي، التفـت باتجـاه صوتـه لالتمـس منـه قبـول اعتـذاري، أقـول لـه بحشرجـة وذراعـي تمتـد لترجـوه: «أنـا نادمـةً عـلى مـا فعلـت».

ارتطـم بـالأرض، أهـوي مـن عليـاء الجـاه الى أدنـى درجـات السـفول، اشـعر بـشيء يصعـب وصفـه بالـكلام، شـعورٌ قـاسٍ،

يشبه اللحظات الأولى للموت، اسمع صوت مسير رجل بقربي، قِسٌّ طاعنٌ في السن يجلس القرفصاء أمام وجهي، يُعدد باصابع كف يده كل فعلٍ شائن ارتكبته ثُم يروي كل تفاصيل كل فعل دون ان يستحي، ثُم يصرخ عالياً:

- ذنوب، ذنوب يجب عليكِ الاعتراف بها، لتطلبي الغفران.

اطلب إليه المغفرة فيومئ برأسه رافضاً، يقول بصوتٍ خافت:

- نحن البشر مُعلقون بأستار السماء، كما تُعلق القناديل، تجرنا ذنوبنا الى الأرض لنهوي مذنبين، الصائم عن ارتكاب المعاصي يبقى مُعلقاً ليظفر بالجنة، ومن ثقلت ذنوبه سينقطع حبله المتعلق به ويهوى ساقطاً، ومن ينزل الى الأرض لا رجاء له، صار بعيداً وما عاد يُسمَع صوته، لا سبيل لكِ لطلب المغفرة فأنتِ ما عدُتِ مُعلقة، رفضتكِ السماء لثقل ذنوبكِ وقباحة افعالكِ.

أخبره بأنني حاولت مراراً الإفلات من صوري القديمة ولم انجح، يقف فأمسك بقدميه بكلتا يديّ توسلاً ليُعيدني لأستار السماء، فيرفض لأن القساوسة لا يغفرون لغير المسيحيين واني لست على ديانته، اطلب اعتناق دينه فيرفض، ينعتُني بالآثمة، اطلب إليه ان يُعيدني أصيصاً يحملُ الصّبّار في باحة بيتنا القديم فيرفض ايضاً، يخبرني وهو يبتعد بخطاه أن معتنقي ديانته لا يكذبون وأنني بارعةٌ في الكذب.

ارتجي الرحمة وجَعبَة حسناتي فارغة، ما خشع قلبي يوماً لدعاءٍ من شتى الأديان، سيئاتي مدرارة، سيئاتي كانت ثمن طفولتي دميمة، ثمن صِباي الذي لم يتحلَّ بالخُلق الحميد، ثمن شبابي مُستقبح عن العقل، ثمن حُب جارِم، وزواج ماكِر، ثمن اتقان الكذب على زوجي وإيهامه بأن تأخرَ الحمل بسببه وأن عليه مراجعة الطبيب وأنا لم اكُف عن تناول حبوب منع الحمل، ثمن خيانتي له بعدما قَبِلَ الزواج بي وانا امرأةٌ بماضٍ قميء، لطالما عرفت اشكالاً عديدة للخيانة إلا أن اقذرها هو التظاهر بالحُب.

يرن الهاتف، يتصل الدكتور (حامد) ليطمئن على صحتي ويحثني على تناول العقاقير الطبية الخاصة بي في مواعيدها، يتحدث معي بلطفٍ كعادته، ثُم يمازحني مشيراً الى انه تعمد اعطائي عقاراً إن لم اتناوله ليومين سأتعرض لنوبةٍ قلبية نتيجة لتنشيطه المستمر للدورة الدموية في جسمي، يجعلني ابتسم قدر تهذيبه وقدر احترامي له فينهي اتصاله.

الدكتور (حامد) الطبيب النفسي الخاص بي منذ سنوات، جلس في عيادته مرة كل شهر ليقحم في فمي عقاقيرَ تعبث بذاكرتي، ابتسم مرة أخرى لأنني اكتشف بأن (ياسمين) كانت قد اتصلت به قبل قليل لتخبره بتقاعسي عن تناول الدواء، وما إن رن الهاتف وذهبَتْ إليه عرفتُ ذلك، سير خطاها كان يخلو من الشوق وهي على موعدٍ في الساعة الثامنة مع من تُحب، (سامح)، فلو كان المتصل هو لكان

سير خطاها بشكلٍ آخر، تسأل (ياسمين) عن مصير الكل، تعدد أسمائهم واحداً تلو الاخر، متشوقة إلى سماع ما تبقى، اطلب إليها الصبر قليلاً، فلا يمكن لها ان تعي ما أقول حتى تشعر به.

مخاضٌ لا يلد الحلول، تنهمك من كُثر الجَلد على القلب، تمنح وظائف الجسد اكملها للكبد، لعل ما هو مُعقد يتم تجزئته وحله، كل السُبل ما عادت تنفع، صوت الجوع على الشبابيك كزقزقة عصافير منزلهم وباحته، تخاطبه وهو لاهٍ عنها، تحاول ان تستمر بحبه وهو هائمٌ في اعتقادٍ لم يُكتَشف الى الان دليل قطعي لوجوده، فَرِحٌ لأنه كان مُثقلا بالخطايا وبات الان بلا ذنوب، بعد أن يشترك في جريمة قتل، يفر (رؤوف) خائفاً باكياً لحضن (ليلى)، يستجديها لئلا تتركه، اتفقا حال عودة علاقتهما الزوجية بعد الطلاق بأن تلتزم باللبس الذي يوائم مظهره الملتحي بالملابس المشابهة للزي الافغاني مقابل أن يكف عن الاشتراك بأي عملٍ جهادي على حسب قناعته او ينتمي إلى أي جماعة خارجة عن القانون، إلا أن وقع الايات القرآنية التي تحث على الجهاد وتفاسير مشايخهم لها كان اكبر من وعده، لا حزن ينفع (ليلى) لمأساتها، ولا ندم يعود (برؤوف) الى الماضي ليكف عن تشدده وتعصبه، ادى دوره المسرحي في ذلك المشهد بدمعٍ غزير، يكاد يختنق مع كل جملة، نادمٌ على ما فعل، واسيرٌ له لما تبقى في حياته، ظن بأن حلقه لذقنه وتغيير

شكله قد ينفع لأن يقول للمجتمع بأنه تائب، إلا أن التوبة تُقبل من الرب فقط، أما الحاكم فبإمكانه تخفيف الحُكم الجزائي فحسب، كان ظهوره في ذلك المشهد بمثابة تقديم رأسه الى مشنقة الإعدام.

يجتمع (رؤوف) على المسرح مع صبيةً لينشر أفكار جماعته التي انتمى اليها بإيمانهِ مدفوع الثمن، جماعة أعلنت انشقاقها من جماعة الاخوان المسلمين واطلقت على نفسها (جماعة التكفير والهجرة) بقيادة (شكري مصطفى) بعد التثقيف لتلك الجماعة من داخل السجون التي افرج عنهم السادات وعفى عنهم، كان قد استمع للكثير من محاضراتهم ونقاشاتهم وقت سجنه السابق وتأثر بهم، إلا أن حبه لزوجته وطمعه لرضاها كان السبب في كتمان الامر، يُعزى لهم سبب اختيار اسم التكفير والهجرة لكون الجماعة تؤمن بتكفير الحُكام لأنهم لا يحكمون على وفق شرع الله ويكفّرون الشعب التابع له لرضاه وعدم اعتراضه عليه، أما الهجرة في العزلة عن المجتمع الجاهلي وفي فكرهم كل المجتمعات الحالية جاهلية حتى تعيش الامة كما عاش نبي الإسلام في الحقبة المكية، كان لا يعلم بانتمائه سوى زوجته ومن كتب نَص المسرحية، شكا فقر الحال وعدم ايجاده لعمل يكفي لسد رمق العيش، حدثتني ذات يوم بأن وصل بهم الحال إلى المبيت في الشارع لليلة كاملة بعد ان رمى صاحب شقتهم المستأجرة اغرضهم خارجاً لتأخره بدفع الايجار،

طلبت إليه السفر الى (أسيوط) للعيش هناك قرب أهلها لكنه رفض ذريعة عدم توافر فرص عمل وان العاصمة ذات فرص عمل اكبر، فُضِحَ امره خلال العرض وقدم دليل مشاركتهِ في مقتل (محمد حسين الذهبي) وزير الأوقاف الدينية آنذاك بعد ان اُختُطِف من منزله مقابل اطلاق سراح مجرمين من (الجماعة) مدانين بجرائم وبانتظار محاكمتهم إلا أن اطلاق الحكومة لعنصرٍ واحد منهم لمفاوضتهم لم يجدِ نفعاً وقُتِلَ ورميت جثته، لم يكن (رؤوف) أحد المشاركين في مقتله لكنه شارك تحركات الجماعة واستطلاعاتهم، في خضم ذلك المشهد يستعين المخرج بدمية بحجم الانسان ملفولةٍ بالكفن يُطلَق عليها النار، تبقى وسط المسرح بمشهدٍ مُحزن لمحبيه ولذويه، تجري محاكمة قاتله ضابط الشرطة المنشق (طارق عبد العليم) ومؤسس الجماعة الذي تفاخر بجريمته هاتفاً وسط المسرح: «انا الرأس المدبر»

يصرخ (رؤوف) مخاطباً القاضي بأن الوزير المقتول كان كافراً لأنهُ تهجم على جماعتهم عبر مقدمة كتاب (قبسات من هدى الإسلام) الذي اعده المكتب الفني لنشر الدعوة الإسلامية في وزارة الاوقاف بعدما أشار صراحةً فيه الى بُعد (جماعة التكفير والهجرة) عن جوهر الإسلام وانتهاجها لنهج التشدد وقتل من لا ينتمي إليهم، تلك الحادثة كانت الفرصةً الذهبية التي انتهزها (شريف) ليمتلك بين يده فلماً وثائقياً يبيعه بالمبلغ الذي يريده لجهة التي يتجسس

لصالحها، بعدما ارتمى (رؤوف) بحضن (ليلى) نادماً يتنهد بأسمها لم تتمكن من هجره، بدأت تلمع بعينيها احاديثه القديمة، وما ان قُبِضَ على مرتكبي الجريمة هرب معها الى (اسيوط) بوصايةٍ من (شريف) شريطة ألا يعلم أحد من ذوي (ليلى) بوجودهما هناك وألا يسكنوا بالقرب منهم، قام (شريف) في وقتها باستغلال علاقاته الاجتماعية للاطلاع على اعترافات من القبض عليه لاشتراكه في قتل (الذهبي) وكان من حُسن حظه أنهم نسوه لأن دوره لم يكن مؤثراً، تذكره الجميع باسمه المستعار ولم يتوصل التحقيق إلا لملامح تخمينية لوجهه، ادعى (شريف) كذباً أنه اضطر الى تغيير إفادات المتهمين والشهود وطلب توسط الرئاسة لغض النظر عنه مقابل ان يقدم خدمةً عظيمةً لبلده وان يشي بما يعلم عنهم له حصراً حفاظاً على حياته.

كان من الدهاء السياسي للسادات تعيين (محمد عثمان إسماعيل) المُتودد المُحِب لجماعة الاخوان المسلمين محافظاً (لاسيوط) عام ١٩٧٣ ولحين انتهاء عهد حكمه، كانت ملاذاً امناً لوجودهم ما أن فروا من باقي المحافظات، لأن امر كبتهم في عموم مصر كان القرار الخاطئ الذي لم يتخذه السادات، كان ينظر اليهم كمثل قارورةٍ يغلي فيها الماء ويستوجب أن توجد فتحةً لتفريغ البخار الساكن كي لا يؤدي الى انفجارها، اتُهِم ذلك المُحافظ مراراً بعلاقةٍ سرية تشوبها الغرابة تجمعهُ بالسادات الذي يتبع نهجاً مُغايراً في

القاهـرة، واطلـق العنـان لمتشـددي الجماعـة للفتـك بمسـيحيي أسـيوط في وقتـه، قـال بعضهـم بأنـه مـن القلائـل الذيـن يقابلـون السـادات بسـهولة، فقـد كان مستشـاراً للسـادات عـام ١٩٧٢ وعرابـاً للاتفـاق الـذي ابـرم بـين السـادات ومرشـد جماعـة الاخـوان المسـلمين في وقتهـا (عمـر تلمسـاني)، طلـب (شريـف) إزاء خدمتـه تلـك ثمنـاً بخسـا، تقريـراً مُفصـلاً عـن حيثيـات نشـاط الجماعـة هنـاك، نشـاطهم السـياسي، الاقتصـادي، العسـكري، ومـدى إمكانيـة انتفـاع السـوفيت منـه لأن خصمهـم واحـد بيـد أن العمـل المشـترك بينهـم مسـتحيل للاختـلاف الهائـل بـين أيديولوجيـات الطرفـين.

بعـد انتهـاء المشـهد، يحـاول (شريـف) الهـرب مـن المسرح ويتـم منعـه، يتشـاجر مـع قـوات الامـن حتـى يتعـرض للـضرب، يطلـب هاتفـاً ليتصـل بأحـد المسـؤولين ولا يُسـمَح لـه، تقمـص (طـارق) دوره واجـاده، كان يـؤدي الـدور بشـهية مفرطـة للانتقـام منـه، لم تكـن هنالـك صِلـة او سـابق معرفـة بينهـما، إلا ان حُـب (طـارق) لوطنـه كان سـبب ذلـك.

كان عـلى (آسر) الصمـود أكثـر أمـام غـول فراق (شـدن) لا أن يصبـح نحيـلاً، هزيـلاً، لا يقـوى جسـده عـلى تحمـل نزلـة بـرد، مـا كان يتوقـع انهـا لا تفتـح لـه بـاب منزلهـا في الحـي العشـوائي بعـد الـتردد عـلى زيارتهـا أكثـر مـن مـرة ولا يجدهـا، بعـد أيـام، تصلـه رسـالتها الأخـيرة عـبر البريـد، يقرأهـا واقفـاً وسـط غرفتـه، ثُـم يكـرر قراءتهـا وهـو جالـس، يبكـي كأنـهُ يُريـد

التشبث باذيال ثيابها، يجول اركان مسكنه متخبطاً بظنونه، يخرج راكضاً ليذهب إليها لعلها لم تنتقل بعد، يحاول هدم اسوار رحيلها لكنه لم يمتلك المال الكافي لشراء فأس.

مُستلقياً على سريره وسط المسرح وقربه (ليلى) جالسةً بالشكل المقلوب على كرسي خشبي، تتمايل تارةً تحدثهُ بجدّ وتارةً تُحاول المزاح معه، تحاول انهاء عزلته التي قضى فيها أسابيع ولكن محاولاتها تبوء بالفشل، تؤكد له بأنها ستعود إليه، لكنه لا يكترث، تتركه في عزلته وترحل عنه، تدخل من خلف الكواليس فتجد (رؤوف) يجلس القرفصاء في احدى الزوايا، قربه شرطي يضع الاصفاد بين معصميه وآخر يوجه البندقية الى رأسه، تصرخ حتى تُسمَع صرختها خارج المسرح وهي راكضةً بإتجاهه، فيمنعها الشرطي من التقرب، يخبرها بأن المخرج ابلغه بأن (رؤوف) انهى دوره على المسرح وهو الآن قيد الاحتجاز، ينادي المخرج من اخر الرواق على الشرطي ويبلغه بأنها زوجته، وانها انهت دورها على المسرح ايضاً ليتم تقييدها واحتجازها بجنبه.

اسمع صُراخها فاقترب منها لمواساتها، اراها ترتجف وهي تسأل (رؤوف):

- هل عرفت لمَ كنت أضرم النار في كتبك؟ هل عرفت لمَ تحملت منك الضرب والاهانة ولم أكفَّ عن حرقها؟ كنت أحاول اخراجك من بِركة آسنة تقتات على الدم

والقتل والنهب، كنت ترمي بنفسك في مياهٍ ضحلة، ألم تقرأ من قبل عن حضارات ما قبل الإسلام؟ ما قبل الميلاد؟ زامنت البشرية أكثر من (٤٣٠٠) دين ومُعتقد، لمَ أنتم فقط على الصواب والكل على خطأ؟ لمَ الجحيم مصير كل من يُخالفكم الرأي؟ جحيم الدنيا بقتلكم إياه وجحيم الآخرة لأنه في النار بحسب فتوى زعيمكم الارعن، هيا، لمَ لا تُناجي ربك ليخلصك من هذا المأزق؟ ألم تعمل لحسابه طوال هذه سنوات ويتوجب عليه انقاذك؟ سيتخلى عنك، أليس كذلك؟ عشرات الحركات الإسلامية المتشددة ظهرت خلال التاريخ الحديث وكان مصيرها الأفول بحكم التطور، لأن أفكارهم الدينية تُدحَض بحكم التطور الناتج من صراع المُجتمعات، إلا أنتم و(حركة طالبان) بقيتم أقوياء، هل تعلم لماذا؟ لأنكما لستما حركتين لمعتقدٍ ديني كمثل الحركات البقية، انتما حركتان لتوجه سياسي تتلون في كل عصر لتُصارع ذلك التطور وتتغلب عليه وتبقى سائدة، يُمولكم كل من يستخدمكم لاغراضه ولطالما كنتم البيدق الماهر على طاولة شطرنج الصراع الإقليمي فأن تمويلكم لم ينضب ولن ينضب، وستبقون مصدر تأثير وقوة.

تطلب بصراخها من (رؤوف) أن يُجيبها لتكف عن غضبها، فيلتزم الصمت، وسط اندهاش وحزن الشرطيين

اللذيـن بقربهـا وانـا معهـم، ترفـع رأسـها موظِفـةً أداة (إن) الشَرطيـة بُغيـة تعلـق الجـواب عـلى الـشرط لتبتهـل ربهـا بشـجنٍ فائـق قائلـةً: «إلهـي، إن كان هـذا يُرضيـك فأنـتَ لا تسـتحق العبـادة».

يظـل (آسر) متشـائماً عـلى سريـره، يحلـم بامـرأةٍ خُلِقـت مـن ألـقٍ، في الوقـت الـذي خُلِقـت فيـه النـاس مـن طـين، بحسـنها لـو لامسـت جـذع شـجرةٍ لاثمـرت فاكهـة التـين، يفيـق بأثـر صـوت يُثـار مـن صفـوف الحضـور لدهشـتهم مـن دخـول (شـدن) وهـي تقـترب مـن سريـره بعـد عـام كامـل عـلى انتظارهـا، تقـف امامـه فينهـض هَرِعـاً، تجلـس بجنبـهِ ثُـم تقـول لـه:

- كم لَهوت طفلةً في قصر ضحكتكَ، اشتقتُ إليك.
- حزنتُ لفراقكِ كثيراً.
- كيف تظن انني قادرةٌ على فراقك؟!
- مُتأكـدٌ مـن انـكِ وجدتِ شـيئا عنـد صديقـك الغني دفعـكِ للـزواج منـه.
- ومـا دخل الغِنـى والـزواج بحبي لك؟ أنـا احملك في صـدري منـذُ الصِغـر.
- استسلمت.
- هـذا العـالم ليس مصنعـاً لتحقيق الامـاني، كان عليك ألا تستسـلم.
- عـام بأكملـه وانـا بانتظـارك، تركـت كل اعـمالي التجاريـة بعـت شركتـي اشـتريت مبنـى يحتـوي عـلى شـققٍ مؤثثـة،اتقـاضى ايجارهـاالشـهري واعيـش منـهدون عمـل.

- كم لوحة رسمت خلال هذا العام؟ (تقولها وهي تتلفت)

- لم ارسم شيئا.

- هل هجرت الرسم ايضاً؟

- كلا، ما عادت انفاسي تبعث الروح ما إذا نفختها بالواني لأخلق، انتابني عطش شديد إليكِ شلّ كف يدي، خَيرني فراقكِ بين آلام متعددة ألا أنني اخترت أن أنهار، كان ذلك اهون بكثيرٍ من ان اقاوم.

تقبض على كف يده وتخلل اصابعها بين اصبعه كما اعتادت، تشعر بالطمأنينة تهم (شدن) بالوقوف ماسكةً يده، تجره معها ليعزفا معا، يجلس فتجلس على حجره وشعرها يتدلى قرب اصابعهما ليعزفا معا، تذكرهُ كيف علمها العزف، كيف التقيا اول مرة، تخبره وهي مغمضة العينين بشفاهٍ تتآكل عن جمال طعم فاكهة الكرز الذي قدمها له على ناصية الشارع، تعاتبه على هجرهِ لها، تخبره عن مسكنها العتيق وعمَّا عانته في وقتها، ثُم بوجهٍ قاسي الملامح تخبره عما حدث مع صديقها لتتزوجه، تخبره كيف استغلها جنسياً لتقوم بإغراء اشخاصٍ وتمارس الجنس معهم لمنفعةٍ تعود إليه لم تعرف ماهيتها، تخبره عن حادثة الفندق وكيف مارست الشذوذ مع امرأةٍ لتلبية شهوة رجل لتعلم فيما بعد بمقتله، عن مرتين متتالتين اغوت فيه رجلين لتسرق حقيبة احدهم وليتم تصوير الاخر

عارياً ليتم ابتزازه، ثُم يطرح عليها فِكرة الزواج شريطة السكوت عن تلك الحوادث اللائي لم تكن بحسب تعابيره إلا عمل وتلقت اجراً زهيداً ازاءه، تخبره كيف اختارات العيش في قصرهِ بدل مسكنها المتهالك ومحو تلك الاحداث بالكامل، يكاد (آسر) ألا يصدق ما يسمع، فتخبره بأن ذلك بديهي لأنه يتجسس لصالح دولةٍ اجنبية واقنعهم بتجنيدي، وتلقى مقابل ذلك اموالاً طائلة وكان لا سبيل امامه ليكسب ثقتهم سوى الزواج بي، اما عنها فأنها لم تملك أي سبب لترفض عرضه مع نصف ملكية القصر الذي يسكنه.

و(آسر) يحاول النطق ليواصل استغرابه، فجأةً يسمعان صوت اقدام تسير نحوهما فينتابهما الفزع، يركضان الى احدى الزوايا ويختبئان فيها، تلاصق جسدها بجسها وجهاً لوجه فتقبله شِفاهه، يكاد الحضور يحبس أنفاسه، تميل برأسها لتتمكن من سرقة النظر بعينٍ واحدة، تجد رجلاً بمعطفٍ اسود كأنه أضاع شيئا ويبحث عنه، ينعكس الضوء فترى وجهه وهو يدخل وراء الكواليس راحلاً تخبر (آسر) بأن رجلاً جاء يُلاحقها، يسألها من يكون فتخبره بأنهُ الغني الذي تزوجت به.

تنزل الستارة على عجل ليتغير ديكور المسرح لمنزلها ثُم ترتفع، تظهر (شدن) جالسةً على مائدة طعام أعدتها، يدخل زوجها وهو لا يزال يضع قناعه في اثناء تجسّد الدور

على المسرح، يبتسم، كأنهُ انتصر في الحرب على ألد اعدائه، سعيدٌ لأنه انتصر على شكهِ بيقينٍ واهن، يلقي عليها تحيتهُ بدفء فترى يدهُ مُتسخة، وهو يدخل لإحدى الزوايا ليُغير ثيابه تسأله عن أسباب ذلك فيجيبها بعد أن يترك حقيبتهُ مفتوحة برفقة اشيائه المبعثرة على الطاولة بأنهُ وجد احدى عجلات سيارته مطعونةً بسكينٍ صغيرة واضطر لتبديلها بنفسه.

ضجيج وحديث بصوتٍ عالٍ صُراخ يتعالى في ارجاء المسرح، فبعد ان انتظر الجميع بشوق رؤية وجه صديقها الغني الذي تزوجها وهو على مدى عرض المسرحية يضع القناع على وجهه، ينظر الجمهور إليه وهو يجلس امامها على المائدة يزيل القِناع من وجهه ويلتفت للجمهور، يرى الجميع وجه (طارق).

بغضبهِ وصراخهِ وتهديداته يحاول (شريف) إيقاف العرض فيجيء أحد افراد الشرطة ليجلس جنبه حاملاً سلاحه غير شاهره، يضع اصفاداً حديدية بين معصميه، يبقى هادئاً بعد أن يتأكد بأنها النهاية، كانت قد اكتملت ادلة جرائمه ضمن مشاهد المسرحية، ضجيج قوات الشرطة لا يزال داخل الكواليس، لا يزال التفتيش والاستجواب مستمرا والكل سَلمَ امره لحتفه المحتوم إلا أولئك الكومبارس الذين تلقوا اجراً ازاء حضورهم، لم يكن لهم ادنى عِلم بأن كاتب النَص كان دقيقاً جداً لئلا ينجو أحد من الموت المؤكد.

يـضرب زلـزالاً خشـبة المـسرح، يبتلعنـي حـوت الجـزع ثُـم يبصقنـي باتجـاه زمـنٍ اخـر، أرى نفـسي في تلـك الاحـداث، ارجـع للحظـة الجلـوس عـلى مائـدة العشـاء برفقـة (شريـف)، أكـون عـلى اتـم الاسـتعداد بمقايضـة طمعـي السـابق مقابـل ان تعـود حيـاتي إلى طبيعتهـا، اسرق مـن الزمـن بضـع لحظـات لم تتسـنَ لي في وقتهـا لاقـرأ حزمـة الأوراق المبعثـرة التـي يحتفـظ بهـا (شريـف) بحقيبتـه مـع اشرطـة التسـجيل السريـة اقلـب كل محتوياتهـا، اجـد ضمانـاتٍ وصكـوكا بأرقـامٍ كبـيرة بأسـماء اشـخاصٍ لم اتعـرف اليهـم، اجـد مـن بـين تلـكً الأوراق نتائـج فحوصـاتٍ طبيـة قـام بهـا في اخـر سـفرٍ لـه، اقـرأ احداهـن فأجدهـا توثيقـا مـن طبيـبٍ مُختـص يشـهد بـأن (شريـف) عاقر.

(٩)

«الحياة سفينة مُحطمة ...

لكن علينا ألا ننسى ابداً لذة

الموسيقى في قوارب النجاة»

فولتير

ارسمُ ناراً يتراقص حولها الغجر، اهتف «مرحى» لكل الكسالى في العالم، لاولئك الذين تخلوا عن الوعي وقتما عَشِقوا، لاولئك الذين لم يتسموا بالبشاعةِ في انتقامهم، لاولئك الذين ظلوا يراقبون بهدوء فوات الأوان وهو يفوت دون اكتراث، لاولئك الذين لم تملأ ليالي طفولتهم الكآبة، المحرومون من البوح ولم يكونوا يوماً مضطرين للبكاء من اجل أن يُنصَت لهم، لاولئك الذي آمنوا بهُراء الكهنة وصدقوا خُرافةَ عذاب القبر.

اقفُ وبيدي خنجر مسموم وفي يدي الأخرى بضع رصاصات، اطلق الرصاصات على احدهما في عقلي واطعن الاخر في عقلي ايضاً وانا اضم كلتا يديّ خلف ظهري دون حِراك خشية، كنت اخشى عليهم من الآذى، تسابقنا معا على مضمار الموت بأرجلٍ مُتهرئة، شَربنا أوراق نصوص ادوارنا على المسرح وتركنا قهوتنا على الطاولة، افترقنا بأعينٍ ملؤها الغضب والكُره والتشاؤم، ثُم اكتشفنا كيف

كان الوهم هو الحائل بيننا، وخز قلوبنا الحنين فالتقينا، اكتشفنا بأن الحنين سمٌ لذيذ، تدسه الأيام في عقولنا لتورثنا الضجر.

يختار (آسر) اخر مشهد لمآساتنا تلك، ازداد ألم اصابته حتى بدل ضمادها لأنه نزف الكثير من الدم، يطلب إلى المخرج التحكم بالمشهد الأخير الذي كان بحسب النص ان تظهر الشخصيات تباعاً تجر اذيال الندم وتجثو على ركبتيها رافعة ايديها الى الأعلى لتأخذ السماء بها وتنقذهم او لتضع قوات الشرطة فيها الصفاد، يقرر ان يكون هو اخر من يظهر وان يرسم اخر لوحةٍ له، اخبر الجميع وهم مُكبلون بأنه يحب وطنه اشد الحب ويريد المشهد الأخير من دون نص او تلقين من احد، شريطة ان يقوم العاملون بتوظيب الديكور الخاص بمسكنه الذي عاش فيه مع لوحاته واعقاب سجائره وعلب الوانه المبعثرة على الارض، المشهد الاخير يجمعهُ (بشدن) إلا أن دورها أنا من جسدته، أنا وهو فقط ولوحة بيضاء وعِدة الرسم والألوان خاصته على المسرح في عرض اخر مشهد.

اجلس لأعزف على بيانو المسرح، يضيء الركن الخاص بي ويضيء سرير (آسر) الذي استلقى فيه على ظهره وتتشابك كلتا يديه على صدره، فينهض من فراشه، ينظر الى قدميه، يُحرك أصابعه ليتأكد من أنه قادرٌ على المشي، يُصفف شعره، يفتح كلتا يديه اقصى امدهما، يرى التجاعيد تكسو عظامه،

يجمع قواه من الحانها، عزف له بالطريقة التي علمني بها، أقف عن بعض النوتات لأعبث بقواعد العزف كما كان يمازحني، تَعلمَتُ منه الشغب بالالحان، يبتسم حين يفهم مُزحتي فينهض فاتحاً جناحيه كطائرٍ افترس الآن اشهى ما يحب اكله، يتراقص فيُلاحقه الضوء وسط عتمة المسرح، يتراقص كريشةٍ في الهواء باحثة على نسمات الهواء لئلا تنزل الى الأرض، يقدم عرضاً ابهى من ظهوره الأول مطلع المسرحية، يرتفع عالياً ليصل الى الغيم فيأمره بالمطر، يرجع الى الأرض ليعم فيها الربيع ويجعل كل بقعها خُضْر ممتلئة باصناف الورد، يصف للحاضرين لحظات الفراق واللقاء بإيماءاتٍ واحدة، ثُم يتوقف، فأتوقف عن العزف.

يجلس، الجمهور واللوحة البيضاء من امامه ويبدأ بالرسم، يتسم بالبطء على غير عادته، يتصور الجميع بأنه لن يرسم كاريكاتيراً سياسياً لأنهم اعتادوا سرعة يديه المجنونتين عند رسم الكاريكاتير، يرفع رأسه ليرجع بشعرهِ الى الوراء بعد ان اتسخت يداه بالألوان، اجيء لأصُفف لهُ شعره واجمعه خلف اذنيه، انظرُ الى وجهه كما ينظر المؤمن بالديانة النبطية لحجرٍ يعبده، يستمر بالرسم وانا اشكو له بصوتٍ شجي كثرة رؤية وجهي في المرآة مُهشماً، يلتفت لي ليخبرني بأن مرآتي تكذب واني فائقة الجمال، وأني قد خُلِقتُ من التوت والرمان والمرمر.

يولد بداخله حزن طفل يتضور جوعاً، فيطعمه نشرةً من

نشرات اخبار وطنه فيصبح هرماً يملأ رأسه الشيب فيدفنه بعد رفعه بفرشاته وغمرهِ بالألوان ثُم يدسه في لوحته، يحتاج إلى مزج لونين في بودقةٍ صغيرة فيصب بها اللونين ويمزجهما فيظهر له وجه شابٍ وسيم يخبرهُ بأنه مات في السجن بسبب تلوثٍ أصاب رئته وانهُ كان طالباً في الجامعة ولم يرتكب ذنباً سوى ترك ذقنه، يقسم له مراتٍ متتالية بأنه لم ينتم الى أي جماعة تعارض الحكومة إلا أن الحكومة زجت بهِ فَي السجن حتى مات، يمزج بسرعة حتى يختفي وجهه، يضع اول لمساته على اللوحة البيضاء فيظهر وجه رجل شارف على الخمسين من عمره، يفتح عينيه اقصى مداهما قائلاً: «انا قُتِلت لأنني جَهرت برأيي السياسي وكتبتهُ في الصحف، لا ترسم، ستموت مثلي»، يساوره الشك بأنه فَقدَ عقله، يلتفتُ لي يحدثني عن هلاوسه فيراني اتألم، يطمئن حالما يتأكد من أنني رأيت ما كان يراه، بعد تنهيدةٍ عميقة يحاول البدء بالرسم فيهمس بأذنهِ جندي قُتِلَ في حربنا الاخيرة متسائلاً:

- هل انتصرنا؟

- كلا، لم ننتصر، ذهب السادات الى العدو وصافحه.

(يقول اسر مُتحسراً)

- مؤسف، يا ليتني ما ضحيت بحياتي فداءً للوطن.

- تستحق مصر اسمى التضحيات، لكنك ضحيت من اجل ان يخرج رئيسها في المذياع ليتباهى بقوته.

- هـل بإمكانـك ان تعيـدني الى الحيـاة؟ اعـدك بأننـي سـأهرب مـن الحـرب واختبـئ في حضـن امـي.

- اعتـذر، يمكنني نفـخ الارواح في لوحـاتي فحسـب، المـوت والحيـاة بيـد الـرب.

- اللهـم اني مَسـني الـضُر وانـت ارحـم الراحمـين، ارجـوك، هـل تعلـم ايـن اتجـاه الجنـة؟ بحثـت عنهـا ولم اجدهـا. (يقـول خائفـاً)

- انت شهيد، ألم تخبرهم بذلك؟

- اخـبر مَن؟ لم اجـد احدا، المُفـتَرض اني شـهيد، ومُت مُسـلماً مُدافعـاً عـن وطنـي ودينـي، أنـا متأكـد، أنـا احفـظ أجـزاءً كثـيرة مـن القـرآن ودرسـت الفقـه الإسـلامي في مسـجد حيّنـا، حتـى ذاك المُلقـن وعـدني وهـم يضعـوني في القـبر بـأن لي منزلـة الشـهداء، أنـا سـمعته.

- وماذا حصل؟

- لم اجـد شـيئا، ظـل القلـق يسـاورني، اعـدتُ التفكّـر بمئـة وواحـد وسـتين آيـة ذكـرت كلمـة شـهادة او شـهيد في القـرآن فوجدتهـن جميعـاً بمعنـى يشـهد أو شـاهدَ، بمعنـى رأى شـيئا وشَـهِد عليـه، أمـا عنـي فأنـا قُتِلـت في سـبيل شيء سـام لدينـي او لـربي او لوطنـي، الفـرق يكمـن بـين التضحيـة في سـبيل الله ولفـظ كلمـة (شـهيد)، مـن الـذي ربـط التضحيـة بالشـهادة؟ كيـف لم أفكـر في ذلـك مـن قبـل! علمنـي أمـام المسـجد بـأن الشـهداء خمسـة هـم: (المطعـون والمبطـون والغريـق وصاحـب الهـدم والشـهيد في

سبيل الله) بحسب ما روى (ابن ماجة) و(ابي داود)، إلا أن (ابن حجر) روى عن ذلك وقال بأنهم عشرون، أما (إسماعيل بن ابي خالد) فقد روى قائلاً: (أن كل ميتة يموت بها المسلم فهو شهيد غير أن الشهادة تتفاضل).

- لعلَ ما رواه (ابن ماجة) صحيح.

- كيف!! انت قُلت بأنني ضحيت من اجل ان يخرج الرئيس في المذياع ليتباهى بقوته وليس في سبيل الله او من اجل مصر. (يقول منزعجاً)

- لعلَ كل المسلمين شهداء بحسب ما روى (إسماعيل بن ابي خالد)، لا تيأس.

- شرحتُ لك بأن لفظ الشهادة في القرآن لا علاقة له بالتضحية بالنفس، من أصدق، هو أم القرآن؟ هل تعلم بأنه توفي بعد وفاة النبي بمئة وخمسة وثلاثين عاما. (يقول حانقاً)

تنتاب (آسر) نوبة غضب، يضطرب فيضرب برجله لوحته واشياءه فتتناثر ارضاً، انحني مع انحنائه لأجمعها من جديد، اتوسل إليه ليهرب فيضحك، يخبرني بأن لا مفر من المأساة إلا بالموت، والاجمل ان يكون الموت رحيماً، وأن ليس هنالك ثمة وسيلة للحصول عليه إلا بالانتحار.

ينهض ويُلملم اغراضه ويعيدها كما كانت عدا بعض الالوان التي استعملها وهي متناثرة على الأرض، يشرع بالرسم، فأرجع أنا لأعزف على البيانو،

دقائـق مـن الصمـت جعلـت كل مـن سـمع هـلاوس (آسر) مـع الأرواح التـي اسـتحضرها للرسـم أن يُعيـد التفكـير وأن يقطـع وعـداً عـلى نفسـه بـألا يكـون مأسـاةً ناتجـة عـن تقلبـات مـزاج الوطـن وهُـراء حكامـه.

ينتهـي مـن لوحتـهِ، وصـبر الجمهـور يـكاد ينفـد لـيرى مـا رسـم، إلا أنـه لا يـزال يلتـزم الصمـت والترقـب، مـا زالـت اللوحـة تلتفـت الى (آسر) وتُديـر ظهرهـا للجمهـور، اتوقـف عـن العـزف واقـترب منـه، ارى اللوحـة فـأصرخ مـن شـدة الفـزع، امسـك بإحـدى علـب الألـوان محاولـةً سـكبها عـلى اللوحـة لأتلافهـا، يمسـك معصـم يـدي ليمنعنـي قائـلاً بصـوتٍ أسـود:

- الموت الرحيم، نهاية تمنيت كثيراً أن ارسمها.
- لا تفعل ذلك، ارجوك، ابقَ معي.
- رجوتـكِ لتطلبي الطـلاق منه ونتـزوج، ورفضتِ، لمَ الان تريديـن منـي البقـاء؟
- انا حامل.

يبتسـم ابتسـامةً مـا رأيتهـا في وجهـه مـن قبـل، طَمـرَ فيهـا الدهشـة والتوتـر والفـرح معـاً، يديـر اللوحـة أمـام الجميـع فتتعـالى أصـوات الانبهـار والتعجـب والسـخط معـا، ظـل الجمهـور كعادتـه بـين مؤيـدٍ ورافـض، يهتـفُ ضـد، ويهتـف إزاء الضـد ضـده.

رسم (آسر) منصة إعدام مُعلقاً السادات فيها بحبل المشنقة وقدماه ترتفع عن الأرض مُرتدياً بدلة اعدام حمراء كُتِب عليها (خائن). في إشارة منه للمطالبة بإعدام الرئيس لخيانته ومسيئاً له بالكلمة خائن وعدم الاعتراف به كقائد عسكري لأنه رسم طريقة إعدامه شنقاً إذ اشترط قانون الاحكام العسكرية أن يكون اعدام القائد العسكري رمياً بالرصاص.

اظل اصارع الموت غرقاً بعدما غمرني بحر اليأس بتجاهله لي، فيتركني ذاهباً بإتجاه البيانو، يعزف ضرباً، كأن يده تحمل قضباناً حديدية بدل الأصابع، يعزفَ كأنهُ مُهووسٌ بمن يُحب، يثبت للعالم اكمله بأن اقسى تغييرٍ يمرُ على الانسان لا يكون إلا بحالتين، حين ينكسر قلبه أو يزيد وعيه، عزف جزءً من اوبرا (Carmen) للعازف الفرنسي(جورج بيزيه Georges Bizet)، والذي أسماها بالفرنسية (l'amour est un oiseau rebelle)، تحكي قصة رجل يدعى (Don José) عشق امرأة غجرية متقلبة العواطف تُدعى (Carmen) تجعله يترك حبيبته منذ الطفولة وتحوله من جندي مُطيع إلى شَقي خارج على القانون ليقوده حبها الزائف ختاماً إلى ساحة الإعدام بعد ان قتلها طعناً بالسكين لأنها هجرته وذهبت مع عشيقها (Escamillo) ذريعة أن حبهُ بدأ يُقيدها وهي مولعةً بالتحرر.

توقف العزف فجأةً وعجت الفوضى وتعالت أصوات الصراخ بعد أن قام أحد افراد الشرطة بقتل (آسر) بثلاث رصاصاتٍ في ظهره.

(١٠)

نهضتُ من مائدة العمر دون ان اشبع منه، لم يبق لي سوى لفظ اسمه ومضغهِ ببطء، كان أجمل من معابد الاغريق، يشبه الماء جداً لكن في العذوبة كان اخف منه والغرق فيه لا يؤدي الى الموت، يشبه الماء جداً في شكلهِ ووصفه إلا شفتيه فلها لون وطعمٌ ورائحة، كان شيء لا يوصف، لا الروايات ولا دواوين الشِعر ولا صفحات الادب في الجرائد اليومية تمكنت من وصفه، كان اشبه بدهشة وقوع المعجزات واروع ومن مُباغتات المصادفات، يا ويّلٌ للشِعر من بعده.

ما زلت أخاف الاستيقاظ صباحاً وأنا بكامل قواي العقلية، وقع فراقه كان مدوياً على عقلي، وفكرة الاحتفاظ بصورتهِ كانت خاطئة، ظننت أنني قادرة على إطفاء الجَمرِ بالجمرِ، ظل يمتلكني البرود وأغادر الاشياء قبل ان تغادرني، نفورٌ من التعبُد وصلاة لا خشوعٌ للرب فيها ولا تمجيد لأديانه، تسبيح دون التفوه بكلمة، اكتئاب، هستيريا، بتُ حتى لا اعرف الفرق بين الورع والمعاصي.

مساءٌ لا ضوضاء فيه، لا ادخنة تتعالى من فوق رأسي، ولا سهرٌ يبدأ من بزوغ الشمس، أنا على وشك النهاية، احس بالبرد الشديد واسفل قدميّ بلا ادنى حِس، اطرافي تتثاقل وتوكل مهمة احداهن للاخرى وتتقاعس، توقفنا عن البكاء معا، أنا (ياسمين)، ظلت أمامي تحاول قطع صيوان اذنيها

وصب الحديد السائل فيها من هول ما سمعت، تركتها تبكي حتى تشعر بالراحة، لا سبيل لدى النساء غير ذلك ما إن كان تلقي الصدمة اشد من وقع التعبير بالكلام، تسألني بعد ان توقفت عن الارتجاف والتنهيد عمّا آلت اليه الاحداث، فأخبرها بآخر ما يسعني اخباره، الاوكسجين يدخل بصعوبةٍ لرئتي والبرد القارص جعل عظامي تتآكل وبدأ عقلي يتدحرج كحجر النرد على طاولة الادراك.

اطلب إلى (ياسمين) ان تعدني بالحفاظ على اللوحة خاصتي المعلقة في غرفة الجلوس، ثُم اطلب إليها جَلب الصندوق الذي احتفظ به اسفل سريري، فهي تعرفه جيداً لأنها ممنوعة من لمسه دائماً، تعترف بأنها حاولت فتحه وبحثت عن مفتاحهِ سنوات ولم تجده، كان ذلك الصندوق واللوحة المُعلقة على حائط غرفة الجلوس من المُحرم لمسها، اخبرها بأن المفتاح اخبئه خلف اللوحة المُعلقة، فتقفز كأنها تهرب من لهيب نار لتأتي به، تجلس وتفتح الصندوق، تقلب أوراقه بحثاً عن تفسير لما سمعته، لم يكن (شريف) اباها، ولم أقل لها بأنني انجبت طفلاً طوال حكايتي، لم اخبرها باسمي ايضاً، تمسك هويتي الشخصية، تسألني:

- من انتِ؟
- فيرونيا.
- فيرونيا داود؟
-

- نعم. (اقول وانا أتمنى الموت قبل أن تطرح سؤالها التالي)

- انتِ قبطية؟

- نعم. (اقولها بعد الصمت لدقيقتين، وبعد ان كررت سؤالها لمرات)

- لا تعرفين شيئاً عن المسيحية ولا تحضرين القداس في الكنيسة ولا تصلين صلاتهم ولا تتبعين عاداتهم، حتى ابسط الأمور حين اسألكِ عنها تتهربين من الإجابة، هل يُعقل ان تشتري امرأة مسيحية تجاوزت الخمسين من عمرها كتاباً بعنوان (تعليم المبتدئين اصول الدين المسيحي للقديس اغسطينوس نقله للعربية الخوري يوحنا الحلو)؟

- ابوكِ كان .... (تُقاطعني بأسلوبٍ حاد)

- كلا، كلا امي لن اصدق ذلكَ بعد الان، كنت تخدعيني بأنكِ اتبعتِ دين ابي بعد الزواج منه وكان يرفض قيامكِ بأي طقوس مسيحية في البيت او خارجه، ابي الذي توفي وانا لي من العمر ثلاث سنوات تمكن من منعكِ من ديانتكِ الى الان!! هل ابي هو (كامل محمد) كما هو في هويتي؟

- نعم. (كذبة اجزُ بها على اسناني حتى تكاد تتهشم)

- لم تزورين عيادة الدكتور (حامد) باستمرار؟

- كنت اعاني (الوسواس القهري) وشُفيت منه منذ أكثر من ١٥ عاما.

- وطالما لا تُعانين منه لمَ كلِ هذهِ الادوية؟
- لئـلا أُعـاني منـه مُجـدداً، لئـلا يعـود هـذا الكُـرسي يتحــرك وحــده.
- مـن كتبَ نصـوص المسرحية؟ (تقولها وتعـود لبكائها وبحزنٍ اشــد)
- شدن.

لحظــات شَــده لا تســتطيع مــن خلالهــا (ياســمين) اســتئناف اسـئلتها، اصمـت مـع صمتهـا ايضـاً، اشـعر بـأن مـا تبقـى لي مـن وقـت في هـذه الدنيـا لا يسـع للحديـث أكثـر، بـدأ ضغـط الـدم في جسـمي يهبـط بصـورةٍ غـير تدريجيـة، هـروبٌ وضعـت لـه خطـةً بدقـة، إلا انهـا اكتشـفت خطتـي وقتـما شَـحُبَ وجهـي وتفطـرت شـفتاي مـن العطـش، تطلـب إلي شرب المـاء وارفـض، أرى بعينيهـا نظـرة نـدم عـلى جـرأة اسـئلتها ولكنتهـا الحـادة، تطلـب إلي اخـذ قسـطٍ مـن الراحـة عـلى سريـري فارفـض، كنـت قـد ودعتـه ليـل الامـس وقبلـت كل زوايـاه ومقابضـه.

صــورةً (لأسر) يقــف فيهــا وســط شــارع حيّنــا الســابق في القاهـرة، اسـفل الشـقة التـي كانـت تجمعنـا، وصـورةٌ أخـرى تضــم أربعــة اشــخاص، وســاعةً كانــت بيــد (آسر) ليلــة العـرض، هـذه كل محتويـات الصنـدوق الـذي خبأتُـه عنهـا، تُحـدق (ياسـمين) لصـورة (آسر) طويـلاً، فعـلى الرغـم مـن اهترائهـا بحكـم الزمـن إلا أن الحُسـن في وجهـه لا يـزال آخـاذا، تقلـب الصـورة لترينـي إياهـا،

فأخبرها بأنه هو، ذاك الذي كنتُ أُوشك أن اعبدهُ.

تتأمل الصورة الثانية، تشير بإصبعها على وجه (آسر) فتعرفه، فتُشير الى الرجل الجالس بقربه فأخبرها بأنهُ (رؤوف) وتشير إلى فتاةٍ تجلس بينهما ضاحكة فأخبرها بأنها (ليلى)، وفتاة تقف خلف (آسر) منحنية تلف يديها حول رقبته لكنها بلا وجه، قُصَّ وجهها من الصورة وظل شعرها المُتدلي على كتف (آسر) جسدها الذي يحتضنه، تشير إليها وتسألني: «من تكون؟»، أخبرها بأنها (شدن).

أحدثها كيف انتقمت (شدن) ابشع انتقام من نفسها ومِن كل مَن حولها، هددت (شريف) بفضح أمره بعد أن سرقت تسجيلاتٍ صوتيةً له يتحدث فيها صراحةً عن تنفيذ عملياتٍ احدها كان القتل، اخبرته بأنها تُريد منه ان يشاهد العرض فحسب وانها ستعيد إليه كل التسجيلات وتُمزق عقد زواجهما ويتفقان على الطلاق بعد العرض مباشرة لأنها تزوجت منه عرفياً بحكم عمله الذي يجب ألا يرتبط قانوناً بأحد خشية كشف امره وطلب اللجوء السياسي او دخول البلد الذي يتجسس من أجله باسمٍ اخر، كان ذكياً ويحمل هويتين باسمين مختلفين وجوزاين للسفر فكان يجب ألا يدون اسمه ضمن اوراقٍ أخرى فتأكدت ان لا مجال للأنتقام منه إلا بعرض جرائمه بعرضٍ مسرحي، وهددت (رؤوف) بالاشتراك بالعرض مقابل عدم فضح جريمة (رؤوف) بالاشتراك في قتل (الذهبي)

وفي تسجيلٍ آخر له يتحدث مع (شريف) عن معلومات تخص جماعة الاخوان المسلمين، وهددت (ليلى) بمصير رؤوف ومصير تسترها على مجرم والسكن معه في (أسيوط) وهي لم يبق لديها اهل ولا وطن غير زوجها وحبيبها، منحت (شدن) الكومبارس المشتركين في المسرحية ومخرجها وعمال الديكور وكل من شارك مبالغَ مالية كبيرة، اتفقت مع المخرج بعد اطلاعه على النصوص وادراكه حجم الكارثة التي ستحصل بأن تكون التفاصيل كافةً على عاتقه، اشترطت عليه جلب الطلبة الذين طلبوا التمثيل في المسرح من قبل ورفضتهم اللجنة المسؤولة عن تقييم ادائهم واختيار الأدوار لهم بسبب دناءة رئيسها الذي كان يُساوم المتقدمين على المال او ممارسة الجنس.

قبل العرض بساعات، ذهبت (شدن) الى مديرية الأمن وطلبت الى مديرها مساعدتها لمقابلة وزير الداخلية، اخبرها بأن ذلك مُحال إلا بعد معرفة الاسباب، امتنعت عن الحديث مع أي شخص واخبرتهم بأنه تمتلك معلومات تتعلق بالأمن وأنها لن تشرع بأي شيء إلا بعد مقابلة الوزير، حدتها وصرامة تعاملها وجمال مظهرها بعد الغِنى والترف أدى الى استجابة الطلب، اقتنع مدير الأمن بصحة وحجم ما تقول لأنها ولا شك من الطبقة الراقية، تمكن من الاتصال وكلف الوزير احداً ينوب عنه ومنحه الصلاحيات كافة،

خـلال سـاعة او أقـل وصـل أحـد كبـار الجيـش الى مديريـة الامـن فقـررت (شـدن) تقديـم المعلومـات لـه لكنهـا طلبـت اليـه ان يوقـع تعهـداً خطيـاً رسـميا بالصلاحيـة التـي منحـت لـه بأنهـا تخضـع لتحقيـق برفقـة العامليـن في المسرحيـة إلا أنهـا تشـترط العفـو وعـدم اصـدار أي حكـم بحقهـا وأي حجـز تضعـه الدولـة عـلى أمـوال زوجهـا لا يمُـس أموالهـا وممتلكاتهـا، تسـوغ طلبهـا لتوافقـه مـع احـكام المـادة (٨٤/ أ) مـن قانـون العقوبـات المـصري فيتـم وعدهـا بذلـك بعـد ان أجريـت اتصـالات عديـدة عـلى مسـتوى عـال وتـم الاتفـاق عـلى مراقبـة المـسرح ليلـة العـرض وحمايتـه بعنـاصر امـن بالـزي المـدني لئـلا تُثـار أي شـكوك، وتمـت خطتهـا بنجـاح، ونجحـت ايضـاً بإتمـام النـص المسرحـي واتمـام المخـرج للتفاصيـل كافـة بأسـبوعين فقـط، كان التهديـد وحقيقـة النـص العنصريـن الرئيسـين في أن يحفـظ ابطـال المسرحيـة نصوصهـم ويتدربـون عليهـا باسـبوع واحـد، إلا (طـارق) نهـك التعـب جسـدي المُخـرج و(شـدنً) حتـى ظهـر بالـدور المطلـوب لأنـه أدى دوره دون تهديـد، إلا أنـه حصـل عـلى اعـلى اجـر مـن بـين زملائـه، باعـت (شـدن) مـن أجـل ذلـك العـرض ملكيتهـا المُشـاعة في منـزل زوجهـا الفخـم خـلال التنـازل بالشـهر العقـاري وقبـض نصـف المبلـغ مقدمـاً وتسـلّم مـا تبقـى بعـد إجـراءات البيـع التـي كان لا يعـرف مصيرهـا.

وجهـت محكمـة الجنايـات لـ(شريـف) تهمـة التخابر مـع دولة

اجنبية والقتل العمد المتعدد وحكمت عليه بالإعدام شنقاً، ووجهت لـ(رؤوف) تهمة الانضمام لجماعة مجرمة بأحكام المادة (٨٦ مكرر)من قانون العقوبات وحكمت عليه بالسجن مدة (٥) سنوات واسقطت عنه تُهمة التخابر لعدم علمهِ بمصير المعلومات التي يقدمها (لشريف) واسقطت عنه تهمة الاشتراك بقتل وزير الأوقاف السابق لعدم وجود دليل لإدانته بحسب التحقيقات الخاص بمقتله، وأصدرت حكمها ببراءة (ليلى) بعد اسقاط التهمة الموجهة إليها من المدعي العام بتسترها على مجرم الاستثناء الزوج والزوجة من تلك التهمة بعد ان اثبتا للمحكمة زواجهما، وافرجت المحكمة عن كل من اشترك بالتمثيل لعدم صلتهم بأي جريمة وتقاضيهم لأجر مقابل ادوارهم.

تبكي بوحشية بالغة، يكاد قلبها الخافق يتجمد، تلتهم الألم وتتقن تأبينه مثلي، تتهمني برَزْء ما هو أكثر الماً، فتسألني:

- عرفت مصيرهم جميعاً، إلا أنتِ؟
- لم تتم ادانتي بأي تهمة، وها أنا امامكِ قضيتُ ما مضى من عمري معكِ.
- ثمُ تزوجتِ من أبي بعد إعدام (شريف)، أليس كذلك؟
- انا لم اتزوج اباك.
- انا لست ابنتكِ!! و(كامل) ليس أبي!!، تلك

الأوراق الرسمية، عقد زواجكما واسماؤكم مثبتةٌ فيه واوراقك الثبوتية وشهادة وفاته واوراقي الرسمية!! كلها مزيفة!! أنا لقيطة؟!!

- كلا، كل هذه الأوراق رسمية وغير مزورة.
- أنا ابنة مَن؟
- أنتِ ابنة (شدن).

(١١)

البهجة تملأ المكان، يبتسم الكل بوجه الكل، حديقةً كبيرة تضم عائلتين، هم سُعداءُ للغاية، يجتمعون من اجل مأدبة غداء في عطلة نهاية الأسبوع، شابان منشغلان بشواء اللحم وفتاتان تتبادلان الحديث عن الاعمال المنزلية وعن موضة الأزياء لموسم الشتاء القادم، هنالك طفلان آخران يلعبان بكرةٍ صغيرة وسط تحذير الجميع لهما من قذف الكرة قرب مكان الشواء، يتقرب شاب من احدى الفتاتين وبيدهِ قطعة لحم ليسأل عن طعمها، تتذوقها وتؤكد له بعد مضغها بأنه امهر طباخ في العالم إلا أن العالم اكتشفه ولم يعلن ذلك خوفاً عليه من الحسد، يضحك الجميع على إثر مزحتها ثُم يهتمون بترتيب طاولتهم الخشبية وسط الحديقة ويتناولون طعامهم مع استمرار الطفلين باللعب والتقرب نحو المائدة لاخذ شيء من الطعام ولتناوله دون الكف عن اللعب.

(ياسمين) و(سامح) كانا اسعد زوجين على مأدبة الطعام تلك، اصبح لهما ابن، كانا برفقة صديق (سامح) وزوجته وابنهما، اجتمعوا في منزل (سامح) الذي اشتراه في الإسكندرية نزولاً عند رغبة (ياسمين) التي ابت العيش في القاهرة والبقاء في الإسكندرية شريطة الزواج منه، تمكن (سامح) من اقناع والديه على تركهما والعيش في الإسكندرية والاستقرار فيها ووعدهما بزيارةٍ كل حين،

وفي كل مرة تذهب فيها (ياسمين) الى القاهرة لا تقبل المكوث فيها أكثر من يوم، ظلت تخاف ذكرياتٍ لها فيها من قبل ان تولد، كان من الصعب ان تشرح (لسامح) أسباب كل ذلك، كان من الصعب أن تكرر الحديث عن تلك المأساة بذات العقل الذي تمتلكه، الآلم في تلك المأساة يُسمع للمرة الواحدة في العمر وإلا تسبب بأضرارٍ نفسية بالغة، تزوجت (ياسمين) بعد مرور شهر من وفاة والدتها، دون أي مراسيم للزواج، تطلب الصبر على فراق أمها اشهرا طوالا، فكل فراق يهون بنعمة النسيان إلا فراق الأم، فهو يهون بالصبر فحسب، اجبرها (سامح) على الإسراع بالزواج وشراء البيت وتهيئته للسُكنى، فلم تتمكن (ياسمين) من قضاء ليلةٍ أخرى تتلو اول واخر ليلة قضتها وحدها في شقة أمها من بعد وفاتها، حتى انها اضطرت لقضاء ذلك الشهر بأكمله في أحد الفنادق

بعد نوبة بكاءٍ وغضب آلمت بها وقتما عرفت حقيقة ابويها، ظل شخصاً ما يطرق الباب، اضطر للانتظار كثيراً بينما انتهت من بكائها في غرفتها وإغلاق الباب بالمفتاح، خرجت لتفتح الباب فتجد (سامح) ينظر إليها متفاجئاً من بكائها ومن عدم تغيير ثيابها بعد أن جاء على موعده في الساعة الثامنة، تتلعثم في اخباره السبب، تلتفت لتجد ذريعة وتخبره بأن أمها لا تزال جالسة في الشرفة ولم تنم في موعدها اليومي، وهي تلتفت لتشير إليه ترى من خلف

الباب الزجاجي الباب الفاصل بين غرفة الجلوس والشرفة رأس أمها وهو يتدلى الى الخلف وهي لا تزال جالسة بأيدٍ متكاتفة ووجهٍ شاحب واطرافٍ متجمدة.

هبوطٍ حاد في الدورة الدموية وتوقف مفاجئ لعضلة القلب، هذا ما اخبره بها طبيب المشفى الذي احتفظ بجثة أمها لحين اكتمال شهادة الوفاة، ظل (سامح) برفقتها حتى المدفن، تملك نفسه إزاء كلامها غير المفهوم وهي تجيبه وقتما سألها عن الكنيسة التي تود الصلاة على الجنازة وتقبل العزاء فيها، لم تتمكن من القيام بأي شيء، لم يكن لها أقارب حتى، دفنها (سامح) في مدافن الغرباء لأن لم يكن مدفن يخص عائلتهم، لم يُصلّ عليها ولم يكن لها عزاء مُعلن، كان هنالك دَين ووفى بهِ الزمن، أمها كانت قد دفت أمها بذات الشكل.

ينتهي الجميع من تناول الغداء، فتطلب زوجة الضيف تناول الشاي داخل المنزل ولشعورها بالبرد، يجلس الجميع في غرفة الصالة، تأخذ (ياسمين) زوجة الضيف لتريها شيئاً من غرفة نوم خاصتها، تدخلان فتنبهر زوجة الضيف باللوحة المعلقة على الجدار، دفعتها الدهشة لنسيان الامر التي دخلت من اجله حتى طلبت الى (ياسمين) بإلحاح ان تاخذها لزوجها ليراها، تخبرها وهي تتحدث بسرعةٍ وشوق كبيرتين على ولعهما بالرسم، كان ابوها نحاتا ورساما وزوجها هو ابن عمها وقضى اغلب عمر في منزل

عمـه واولـع هـو الاخـر بالرسـم دون ان يؤثـر ذلـك في دراسـة الطـب او امتهانـه.

تحمـل اللوحـة زوجـة الضيـف وتخـرج بهـا لتريهـا الى زوجهـا، تمسـكها بكلتـا يديهـا وتركـض فرحـة كأنهـا طفلـة تحمـل ثيـاب العيـد، تريهـا لزوجهـا فينبهـر هـو الاخـر، يقـف ليضعهـا عـلى طاولـة في ركـن غرفـة الجلـوس ويظـل واقفـاً وبقربـهِ زوجتـه، يتأملانهـا دقيقتـين او أكثـر، ثـم يصمتـان معـا ثُـم يتأملانهـا مُجـدداً وسـط ذهـول (ياسـمين) و(سـامح) اللذيـن ظـلا ينظـر احدهمـا إلى وجـه الاخـر، إلا أن (ياسـمين) تتذكـر عـلى الفـور كلام أمهـا عـن هـوس هـواة الرسـم باللوحـات، عـن قراءتهـم لتفاصيلهـا او لسـماعهم اصواتـا منهـا، صدقـت أمهـا مـا اخبرتها عـن (آسر) وكيـف يبعـث الحيـاة في لوحاتـه، تذكـرت اولئـك الثلاثـة القادريـن عـلى الخلـق، الـرب والروائـي والرسـام.

يلتفـت الضيـف، والدهشـة لا تـزال تجـبر عينيـه عـلى البقـاء جاحظـة، مُتسـائلاً:

- تعود هذه اللوحة الى حقبة السـتينيات او السبعينيات، الوانهـا أسـلوب الفـن الـذي تحملـه يعـود إلى تلـك الحقبـة، رسـمت هـذه اللوحـة في السـبعينيات، أليـس كذلك؟
- لحقبة السبعينيات. (تجيبه ياسمين)

يضرب كفاً بكف ويلتفت إلى زوجتهِ شامتاً، يهازحها قائلاً:

- هاتِ مبلغ الرهان.
- الستينيات ليس بالمدة البعيدة على السبعينيات.

(تجيبه زوجته مازحة)

- كلا، كان الرهان بيننا واضحاً، هاتِ مبلغ الرهان.

(يداعبها بمسك يدها)

- كفى، كفى، سأعطيك، أعدّه ديناً لآخر الشهر.

يعود الضيف إلى مكانه، يحتسي كوب شاي خاصته، يلتفت اليه (سامح) فيخبره بأنه للمرة الأولى يراه ينبهر بشيء لطالما عرفتك متشائماً ولا يعجبك ضياء الشمس، يجيبه بأن فن الرسم عشق اللوحات عالمٌ آخر، يختلف عن هذه الدنيا التي نعيش فيها.

لطالما كانت بقايا حياة (ياسمين) قبل الزواج داعيا من دواعي الخوف في حياتها الجديدة، تنتظر هدوء المُزاح وانشغال الحاضرين بحوارٍ اخر غير الرسم، لتمشي خلسةً وتعيد اللوحة لمكانها، إلا ان الضيف لا يزال يتحدث وينظر الى اللوحة على الرغم من دخوله بحواراتٍ أخرى، كانت لا تريد أي نسمة هواء تبعثر فوضى الذكريات التي لم تكتمل، ظلت أياما ترجو الدكتور حامد لأن تقرأ ملف أمها لعلها حدثته عن حياتها السابقة لتعرف من هي تلك المرأة التي ربتها، ولِمَ لم تفصح عن اسمها، واحتضنت ابنة (شدن) التي ظلت أعواما تكرهها وتشاركها حبيبها، أسئلة امتنع الدكتور (حامد) عن اجابتها لكونها من اسرار المرضى ولا

يمكـن تسريبهـا إلا بـإذن المريـض شـخصياً أو بإشـعارٍ مـن القضـاء، اخبرهـا بأنـه عالـج أمهـا مـن مـرض الوسـواس القهـري قبـل سـنوات بعـد أن شـخص حالتهـا بالاسـتماع الى مـا كانـت تضمـره، مؤكـداً لهـا بأنهـا ومنـذ سـنوات شُـفيت مـن المـرض.

تحمـل (ياسـمين) اللوحـة لتعيدهـا مكانهـا، فيقفـز الضيـف مُجـدداً مـن مكانـه، يأخذهـا مـن يدهـا ويعيدهـا عـلى الطاولـة، يُـمازح (ياسـمين) طالبـاً إليهـا اخـذ اذنـه لأعادتهـا في المـرات القادمـة، يضحـك الجميـع إلا هـي، يصلـح الضيـف مـا افسـدته مزحتـه التـي لم تـلاقِ استحسـانها فيقـول:

- لا داعـي للخـوف، أنـا امـزح، لـن اخذها، لـو كنت مكانـك واملـك مثـل هـذه اللوحـة وبهـذا العمـر مـا كنـت اريهـا لاحـد وليـس اسـمح بأهدائهـا، لـدي سـؤال واحـد.
- ما هو؟ (تجيب ياسمين بتلعثم من شدة القلق)
- لِمَ لم تحافظي عليها؟ هذا ارث، هذه اللوحة باهظة الثمن.
- بالعكس، حافظت عليها لدرجة عالية ولا يمسها أحد.
- كلا هنالـك ضرر في أحـد الأركان، هذا لون وضع ما بعـد رسـم اللوحة تلمسـيه.
- نعم. (تتلمسه ياسمين بلطف بإصبع السبابة)
- مـن أضاف هـذا الصبغ كان يقصد أحـد الامرين، اما هنالـك خـدش ظـن بـأن علاجـه يكـون بإضافـة لـون بهـذا الشـكل المـزري، او انـه أراد إخفـاء شيء تحتـه، اسـم امضاء، علامـة تجاريـة، لا اعلـم، لا يهـم اجلبـي لي شـفرة حلاقـة

وانـا ازيـل الصبـغ المُضـاف بلطـف ونصـل الى جـواب، امـزح معـكِ بالفعـل، لا اود ذلـك، خذيهـا وعلقيهـا، واحـذري جيـداً مـن سرقتهـا فقـد اتفـق مـع سـارق منـازل ذات يـوم لأسرقهـا.

تتعـالى أصـوات الضحـك، وصـوت القلـق لا يـزال يـصرخ في اذن (ياسـمين) لم تتمـنَ يومـاً أن تثـير التسـاؤلات فـوضى ذكرياتهـا مـرة أخـرى، تنتهـي دعـوة الغـداء بمسـاء عـارم مـن الفـرح.

تبقـى (ياسـمين) تفكـر فيـما قالـه الضيـف ليلـة تلـك الدعوة، (سـامح) جنبهـا غـارق في نومـه والسـهر والقلـق يجبرهـا عـلى السُـهد، تتأكـد مـن ذكرياتهـا وتحـاول إعـادة ترتيـب مـا تقـدر عليـه، تسـال نفسـها وتُجيـب، اللوحـة مـن رسـم (آسر) رسـم فيـه أمهـا التـي ربتهـا، كانـت ملكهـا ومـن أجلهـا، حافـظ عليهـا طـوال سـنين ولم تغـب عنهـا، تتأكـد مـن ان أمهـا قالـت ذلـك عـشرات المـرات، ثُـم تسـأل، مـا الـذي دفـع احدهـم لـلاضرار باللوحـة بهـذا الشـكل؟ تحـاول النـوم وهـي تظـن بأن اللوحـة أصابهـا خـدش وامهـا قامـت بمعالجتـه بذلـك الشـكل، تسـأل نفسـها مجـدداً ومـاذا لـو كان هنالـك شيء مُختبئـا فيهـا؟ تنهـض مـن فراشـها، تاخـذ اللوحـة مـن الجـدار وتذهـب الى غرفـة الجلـوس، تحمـل بيدهـا شـفرة حلاقـة وتزيـل برفـق ذلـك الصبـغ المُضـاف فتجـده يخفـي اسـماً كُتِـب تحتـه باللـون الابيـض، وجـدت اسـم (شـدن).

ظنت بأنها لن تتجرع ذلك السم الذي يصبه الماضي نكايةً بكؤوس الحاضر حالما يراه بأنه أجمل منه، ظنت بأن كل شيء انتهى، تجلس في قعر بئر وتنادي نحو الأعلى ولا أحد يسمعها، تقتلها الظلماء، فلا تجد الخلاص إلا بالعودة الى الدكتور حامد لتغريه بالمال او تُسبب له المشكلات لتعرف من تلك المرأة التي تربت باحضانها سنوات ولا تعرف من تكون.

ينتهي من ترتيب الأوراق التي امامه، يرفع رأسه لينعم النظر في وجهها، كأنه يبحث عن شيء، يُحرك حاجبيه دلالة على أنه تأكد منه، الدكتور حامد ينهض من وراء مكتبه ويجلس أمام (ياسمين) بعد أن اضطرت ان تنتظر يومين لتقابله، يتأفف قائلاً:

- كيف لي ان اساعدكِ؟
- دكتور، كم تريد مقابل تسليمي لملف أمي في عيادتك؟
- أنا متأكدٌ من ان (فيرونيا) قد علمتكِ ادب الحديث، لكن لا يهم، أنا املك من الشرف ما يكفيني لتجاهل طلبك. (يرجع الى مكتبه، يُقلب اوراقاً مُتجاهل وجودها)
- دكتور، تَفهّم موقفي ارجوك، هي امي وحق حيازة كل ما تملك هو حقي.
- كل ما تملك، وليس ما املك أنا، تشخيصها الطبي وحالتها مُلكي أنا.
- نعم، انت على حق ولكن ما تملك يتعلق بمصير انسان.

- ومن هو ذلك الانسان؟
- انا.
- وما شأنكِ وشأن حالتها؟ عاشت وتوفيت (فيرونيا) معكِ، وطوال تلك المدة لم تكن مريضة مثلما شرحت لكِ مسبقاً، او بالأحرى مرضها السابق لا يتصل بصلة بحياتكِ ولا بمستقبلكِ.
- حدثتني يوم وفاتها عن ماضيها بأكمله، عن (شريف) و(آسر) و(شدن) و(رؤوف) و(ليـ ....
- لا اعرف من هؤلاء، اسف، وقت العيادة مُخصصٌ للمرضى.
- ارجوك، أخبرني من (فيرونيا)، ومن هي (شدن)؟
- اسف، هنالك مريض يجب ان يدخل بعدك، سُررت بلقائكِ.
- ارجوك، ما عدتُ اتحمل هذا العذاب. (تقولها ببكاء وتوسل شديدين)
- الآن بأمكاني تسليمكِ اسرار مريضتي (فيرونيا) وبحسب وصيتها. (ينهض ويتقدم بإتجاه مكتبته حاملاً سلسلة مفاتيح بيده)
- ماذا!! لو انني اعلم بأنك تحب ان تذل الناس لتساعدهم لقمت بما تحب.
- الامر ليس كذلك. (يرجع الى مكتبه حاملاً ملفا بيده كيسٌ ورقي)
- ما أسباب امتناعك إذن؟ جئتك وتوسلت إليك

قبل أكثر من عامين، وها أنا اعود للمرة الثانية واكاد انهار، أنا طبيبة وزوجي طبيب ونعرف الى أي حد نحافظ فيه على اسرار مرضانا، غرابة قِصتها كابوساً ظل سيُلاحقني.

- الامر ليس بيدي، أنا مؤَمَن على وصية (فيرونيا) واسرارها وهذا ملفها الطبي طوال السنين علاجها ومراجعاتها الدورية وهذا شريط سجلتهُ لكِ في مكتبي هنا في آخر جلسة قررت فيها ان تبوح لكِ بالسر المخبأ عنكِ، اوصتني بألا أُسلِمها لكِ إلا في حال ظهور أحد في حياتكِ يُقلب بأوراق الماضي، الماضي الذي دفعت (فيرونيا) من اجل ابعادكِ منه اغلى ما تملك، ولطالما أنا طبيب فأنا اقدر الحالة التي انت عليها الان ومن القناعة ان أعدها أحد الشروط التي يستوجب فيها تسليمكِ هذه الأمانة.

تخرج (ياسمين) من عيادة الدكتور (حامد) بعد ان قدمت له من الامتنان والشكر ابلغ الكلمات، تأسفت له لسوء فهمها، وتملك هو اعصابه مازحاً بأن ما تفوهت به اتجاهه ابسط بكثير من انفعلات المرضى وشتمهم له وانه تَفهّم حالة غضبها والتمس العذر منها لأنها وصية.

لم تجد مكاناً لتشعر بما يضمره لها ذلك الشريط الصوتي الذي بحقيبتها، تعود الى منزلها وتحاول سماعه ولكنها تُقرر الاتصال (بسامح) لتخبره بأنها ذاهبة إلى شقتها القديمة

لجلب أغراض مهمة لها، الامر زرع الشك بسامح واثار قلقه وريبته، أي شيء تحتاج له بعد عامين من تركها للشقة مقفلة ولم يدخلها أحد.

تدخل (ياسمين) شقة أمها، تجد الاتربة تُغطي كل شي، لم تأخذ غير البستها من الشقة وتركت كل شيء كما كان ليلة وفاةِ (فيرونيا)، تتقلب الذكريات امامها كأوراق كتابٍ قديم، تدخل في غرفة أمها وتنظر الى حاجاتها، دولابُ البستها، سريرها، اخر كتاب كانت تقرأه تحت وسادتها، المذياع المشغل للاشرطة الصوتية كان في أحد الأركان، قربه تتبعثر شرائط (عبد الحليم) التي لم تطرب آذان أمها على غيره، تجلب كرسيا وتجلس في غرفتها، تضع الشريط الصوتي في الجهاز وتنصت الى السر الذي لم تفصح بهِ أمها:

«إن كنتِ تسمعين لهذا الشريط الآن فمن المؤكد أنني في القبر فتأكدي بأني سعيدةٌ لوفاتي اشد السعادة، كان لزاماً لهذا العذاب ان ينتهي، اتذكرين تلك العبارة؟ انتهى منهم جميعاً إلا أنا، استمر معي الى وقت تسجيل هذا الشريط في مكتب الدكتور حامد، متأكدة بأنكِ تنصتين لي الان وحدكِ، ومتأكدة ايضاً بأنكِ تزوجتِ (سامح)، شاب لطيف وزوجٍ صالح، كان اختيارك صائباً، لعل الحُب في زمانكم مرنٌ أكثر من زماننا، تفكرون في الحُب بعد الاعجاب بالانيق او الوسيم او ذي الخُلق، الحب في زماننا مُحال ان يكون من صنع البشر،

لعلها كانت آلهة ما من الحضارات السابقة قد صَبّت لعنتها آنذاك. أنا (شدن)، اكاد أرى ملامح وجهكِ الان وهي تنبهر، واكاد اموت ميتةً أخرى لأعرف لمَ الدكتور حامد اعطاكِ الشريط الصوتي الآن لكنني في الجانب الاخر من الحياة ولا يمكنني سماعكِ، لطالما ارعبني قولٌ نُسِبَ إلى علي أبن ابي طالب: «الناس نيام، ما إن ماتوا استيقظوا»، اوصيت الدكتور بعدم تسليمكِ هذا التسجيل إلا عند ظهور أحد يؤجج حاضركِ بسبب لعنة ماضي امكِ. أنا (شدن)، وكل ما حدثتكِ إياه حقيقة، وكل ما كان في نص المسرحية حقيقة، أنا كلاهما، أنا (شدن) وأنا امكِ، شطرت نفسي لنصفين من دون دراية، صرت امرأة بشخصيتين، مرضٌ لعين دفعني لذلك، منذ ان اكتشفت خيانة شريف لوطنه، وانا هجرت آسر لأجل الزواج منه، صدمةً لم استوعبها آنذاك، كتبت الوجع على ورق واظهرتهُ للناس بعرضٍ مسرحي، أعطيت أجرا لامرأةٍ تشبهني قليلاً وتُجيد العزف على البيانو لتمثل دور (نصفي في عرض المسرحية، و(نصفي) الاخر اديت دورهُ انا، أنا (شدن)، اللقيطة التي تُركِت في الشارع، اخذتني امرأة وربتني حتى بلغت سن الحادية عشرة، تحرش بي زوجها الذي لم انادِه (ابي)، كان يبغض وجودي في المنزل برفقة أولاده الاثنين، يكره جلوسي على مائدة العشاء دون ان اتركه يتلمس جسدي، كان عاطلا من العمل ويحتسي الكحول بدء من الظهيرة، امي التي ربتني كانت ترعى شؤون البيت لأنها كانت من ابٍ ثري

ولها تركةً منه، اضطر زوجها يوماً لأن يدخل ابن الجيران الى غرفتي وقت الظهيرة تزامناً مع عودة امي الى البيت بعد أن جعل أحد ابنائه يقف في الشارع ليترقب مجيئها ويخبره، دخلت امي فاخبرها بوجهٍ يستشيط اني امارس الجنس مع ابن الجيران في غرفتي، دخل الصبي دون ان اشعر به، بعدها دخلت امي غرفتي ووجدتني نائمة على السرير والصبي على الأرض شبه عارٍ ادعى انه نائمٌ ايضاً بعد ان اتعبنا ما قمنا به، كرهتني امي وزجت بي في دار الايتام، لم يتم قبولي لأنني اكبر من العمر المُحدد للدار، تشاورت امي مع صاحبة الدار لتبلغها عن حقيقتي وعن حقيقة ما فعلت، فتم قبولي بعد أن هزت صاحبة الدار رأسها بتفهم الموضوع، طمعت في بيعي لاحد الأثرياء لأنني باكر، وفكرت في بيعي الى دارٍ للدعارة ومرة أخرى لتهريبي الى خارج مصر، بضعة اشهر وباءت كل محاولاتها بالفشل لطمعها بمبلغ اكبر من المال الذي تم تثميني به، سمع بقصتي ذلك البدين واغتصبني فقتلته ودخلت السجن وتعرف الى (ليلى) وتأثرت بها بالعمل بالتمثيل والتحدث في السياسة، خرجت من السجن فَمد (آسر) يده لي وناولني قطعةً من فاكهة الكرز، وليسمح لي بالجلوس على حجره وهو يعلمني عزف البيانو، العزف الذي اردت العمل بهِ لكسب لقمة العيش في زاوية ذلك المطعم الذي رأيت فيه (شريف) ومن ثم اتزوجه.

كنت عاهرة، كما نعتني زوج امي لأنني رجعت إليهم بعد ان طلبني (شريف) للزواج، كان من الجيد ان يرى لي اسرةً ومنزلا، اصطنعت البكاء والندم وانا ارتمي بحضنها واكذب عليها بأنني بالفعل أدخلت ابن الجيران لغرفتي لتقبل ندمي، رأى زوجها سيارتي الفخمة ومبلغ المال الذي أعطيه لأمي لكي يسيل لعابه ويقبل بالمال الذي اعطيته إياه ليقابل (شريف) ويقول بأنني ابنته، تكررت زيارتي لهم عدة مرات حتى بات الاثنان يموتان شوقاً إلى زيارتي، في وقتها نفدت أموال إرث أمي وهاجر ابناها الى أوروبا وبقي ذلك السكير برفقتها، اقنعتها بعدما وثقت بي بالتنازل عن منزلها لي رسمياً، كنت اقرأ لها رسائل ابنيها اللذين لم يبعث أحدهما أياً منها، كذبت عليها واخبرتها بأنني اتواصل معهما عبر الرسائل البريدية وابلغهما بمرض امها وانها على وشك الموت ويجب عليهما العودة الى مصر ورؤيتها، أصرت على عودتهما في آخر أيامها لكي تبيع المنزل وتقسم ثمنه بينهما لئلا يتمتع زوجها السكير العاطل باملاكها، قرأت اخر رسالة زعماً بأنها منهما يخبرونها فيها بأن الدول التي يلتجؤون فيها تمنعهم من السفر وترك العمل لأنهم ما إن سافروا يُمنعوا من العودة فأقنعتها بأني ساقوم ببيع المنزل وايصال ثمنه لهما من خلال سفري مع (شريف) وكان الغنى الذي اتظاهر فيه سبباً لأن تصدقني من ذلك فتمكنت من الانتقام منها ومن أبنائها ومن زوجها السكير القميء ذاك. كنت عاهرة، ولكنني ما

سلكت ذلك الطريق إلا بعدما جعل الجوع وجهي كوجه المومياء الفرعونية، تزوجت من (شريف) وختنه ايضاً ليس بإرادتي، كنت اتقيأ بعد كل ممارسة للجنس معه، لم يكن الامر بيدي، ختنه لأن زواجي منه زواج مصالح، استغل جمالي وقوام جسدي لمصالحه التجسسية وقبض ازاءها الآف الدولارات، تزوجني من اجل مصلحة عمله وتزوجته لكي أكون سيدةً في المجتمع. اتفاقٌ عادل، أليس كذلك؟ لا أتمكن من سماع اجابتكِ لكن صدقيني كنت بأمس الحاجة لسماعها. السرير في غرفتي هو سرير (آسر) الذي كان يجمعنا في شقته، هو ذات السرير الذي اجبرته على ان يكون ضمن ديكور المسرح ليلة العرض لكي تكون كل المشاهد حقيقية وكل ما نقوله او نشعر به حقيقي. تحت وسادتي اخر كتابٍ كنت اقرأه، أحببت القراءة لأنني بقيت أحاول انتزاع الخوف من داخلي، ظل ذاك الخوف الذي يمتلكني وانا اقرأ وانصت خائفةً من صوت باب غرفتي اذ يُفتَح وارى زوج امي ثملاً يفتح فمه على رقبتي ولعابه يسيل على كتفي، افتحي ذلك الكتاب الذي تحت وسادتي وستجدين بين أوراقه سندات ملكية عمارة مثبتا العنوان فيها، ملكيتها باسمكِ، ستجدين ايضاً سند ملكية الشقة وهي ملككِ ايضاً وايصال ايداع بمبلغ في البنك كان هدية زواجكِ من (سامح)، اخبريه بأنني احبهُ كثيراً، لعله يعلم أني كنت على مضض اتعامل معه بتلك القسوة، لا اريد منك العيش في القاهرة،

لا اريد منك التعرض لمصادفةٍ قد تؤذي حياتكِ بسبب املكِ وماضيها البغيض، وفرت لكِ الأموال لتعيشي بترف، ليس لئلا تكوني مثلي فحسب؛ بل حتى لا تقرأي قصةً او تشاهدين فلماً يشبه قصتي، ابتعدي من الحزن واحلمي بحياةٍ جميلة، ولطالما أن جمال الحياة متعلقٌ بالمال فهو متوفرٌ لديكِ، تذكري بأنكِ يوماً ستبلغين الستين من العمر وستندمين على كل الأشياء التي لم تفعليها ولن تندمي أبدا على اخطاءٍ ارتكبتِها، الموت شيءٌ حتمي لكن الحياة بتفاصيلها واجزائها نِتاج عقولنا. سأتوقف عن تناول عقاقيري لثلاثة أيام قبل ان احكي لكِ قصتي لأنني سأكون ليلتها بضغط دم منخفض جداً سيؤدي الى وفاتي، هذه ارادتي وانا احدثكِ الآن عبر هذا التسجيل، وكوني واثقة بانني سأظل ادعو الله بأنكِ وقتما تستمعين صوتي هذا تكونين بأفضل حال ولم يظهر اي من رُفقائي في حياتكِ. ساعدني الدكتور حامد للبدء بحياةٍ جديدة بعدما هربت وانا احملكِ واحمل حقيبة مملوءةً بالاموال كانت ثمن العيش المر، كنت أعيش بنصفين، كنتُ ارى الكرسي المُتأرجح في الشرفة يتأرجح وكأن احداً يجلسُ عليه، وغالباً ما اشعر بالحفيف من حولي وفي أُذنيّ عند الاستيقاظ فذهبت للعلاج عنده واخبرته قصتي، ساعدني بكونه طبيبا نفسيا وبكونهِ صديقي الوحيد، تعرفتُ عن طريقه الى موظفٍ يتقبل الرشا مقابل تغيير الأوراق الرسمية في تسجيل الولادات والوفيات، بحث شهرين وجاء لي باسم (كامل محمد) رجل

تـوفي بالعجـز الكلـوي ولا لم يكـن متزوجـاً وليـس لـه اقـارب، توصـل إليـه مـن خـلال الموتـى الـذي تتكفـل الدولـة بدفنهـم، نَظـمَ عقـد زواج بينـي وبينـه قبـل وفاتـه بأربـع سـنين ولم يكـن باسـم (شـدن)، كان باسـمي الجديـد (فيرونيـا داود سـعيد)، كان لامـرأةٍ توفيـت بحـادث سـير، لهـا اخ واحـد واب يعـاني الزهايمـر، مـن حسـن الحـظ كان اخوهـا يُحـب المـال أكثـر مـن أي شيء فوافـق مقابـل اول عـرضٍ قُـدِّمَ لـه، في وقتهـا رفضـت لأنهـا مـن الاقبـاط وليـس مـن السـهل التأقلـم مـع اسـمها في البيئـة الاجتماعيـة في القاهـرة، إلا أن القَـدر لم يجـد لي غيرهـا، مقابـل مبلـغ ضخـمٍ مـن المـال شُـطِبَت واُتلِفـت شـهادة وفاتهـا واوراق الحـادث مـنَ مركـز الشرطـة والمستشـفى التـي شَرحـت جثتهـا، واصـدر شـهادة ولادة لـكِ بـأم وأب لم ينجبـوكِ وهويـة رسـمية باسـم (ياسـمين). الدكتـور حامِـد خـارج الغرفـة الان، تركنـي اتحـدث بسريـةٍ تامـة في هـذا التسـجيل وأنـا عـلى اتـم ثقـة بأنـه لـن يسـترق الانصـات الى هـذا التسـجيل لأنـه امـين، لكنـه عـلى علـم بـكل شيء، لـولاه لكنـت حبيسـة ذلـك المـرض، شُـفيت بالكامـلً، وصرت أرى الكُـرسي المتأرجـح بكامـل قـوايّ يتأرجـح وحـده فتأكـدت جيـداً بـأن روحـه ظلـت بقـربي. شُـفيتُ ايضـاً مـن مُعانـاة رؤيـة وجهـي في المـرآة بنصفـين، نصـفٌ يتسـم بالفضيلـة ونصـف اخـر يتسـم بالذَنـب، بعـد شـفائي، أدركـت وأنـا بكامـل قـواي بأننـي امـرأة بنصفـين، إن كـشرت لي الدنيـا عـن انيابهـا التفـت لهـا يمينـاً لاظهـر وجـه الذَنـب،

وإن نِلتُ منها رغيد العَيش التفت يساراً لاظهر لها وجه الفضيلة، هذه حقيقة كل البشر، فلا يُغريكِ تَسبيح الدَواعِر ولا تَمقتين خِمار المومسات، الوداع»

ينتهي التسجيل الصوتي، تخرج (ياسمين) من غرفة أمها بعدما اخذت الكتاب الذي تحت وسادتها، تتأكد من اقفال الشقة مجدداً ونوافذها، تذهب الى الشرفة فترى الكُرسي المُتحرك خارجاً وجنبه الكرسي جلست عليه وقتما كانت تنصت لقصةِ أمها، تقفل الباب الزجاجي الخاص بالشرفة ثُم الباب الخارجي وتنزل السلالم وهي تقلب أوراق الكتاب فتجد ما وعدتها به، تخرج من المبنى ثُم تسير بخطواتٍ مُتباطِئة نحو البحر، تلتفت متأملةً بشوق شُرفة مسكنها القديم في الطابق الثالث فترى الكرسي في الشُرفةِ يتأرجح.

التواصل مع دار كتاب
Email: darkitabone@gmail.com
دار كتاب للنشر والتوزيع :facebook
صفحة دار كتاب
٠١٠٢٩٧٥٥٢٠٠